

قضايا الشعر المعاصر

أحمد زكي أبو شادي



قضايا الشعر المعاصر

قضايا الشعر المعاصر

تأليف
أحمد زكي أبو شادي



قضايا الشعر المعاصر

أحمد زكي أبو شادي

رقم إيداع ٢٠٣٥٩ / ٢٠١٤
تدمك: ٠ ٤٩٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

المحتويات

دفاع عن الشعر

دخل عليَّ صاحبي وأنا أقرأ: «إذا ألقت العبودية عصاها في أمةٍ عَميت هذه الأمة عن خيرها وشرها، وسارت في حياتها كما تسير قطعان الضَّأْن، لا تسمع إلا رنين جرس الكبش الأول، عينها في الأرض وفمها في منابت صغار الحشائش، وعصا المستعبِد فوق كتفه يَهُشُّ بها عليها كلما رأى انحرافًا عن الخطة المرسومة لها في حدود رعيها.»

فقال صاحبي: «ما هذا الكلام؟» قلت: «هذا ليس كلامًا فحسب. هذا شعر، وإن شئت فقل: هو شعر منثور!»

فتعجب صاحبي وتساءل: «ومن أي كتاب أو ديوان هذا، عافاك الله؟» قلت: «هو من كتاب «في ظلال الحرية» للدكتور محمد بديع شريف، أو من ديوان شعره المنثور؛ فقد جمع في بيانه بين الجزالة الموسيقية والعاطفة القوية ودقة التصوير، وزان كل هذا برسالة مثالية هي رسالة الحرية في وقت قلَّ المنافحون عنها بين الأدباء والشعراء بل ندروا، وجبُنَتْ حتى هذه القلة النادرة عن التعبير عن خواطرها والإفصاح عن إيمانها في الوقت الملائم الحاسم ... لا تعجب إذن عندما أخص مثل هذا الكاتب الشاعر باحترامي، وإذا ما احتفيتُ بشعره.»

فقال صاحبي: «أراك يا أخي عُرضة لخداع المثاليات فتحسبها من عناصر الشعر أو أنها هي الشعر، فهل لك أن تذكر أن الشعر شيء آخر، هو قبلَ كلِّ شيء الخيال الذي ينقلك إلى عالم أثيري غير ما يَشْغَلُ عقلك المفكر؟ ... أرى عينيك تتحدَّياني فاستمع إلى هذا

المثال الصادق من الشعر المنثور عن ديوان «النشيد التائه» للشاعرة الفلسطينية الموهوبة «ثُريا عبد الفتاح مَلْحَس»، وهو قصيدتها «الليل»:

طَوَيتُك كما تطوي بتيلات الزهور لونها في صدرها. طويتك خوفًا وأنت لا تدري فسمعت أنفاسَها تعج! ... أنا أخاف عليك من وهج الشمس ... أحبك في الظلام، وعندما يئن الليل، ويمشي الفقير مشردًا في الطرقات، لا مأوى ولا منأى! ... أحبك في عبق الزهور وفوح الياسمين. أخاف عليك من كهْم النهار فأفرش أمامك الورود، وتفرش أمامي الأشواك! ... ثم تغيب في ثنايا الليل، فأسمع الماضي يتقلب! ... أَنظر إلى كتابي أمزقه وأنثر أوراقه، فتذوب بين أناملي؟ ... لا أدري من أين أتيت! ... من بلاد عبقر؟ ولا أدري إلى أين ذهبت! ... أسراب في سراب؟ ... أعطني يا إلهي قوتي ... إن مناجاتك أضوتني ... سمع هزيع من الليل فافترَّ عن ألف فم ... وطلعت الشمس تصرع العشاق، وذوت الأزهار تندِف عصارة السَّحَر! ...»

قلت: «حسنًا يا صاحبي! ولكنك لست أكثر إعجابًا مني بشاعرية «ثريا» أو «نازك» أو «فَدْوى»، وزملائهن من شعراء الخيال الجامح «والسريالية»، سواء أكان ما جاءوا به منظومًا أم منثورًا، ولا خطر من ثنائك هذا على مثلي الذي شق الطريق Free verse للشعر الحر منذ عقود ثلاثة من السنين كما شق الطريق Pink verse للشعر المرسل من قبلُ شاعرُنا الموهوب «عبد الرحمن شكري»، ولكن خطره سيصيب أولئك الشعراء والشواعر، ومن يؤخذون بسحرهم؛ إذ قد يتوهمون أو قد يتوهم البعض أن الشعر محصور في نماذج أشعارهم تلك، وهي نماذج لم أعدم مثيلاتٍ ماهدةً من طرازها في دواويني ومؤلفاتي، فإذا ما دافعتُ عما عداها فإنما أدافع عن الشعر عامة لا عن نفسي؛ عن حقوقه ومجالاته، عن حريته الفنية التي يميل هذا وذاك إلى الافتئات عليها، مع أنه لولا هذه الحرية الفنية لما احتمل النقاد المستقلون الضروب الجديدة من الشعر، إننا لنطرب حقًّا حينما نقرأ مثلًا قصيدة «غفران» من ديوان «قُربان» لشاعرتنا «ثُريا»:

أحس اختفاقًا يزحف من قلبي إلى عيني! أحس تَلَبُّدًا ينسلُّ من دمي إلى صدري! أُحِسُّ صُخورًا تُجْبَلُ من عظامي تنحدر إلى أذني! أحس روحي ترهقني، تتمطى، تُحطِّمني! فيا رياح اغمريني! ويا يد الإله خلصيني! يا طبيعة اسحقيني! علَّني أعطي للزهور عطرًا، للأرض خِصْبًا، للفراشات لونًا!

أحس في نحري اختفاقًا! خلصيني يا يد الإله! اصْلُبي قلبي غفرانًا لقلوب البشر!»

فإن هذا الشعر يعتمد على طاقته فحسب، لا على صنعة أو بَهْرَج أو موسيقى، وهو برهان على صدقية ما نادينا به من قديم عن كفاية اللغة العربية لخدمة الشعر المتجرد مثل كفايتها لخدمة الشعر المتدثِّر بالأزياء الجذابة من موسيقى وألوان وأضواء وظلال، فالشعر شعر في أية لغة بأحاسيسه وارتعاشاته وومضاته وخيالاته، وبحقائقه الأزلية ومثالياته.

وإذا قدرنا ألوان هذا الشعر المتجرد أو المرسل أو الحر أو الرمزي أو السريالي ونحوها، فليس معنى ذلك أننا نبخس الضروب الأخرى من الشعر حقها، أو ندعو إلى إغفالها، كما يدعو إلى ذلك بعض الأدباء الذين لا يقدِّرون أن ثروة أية لغة هي بمجموع آدابها، وأن الخير كل الخير في تنوع ضروبها، لا في حصرها. ومذهب الحصر مضاد للحرية، في حين أن الحرية هي صديقة الآداب والفنون، بل والمعارف عامة، فالإملاء على الشعراء والتحكم فيهم هو أولًا قتل لمواهبهم، ثم قتل للشعر وممكناته، ثم إفقار للغة وآدابها، هذا ما آمنتْ به «أمريكا» في ثقافتها، بل في جميع مرافق حياتها، فوثبتْ إلى الأمام وَثَبَاتٍ جبارةً، وتسلمتْ زعامة العالم الحر.

وهذا ما يجب على العالم العربي أن يحتذيه حتى تصير حرية الشعور والفكر والنظر فيه النبراس الوهاج للتقدم المنشود، وعلى ذلك فنحن إذا مجدنا هذا الضرب أو ذاك من الشعر فلسنا بغافلين عن مزايا الضروب الأخرى، ولا يمكن بأي حال أن ندعو إلى الحد من الحرية أو أن نحارب الإبداع، وإنما نحارب الضحل والفقر والرجعية والعجز التي تتظاهر بعكس حقيقتها وتجني على الأصالة والعبقرية ونحن لا نتحكم في ميول أي شاعر، وحسبنا أن يكون مخلصًا يهدي إلينا عصارة قلبه ونفثات روحه، ولا يكون مجرد صانع يلعب بالألفاظ والمعاني ويعبث بها وبالناس، فتتناثر هذه الرغوة البراقة وتتزايل على مر الأجيال، كما حدث لشعر كثير لم تسانده العاطفة الصادقة والإيمان الصحيح.

وإذا كنا نؤمن بهذا المذهب الفني الشامل، الذي ينتظم في الواقع مذاهب فرعية، فليس في مذهبنا طبعًا أن نُغْفِلَ «الشعر الكلاسيكي» القديم أو المجدَّد، ولا ما عداه، من فن أصيل، قد ينتقده من لا يعرفه، أو من لا يستطيع أن يجول في مجاله؛ لأن له ذوقًا خاصًّا يلزمه ضُروبًا أخرى، واتجاهات مختلفة، وصِيَغًا معيَّنة.

وإنه لجميل أن يشمل عالمُ الشعر عظائمَ ودقائقَ كثيرةً، ولكن من الشذوذ العجيب أن يستثنى منها الإنسانُ ذاته، في حين أنه ما من أدب رفيع في الشرق أو في الغرب إلا وكان سناده الإنسان ذاته، وما من أدب خالد اعتمد على الأخيلة المزوقة، أو الجامحة فحسب، أو عدَّ الحياة مقصورة على أنانية الأديب ودائرته الضيقة!

لنا أن نحتفي بكل لون من ألوان التفكير والتعبير البشري، وعلينا أن نناهض «الدكتاتورية الأدبية» والفنية؛ لأنها في النهاية بمنزلة سم للأدب والفن؛ كما كانت نظيرتها في القرون المظلمة سُمًّا قاضيًا على العلم.

إننا ندافع عن حرية الشعر المطلقة موضوعًا وتعبيرًا؛ ندافع عن هذا الفن الرفيع الذي متى بلغ الذروة بإنسانيته وبقيادته الجريئة الحرة، كان الرائد لحركات الإصلاح والتطهير والتسامي، خلافًا للشعر المصنوع الهوائي الوصولي، ندافع عن حق الشعر الإنساني المعلِّم المعنف الذي يخاطب «الانتهازية» بقوله:[1]

تَقَلَّبي! تلوَّني! يا صُورةَ الحِرْبَاء!
واسْتَمْرِئي الغُنمَ ولو رَتَعْتِ في الدماءِ!
تَقَلَّبي! تلوَّني! يا كعبة «الأبطالِ»!
مِنْ كلِّ غِرٍّ آثمٍ يَجْنِي على الأجيالِ!
مَا ضيهمُو — مَهْمَا دَنَا — عالٍ من الأحرارِ!
يَكفيهُمو تَمْثِيلهُمْ في جُرأَةِ الفُجَّارِ!
تَقَلَّبي ولْتَغْنَمي برغمِ أَنْفِ النَّاسِ!
يا ما أَضَلَّ رُشْدَهُمْ، في ساعةِ القسطاسِ!
تَقَلبي ولْتَسْخَرِي مِنِّي كما شِئتِ، فما
أرْجُو لِمثْلي غيرَ طولِ الجُوعِ أو فَرْطِ الظَّمَا!
بأني غريبٌ دائمًا في عالَمِ الدَّهْماءِ
فَلْتَسْخَرِي منِّي، فما مُكنْتِ مِنْ رجائي!
إني وفكري رُبِطَا بِعَقْدِةِ الحياةِ

[1] عن ديوان «النيروز الحر» «لأحمد زكي أبو شادي».

كتوءميْن اتحدَا في العيشِ والمماتِ!
إني وذِهْنِي عالمٌ — مهما بدَا — مَجْهُولُ
وقد يُخالُ آفلًا، وما له أفولُ!
تقلبي ولتسخري مني ومِن أمثالي
لتغنَمِي سُخري وإنْ أَصْبَحْتُ لا أُبالي!

وندافع عن حق «الشعر المتصوف»، في نِشْدان الجوهر والحرص عليه؛ إذ يقول:[٢]

سِيَّانِ إنْ تُصْغِي للنُّصْحِ أو تُغْضِي
يا نفسُ فالآتي مِثْلُ الذي يَمْضِي
العَيْشُ إذْ يَشْفِي كالعَيْشِ إذْ يُضْنِي
إنَّ الذي يُحْيِي بَعْضُ الذي يُفْنِي
الطهْرُ لا يُدْني والعُهْرُ لا يُقْصِي
فالكأسُ إنْ تَطْفَحْ كالكأسِ في النقصِ
الجوهرُ السَّامِي يَبْقَى بلا رجسِ
كم مُومسٍ تمضي عذراءَ للرمس!
فافعل كما تَهْوى يا قلبُ! لا تحذرْ!
إن كنتَ مِنْ تِبْرٍ ما ضَرَّكَ المَصْهَرْ!

وندافع عن حق «الشعر الوجداني» الحزين في التنبيه إلى واجب الإخاء الإنساني، والدعوة إليه، وسط ضباب اليأس؛ كقوله:[٣]

أنا إنْ مِتُّ أُصَيْحَابي ادفِنُوا جَسَدِي في بُقْعَةِ المَرْجِ الخصيبْ
حيثما البُلبُل يَشْدُو مائلًا كيفما مالَ بِهِ الغُصْنُ الرَّطيبْ
حيثما الجدولُ يجري باكيًا يُسْمِعُ المحبوبَ أنَّاتِ الكئيبْ

[٢] قصيدة «سيان» لنسيب عريضة.

[٣] قصيدة «إن أنا مت» لندرة حداد.

حيثما الصَّفْصَافُ يَحني رأسَه شِبْهَ مَنْ أضناهُ هِجرانُ الحبيبْ
حيثما تَرْعَى المواشي حُرَّةً لا تَخَافُ الغَدْرَ من وَحْشٍ وِديبْ
وإذا شئتم مُناجاتي اجلسوا حَوْلَ قبري ساعةً عند المَغيبْ
لا تَنُوحوا لِفرَاقي حَسْرَةً أنا مَنْ يَكرهُ أصواتَ النَّحِيبْ
لا تَظُنُّوا القَبْرَ فيهِ غُرْبَةٌ لَيْسَ مَنْ في صُحْبَةِ القبر غريبْ
عِشتُ في الدُّنيا زَمانًا لم أَجِدْ أحدًا في النَّاسِ أَدْعُوهُ قريبْ!

وندافع عن حق الشعر الفلسفي في التنبيه إلى غرور الإنسان وخداع الشهرة[٤] إذ يُنْشِدُ:

كَتَبْتُ في الجَزْرِ سَطْرًا عـلـى الـرَّمْـلِ
أَوْدَعْتُهُ كُلَّ رُوحي مـع الـعَـقْـلِ
وَعُدتُ في المدِّ أَقْرَا وأسْـتَـجْـلـي
فلم أجِدْ في الشواطي سـوى جـهـلـي!

ندافع عن هذه النماذج وعن مثيلات أخرى عديدة ذات قيم إنسانية، كما ندافع عن حق الشعور الإنساني إطلاقًا في التعبير عن ذاته في أية صورة شاءها تعبيرًا فنيًّا هو ما ندعوه «الشعر»، ونناهض كلَّ تَزَمُّتٍ أو تحكم قُضِيَ عليه في العالم الجديد، لا في الشعر والآداب والفنون والعلوم فحسب، بل في الأديان أيضًا، وبذلك أتيحت لأمريكا نهضة لم يعرف لها نظير في تاريخ البشرية، تضافرت الفنون والآداب والعلوم والأديان جميعًا على خَلْقها، وتألقت في سماء الحضارة إلهامًا لبقية العالم.

فلما أنهيت حديثي حسبت صاحبي نائمًا؛ إذ كان مغمضًا عينيه طول الوقت الذي اندفعتُ فيه كالجواد الجامح، ولكنه فتح عينيه المشرقتين، وابتسم ابتسامة المؤمن ثم ردد: «آمين!»

[٤] مقطوعة «الشهرة» لجبران خليل جبران.

شعر التسامي[١]

لم يظفر شعر التسامي Poetry of Sublimation في القرن العشرين بأثر أفخم من ديوان «الشاعر القروي» لرشيد سليم خوري، الذي طلع على الأدب العربي يُمنًا وبركة في مستهل سنة ألف وتسعمائة وثلاث وخمسين، منتظمًا في الواقع سبعة دواوين متعددة الأغراض، ما بين حماسية واجتماعية ووجدانية وفلسفية وإنسانية، في ضروب من الشعر الوصفي والخيالي والرمزي وسواها، بريشة فنان مبدع تجري الموسيقى والشعر في دمه على سباقٍ.

يقول فيما يقول عن الحب:

> ذلك حبي الأول. ذلك الحب العذري الذي أومن به؛ لأني خبرتُهُ. ولا أزال أحار في سره وأجده عجبًا عجابًا كيف كنت أرضى بتلك اللذة الروحية من أجمل الصبايا وأحبهن إلى قلبي! ولماذا كنت إذا لقيت غيرها من النساء يضطرم دمي ويضطرب في عروقي كلجة من نار! الحب الطاهر حقيقةٌ لا ريب فيها أيها الشباب.

ويقول عن شغفه بالطبيعة:

> أراني في حياتي أشعَرَ مني في شعري، فما زرت بلدة إلا وشاقني قبل التعرف إلى باطنتها وناسها، أن أرود ما يحيط بها من الأرض الفضاء، مصعِّدًا في

[١] Poetry of Sublimation.

الروابي، هابطًا الأودية، سابرًا المغاور، جائسًا الكهوف، باحثًا عن الينابيع! وأشد ما يستهويني تلك الهضاب التي تتوسط الصخورُ تعاشيبَها، كأنها الأغنام رابضة في المراعي الخضر، فإذا ما انحجبتُ عن العيون، واطمأننتُ إلى المعزل البعيد، استخفني السرور، وأطَعْتُ سُنَّةَ الهواء والنور، فرحت أطرح عني ثيابي قطعة قطعة، وأنا أطفر بين التلال هازجًا أنفِّر السائمة.

وإذا طغى الجمال كما في «لبنان»؛ فجمع بين سمو الجبال، ونضرة السفوح، وترقرق الجداول، وزُرقة البحر والسماء؛ ردَّني إلى خنوع يُلصق جبيني بالتراب، ويسكب من عينيَّ وشفتيَّ تسبيحةً رطبةً حارةً! وقد يتجسم شعوري بصلة القربى بيني وبين هذه الأكوان، فأنعطف على الشجرة أعانقها، والصخرة أضمها، والزهرة أناغيها، والمَرْجَة أتقلَّب عليها، وأمد ذراعي إلى السماء أحييها، وأبعث إلى الشمس بقبلاتي على أطراف بناني، والشمس حبيبتي الأولى وفتنتي الكبرى، ليس أبعث لنشاطي الجسدي والذهني من الاستحمام بنورها، ولا ينافس إشراقتها في قلبي غير ابتسامة المرأة الحسناء، وأعتقد أن تشاؤم «المعري» كان بقدر حرمانه من كلتيهما، وقد تسكن نفسي المضطربة في المدينة إلى عشبة خضراء بجانب الطريق فأقف عندها، أو أمشي متمهلًا حذاءها شاكرًا لها إحسانًا غير مقصود، وكم هزني الشتاء العاصف كالربيع الضاحك فإذا اهدودرَ الشُّؤبوبُ صحتُ: لبيك! فنضوتُ عني وقفزتُ إليه وبيدي الليفة والصابونة حتى إذا أشبعت جامح رغبتي في الاغتسال بماء السماء عدت فتنشفت، وجلست إلى مكتبي أشد ما أكون استعدادًا لاقتبال الرؤى ونظمها!

ويقول عن شعوره الوطني:

أمتي أنا مكثَّرًا ووطني أنا مكبَّرًا. إذا اقتطع ذئاب الاستعمار منه قطعة فكأنما أكلوا جارحة من جوارحي، وإذا هدروا عربيًّا ... فكأنما شربوا نغبة من دمي، وكأن كل بلد قوي من بلادي ساعدي مفتولًا، وكل شعب خامل فيها زندي مشلولًا، بل ما أعدُّ ذاتي إلا خلية في جسد أمتي، أنا واحد من سبعين مليونًا من العرب، كل واحد منهم أنا، فينبغي أن أحبهم سبعين مليون ضِعْف حُبِّي لنفسي ... مَنِ افتداهم فكأنما أحياني سبعين مليون مرة، ومن خانهم فكأنما

قتلني مثلها، ولذا تراني أصب جامات غضبي على الظالمين وصنائع الظالمين والصابرين على الظلم، بعنف من يدرأ الموت والعار، لا عن نفسه فحسب، بل عن سبعين مليون نفس كنفسه، محشودة فيه شاغلة عالم الأرض من لانهاية روحه، وقدر الشعور يكون الألم، ومن فقد الغيرة أنكر الغضب، وما استكثر اللعنة إلا من استقل الخيانة، وما ياسرَ السفاحين إلا من استهان بدماء قومه فحسبها ماء كدمه! …

ويقول عن كيفية نظمه الشعر:

في أي ساعة وأي مكان، في يقظات الليل، في الشارع، في الحافلة، على المائدة، أثناء الحديث، أدوِّن الخاطرة أو البيت. لم أنظم ليلًا من القصائد التي تعجبني غير «حصن الأم» و«تحية الأندلس» ولعلهما خير ما نظمت. أما سائرها فنهارًا في سفراتي، أو في الحدائق العامة، أو الضواحي الهادئة، مندمجًا في الطبيعة، مرسلًا نفسي على سجيتها.

ويقول عن رأيه في الشعر:

إنه أرفع الفنون، وقد يسمو حتى يداني مرتبة النبوة، وللشعر أربابه الموهوبون، فلا يُغني في نظمه أن تكون «سقراط» أو «ميشال أنجلو» أو «الفيروزابادي».

والشاعرية كاللانهاية، لا حُدودَ لها؛ فكلما تعددت جواء الشاعر كان أدل على انطلاق روحه واتساع مملكته. وكل ما يقع ولا يقع تحت الحس في هذا الوجود العظيم يستحق أن يكون موضوعًا للشعر، فالموضوعات قديمة كالزمان، ولا جديد إلا ما يخلقه خيال الشاعر، ويخلعه على موضوعه من فاتن الصور. ثم إن من الشعراء من يضرب المثل فيجمع عالمًا في بيت، ومن يبسِّط الفكرة فيشيِّد قصرًا ذهبيًّا من آجرَّةِ الطين، ومن ينفض مزادة نفسه فيشبع الملايين من جياع الروح.

ويقول عن سبب غلبة «الحماسة» على شعره:

ما كدت أنهض بقادمتيَّ حتى صكت مسمعي أناتُ أمتي ولفحتْ وجهي زفراتُها، فطويت جناحي عند سريرها مخضعًا خيالي لواقعها الأليم، مقدمًا

واجب تمريضها على التغريد في الخمائل والتنقير بين الحقول، ولو أني أدركتُ أمتي صحيحة قوية لحلَّقْتُ مع الأسراب في ألف سماء بعد سمائها. لقد سلب اللصوص نصيب أمتي من خبز الحرية والعدالة والحق، وغادروها في وطاء الذل مدنفة تدمِّيها القيود، والحرية والعدالة والحق أسمى المعقولات التي ينشدها الإنسان الراقي، بل أغلى الجواهر الروحية المشعة من صدر الرحمن. لا يحيا قلب بشرى نبيل إلا بقطر نداها، ولا يمكن أن يُتَصَوَّرَ خيرٌ ولا جمال ولا سعادة في هذا الوجود إلا بانعكاس نورها، فما شعري الحماسي إلا ألم صارخ من أغوار نفس أُزعجت عن ذلك المحل الأرفع ومثله العليا، فهي دائمة الحنين إليها والتوجع لفراقها، والسجع بذكراها واستنزال بركاتها وتثبيت ظلالها الفاتنة، وتوضيحها في لوحة الحياة، وما الشاعر الوطني الحمِيُّ في أمة مستعبدة إلا الشاعر الإنساني قبل أي شاعر سواه؛ لأن هذه المبادئ التي يُسَبِّحُ لها ويصلي في محرابها، ويجاهد في سبيلها، ليست معبودة وطنه فحسب، بل هي معبودة الأوطان جميعًا، ولعمري أية قيمة وأي سرور وأي فأل يجد المتبجِّحون بإنسانيتهم المتخدِّرة، في عالم لا حرية ولا حق ولا عدالة فيه؟ ولئن زعموا أن الإنسانية أولى بالتقديم فليورِّثوها أموالهم من دون أبنائهم إن كانوا صادقين، وهَبْ أصاب من قال: «لقد كان في وسعي أن أصير شاعرًا عالميًّا، لولا حصري شاعريتي في أفق الوطنية المحدود»، فإني لست بآسف أني أحببت أمتي وبلادي أكثر من نفسي، وإني حاولت أن أفتدي مجدها بمجدي وخلودها بخلودي. وبعد، فلا يُفْقَهَنَّ من قولي هذا أن الشاعر الحماسي أشعر من سواه، فمن الشعر الوطني ما هو أتفه الشعر ومنه أنفَسُه، ومقياس الشاعرية إنما هو الإجادة أيًّا كان الموضوع. إن القرازيم لَمُسِفُّون ولو اتخذوا سدرة المنتهى أو سُدَّة العرش عنوانًا لما ينظمون. وما حق الخلود إلا للمجلِّين وإن كانوا كفارًا.

هذا بعض ما يقوله شاعرنا العبقري من ملاحظات سديدة في تصدير ديوانه الرائع الذي تتألق فيه الشاعرية أسمى التألق، فإذا ما انتقلنا إلى قصائد الديوان ومقطوعاته رأينا شعر التسامي — ولا غيره — يطل من جميع بيوتها، ورأينا الأصالة المشرقة تصافحنا وتهدينا.

استمع إلى هذه القصيدة الظريفة ينعي فيها حجب الوجه وكشف الساق، وهي من بواكير شعره:

لِـحَـدِّ الـرُكْـبَـتَـيْـنِ تـشـمِّـريـنـا بِـرَبِّـكِ أيَّ نَـهْـرٍ تَـعْـبُـرِيـنـا؟
مَضَى الخلخالُ حينَ الساقُ أمْسَتْ تُـطَـوِّقُـهـا عـيـونُ الـنَّـاظـريـنـا
هَوَى عرشُ الجمالِ عن المُحَيَّا إلى الأَقْدامِ فاستْهْوَى العُيُونا
كـأنَّ الـثـوبَ ظِـلٌّ فـي صَـبـاحٍ يَزيدُ تَقُلُّصًا حينًا فحِينا
تـظـنـيـنَ الـرجـالَ بَـلا شُـعـورٍ لأنـكِ ربـمـا لا تَـشْـعُـرِيـنـا
ولـيـس بـعـاصـمٍ عـقـلٌ ودِيـنٌ فكم سَلَبَ الهوى عَقْلًا ودِينا!
ومـاذا يَـنـفـعُ الـتـهـذيـبُ نـفـسًـا تـحـاربُ فيكِ إبليسَ اللَّعينا؟
فيا ليتَ الحِجابَ هَوَى فأمْسى يـردُّ الـسَّـاقَ عَـنَّـا، لا الـجـبـيـنـا
فـإنَّ الـسَّـاقَ أَجْـدَرُ أن تُـغـطَّـى وإنَّ الـوجـهَ أَوْلَـى أن يـبـيـنـا

أرأيت الشاعرية الطليقة والرشاقة في التناول والأداء؟ إنها بعينها المتجلية في جميع شعره، حتى شعره الثائر.

استمع على سبيل المثال إلى مقطوعته في «فساد الأخلاق»:

زمنٌ يَسُودُ به الحَسُودُ فمن سَعَى فـنـجـاحُـه سـبـبٌ لـهـدمِ نـجـاحِـهِ
ساءتْ به الحسناتُ حتى كاد أن يَخْشَى الضليلُ بِهِ طُلُوعَ صَباحِهِ
فـإذا أردتَ بـأن تـحـقّـر صـالـحًـا يكفيكَ بينَ الناسِ ذكر صَلَاحِهِ
وإذا مـدحـتَ فـتًـى فـعَـظِّـم شَـرَّهُ فلقد غدا فَخْرُ الفَتَى بطلاحِهِ!

واستمع إلى قصيدته «عند الرحيل»:

نصحتك يا نفسُ لا تطمعي وقلتُ: حَذَارِ! فلم تَسْمَعي!
فإن كنت تستسهلينِ الوداعَ كـمـا تـدَّعـيـنَ، إذَنْ وَدِّعـي!
رَزَمْتُ الثيابَ فَلِمْ تحجمين؟ ولِمْ ذا ارتعاشُكِ فِي أَضْلَعِي!
ألا تَسْمعينَ صياحَ الرِّفاقِ وتجديفَ حوذيِّنا؟ أَسْرِعِي!

* * *

رأيتُ السَّعـادةَ أُخْتَ القَنُوعِ وخِلْتِ السَّعـادةَ في المَطْمَعِ
ولَـمَّا بَدَا لكِ عَزْمِـي قَنِـعْتِ وهيهات يُجديك أن تقنعـي!

* * *

خرجتُ أجرُّكِ جَرَّ الكَسيحِ تَئنينَ في صدريَ المُوجَعِ
ولَمَّا غدونا بنصفِ الطريقِ رَجَعْتِ، وليتك لم تَرْجعـي!
لَئِنْ كنتِ يا نفسُ مع مَنْ أُحِبُّ فَلِمْ ذا اشتياقي ولِمْ أَدْمُعِي؟
أظـنك تـائهـة فـي الـبحـارِ فلا أنتِ معهم ولسْتِ مَعِي!

* * *

كفاك اضطرابًا كصدر المحيط قِفـي حيث أنتِ ولا تَجْزَعي
سأقْضِي بنفسي حقوقَ العُلَى وأَرجعُ فـانتظري مَرْجِعِـي!

واستمع إلى مقطوعته «وكتمت حبك»:

ضاقتْ حنايا الأرضِ عن سِرَّ الهَوى فَـتَـنَـفَّـسَـتْ عـن أَنْـجُـم ولآلِ
وكتمتُ حُبك فاكتستْ من وَشْيِهِ حُـلَـلُ الـبيـانِ نـفـائسًـا وغـوالـي
لولا الصَّبابة يا «لُمَيةُ» لم أَضَعْ عَرش القَيَاصِرِ تحتَ عَرْشِ خَيَالي
أطلَعْتِ في فَلَكِ الجَمالِ كواكبًا إِشْـعَـاعـهُـنَّ خـواطـرٌ وأمـالـي!

واستمع إلى هذه الأبيات من قصيدته «لمياء هاتي العود»:

«لمياء» هاتي العُودَ نبك صِبَانَا راحَ الـخـريـفُ بـوردنـا ونَـدَانـا
لا، لا، أنا وحْدِي الذي ثَكلَ الصبَا حـاشـا لُـحِسْنِك أن أقولَ كِلانا
لَكَم التمستُ البُرْءَ من داء الهَوَى بـالـبُـعْـدِ عـنـكِ فَـزِدْتُـهُ إزمـانـا
أتـكـلفُ الـسـلـوانَ مـنـكِ تـكـلفًـا يُدْني العذابَ ويُبْعِدُ السُّلوانا

وأخيرًا استمع إلى هذه «الموجات القصيرة»:

تَــكــبَّــرْتَ لــمــا زادكَ الــلــهُ ثــروةً
وأَيْـسَـرُ خَـطْـبًـا مـن تـكـبُّـرك الـعُـدْمُ
قـد اتـخـذَ الـعـلـمُ الـتـواضُـعَ صـاحـبًـا
فـصـاحـبْ رفـيقَ الـعِـلْـمِ إِنْ فـاتـكَ الـعِـلْـم

* * *

يـا مَـنْ يَـعُـدُّ عـلـيَّ كـلَّ صـغـيـرةٍ
إنْ لـم تـكـنْ مـتـسـاهـلًا كُـنْ عـادلا
إنْ كُـنْـتَ مِـثْـلِـي نـاقـصًـا فـاعـذِرْ، وإنْ
تَـك كـامـلًا فـاعـذِرْ لِـتَـبْـقَـى كـامـلا

* * *

لَعَمْرَك لو لم يَنْضُب الماء ما خَلَتْ
رُبـوعٌ ولـم يَـعْـمُـرْ سـحـيـقُ الـمـواردِ
ولـو كـان عـنـد الـنـاسِ لـلـنـاسِ رحـمـةٌ
لـمـا الـتـمـسـوهـا رُكَّـعًـا فـي الـمَـعـابِـدِ!

* * *

إنَ الصديقَ لَيْشبِه السيفَ المجرَّدَ في يَدَيَّا
ألقَى به نُوبَ الزمانَ إذ عَدَتْ يومًا عَلَيَّا
والخيرُ إن أُغْنَى عن استعمالِه ما دمتُ حيَّا

* * *

حـسـبـتُـك خـيـرَ إخـوانـي، لـهـذا
قـصـرتُ عـلـيـك فـي الـحُـبِّ احـتـجـاجـي

فـإنَّ الـزيـفَ فـي (الألـمـاس) يُـخْـشَـى
ولـكـنْ لـيـس يُـخـشَـى فـي الـزُّجـاج!

وبعد، فقَلِّب الديوان كيف شئت لترى عزة النفس وعزة الفن في أرفع الصور، وأنفس الحُلَى والأناقة الفطرية، وأجمل هذه الحُلَى: النزاهةُ، والإخلاص، والتواضع المقترن بالحرص على الكرامة، والشعور بالواجب، والإحساس بالمسئولية دون تبجُّح؛ كزعيم أدبي جليل الخطر، ويقيننا أن هذا الديوان سيخلد في عالم العروبة نبراسًا وهَّاجًا لأجيال وأجيال، وشعارًا نابضًا بحب الحق والحرية!

الشعر المسرحي

حيثما قال الشاعر:

لا عَرَفْتُ الحياةَ إنْ كان فَنِّي	ما بَدَا لي ولستُ أَخْلُقُ فَنِّي
أنا بَعْضٌ من الوجودِ، ولكنْ	كُلُّ ما في الوجودِ مِنْ بَعْضِ كَوْني

إنما كان يعبر عن إحساس يستبد بكل فنان أصيل، هو الحنين إلى الخلق، والإيمان بالإبداع، والتجاوب الشامل مع الوجود، ليس هذا الإحساس لونًا من الغرور — كما قد يراه الناظر السطحي — وإنما هو تصوف عميق واندماج متناهٍ في الطبيعة، وإن تلون بالإحساس الذاتي والشعور بالطاقة الفنية.

كلما قرأنا أثرًا من الآثار التي توصف بأنها «فنية» مَر بخاطرنا المعنى الشعري السالف الذكر وساءلنا أنفسنا: هل من إبداع بهذا الأثر؟ ما قيمته كفن مجرد؟ هل له أية رسالة قد يعتز ويرقى بها الفن وتسعد الإنسانية؟ وإذا لم يكن هذا ولا ذاك تساءلنا: أثمة خسارة إذن لو أننا فقدنا هذا الأثر فقدًا تامًّا، أو على الأصح لو أنه لم يوجد؛ إذ إن بعض ما يوجد لا يُحَسُّ به؟

كم من كتاب أو رسالة أو قصيدة تعد في حكم الميتة يوم ولادتها لتجرُّدِها من عناصر البقاء، وأولها الجدة الفنية، وغيرها يعيش على هامش الآثار الفنية؛ لأنه بمنزلة شروح لها أو تكرار أو تبسيط! وإنما يخلد ما اتسم بالإبداع الفني، وما احتفظ بقيم أزلية من الحق والجمال.

وهكذا كان موقفنا أخيرًا حينما تلقينا المسرحية الشعرية «هيروديًّا» من تأليف الشاعر يوسف الخال محرر جريدة «الهدى» اليومية في نيويورك.

تقع هذه المسرحية في سبعة وثلاثمائة من الأبيات متعددة القوافي ولكنها من بحر واحد هو الخفيف، وتنتظمها ثلاثة فصول، رُوعيتْ فيها وَحدة الزمان والمكان، أما مصدرها فقصة «الإنجيل» الشريف عن قتل «هيرودوس» ملك الجليل «ليوحنا المعمدان»؛ تلبية لطلب «سالومة» ابنة «هيروديًّا» زوجته الثانية، وكان تزوج من ابنة «الحارث» ملك دمشق ثم أعادها إليه بعد أن وقع في غرام «هيروديا» امرأة أخيه «فيليبس»، فتحدى بذلك شرف السوريين وشريعة موسى، التي تحرم الزواج من ابنة الأخ، وجاء «يوحنا المعمدان» يعلن سخطه على هذه الزِّيجة، فيلقي به «هيرودوس» في السجن، وما يَحول دون قتله إيَّاه إلا خوفُ «هيرودوس» من ثورة الشعب، ولكن «هيروديا» لا تقنع بذلك، ولا يرضيها إلا قطع رأس «المعمدان»، فتغري ابنتها «سالومة» بفتنة «هيرودوس» واستهوائه في ساعة ضعفه وعبثه؛ ليعطيها رأس «المعمدان» على طبق يصحبها في رقصها الخليع، وتنجح حيلتها مع ابنتها، كما تنجح حيلة ابنتها مع «هيرودوس»، فيلبي بعد تردد طلبها في غمرة شرابه، ويعقب ذلك ثورة الشعب وقيام السوريين ضده واضطرار الرومان إلى خلعه ونفيه؛ تهدئة للجماهير.

قرأنا هذه التمثيلية مرتين قبل التفكير في الكتابة عنها، وعُنينا عنايةً خاصة بالتأمل في مستواها الشعري إلى جانب مستواها الدرامي، وفي ذهننا الطريقة التي تناول بها الموضوعَ ذاتَه أدباء غربيون من قبل، كذلك عنينا بمقدمة المؤلف؛ لنتبين منها فلسفته الأدبية وموحيات عمله، فخرجنا من كل هذا بالنتائج الآتية:

(١) رواية «هيروديا» غنم للأدب المسرحي وللشعر العربي المعاصر؛ لأنها تجربة إضافية تزيد من ثروته، كما أنها عرض لإيديالية أصبحت مقدسة لدى العرب جميعًا.

(٢) بعد اطلاعنا على هذه المسرحية لا نرتضي فقدها، وبعبارة أخرى إنها ذات قيمة أدبية أصيلة؛ ففي زوالها خسارة؛ لأنها تسدُّ فراغًا.

(٣) إذا كان يوسف الخال من الشعراء المُقلِّين فليس هذا بضائره، وإذا كان من الشعراء البطيئين فليس هذا بمنتقصه، فالعبرة بقيمة العمل لا بعدد المصنفات، ولا بالوقت الذي يَسْتغرقُه وَضْعَها، وقد يشتهر الشاعر بل يخلد بقصيدة واحدة، في حين يلازم الخمول شاعر آخر مكثار، ومن النادر أن يجمع الشاعر بين الكثرة والإجادة، وها هو ذا يوسف الخال قد نظم هذه المسرحية على فترات ما بين سنة ١٩٤٧ في بيروت، وسنة ١٩٥١ في طرابلس الغرب، وسنة ١٩٥٣ في نيويورك.

(٤) موضوع الرواية درامي عنيف، وهو في رأينا يستأهل تَبَسُّطًا، أي معالجة أفسح، وعلى الأخص؛ لأن للمؤلف مثالية قومية، بل إنسانية تمخضت عنها هذه المسرحية. صحيح أن من حقه أن يقول إنه مكتف بهذا القدر من المجال والتناول، ولكن من حيث إنه يريد أن يعرف وقع تأليفه في نفوس النقاد الغيورين النزيهين فهذا رأينا، دون أن نعني بذلك أن الرواية غير كافية للتمثيل، ولكنها في رأينا — بصورتها الحاضرة — أصلح للأوبرا التي لا تتطلب التعمق في تحليل الشخصيات والمواقف، أو للإذاعة المحدودة الوقت عادة، أو للقراءة فحسب.

(٥) تتم ديباجة الشعر ومناحيه على تشيع يوسف الخال لمدرسة سعيد عقل الوصفية الحسية، وهذا ملحوظ منذ بداية الرواية بخطاب «هيروديا» الموجه إلى وصيفتها «تامار»:

ضَمِّخِيني «تامارُ»! في جسدي عرس وفي أضلعي هزيج مراح
وهنا في جدائلي سمر الليل، وهام الصباح خلف وشاحي
وافرشي فوق مضجعي خصل الورد وصبي الخمور في أقداحي!
ليلة هذه، تفوق لياليَّ ارتماءً على الشَّهِيِّ المتاح
من عناقي ومن ترنح أعطافي ومن دفء نشوتي والتياحي
فانهياري سَكْرَى على قدم الشهوة في ذلة وخفض جناح!
ضمخيني «تامار» للطِّيبِ وَقْعٌ، دونه وقع نزوتي وجماحي
واتركيني للحب نهب فراشات تهاوت على خدود الأقاحي
ونوالًا تعرت النفس فيه واستحمت كنشوة في الراح
فإذا مخدعي «لهيرود» ظل في مساء وكوكب في صباح
وزوال الوجود في رعشةٍ حَرَّى على وهْج قبلة ملحاح!

إلى آخر هذا النشيد الجميل المتناوب ما بين «هيروديا» و«تامار»، دع عنك وصف «هيرودوس» لما في خزائنه من نفائس، ودع عنك النشيد الغنائي الفاتن، في مطلع الفصل الثالث الذي تستهله «هيروديا» بقولها:

أومأ الفجر يا حبيب وهذا مضجعي طال شوقه لاحتضانك
فترفق به، وراودْ على الدفء وخذني بغامرٍ من حنانك!

(٦) على الرغم من الإيجاز وُفِّق الشاعر بخطوطه القليلة إلى التصوير المؤثر كما نرى في المشهد الثالث للفصل الأخير؛ إذ لم يتجاوز عدد أبياته سبعة وعشرين بيتًا، حينما هو خير مشاهد الرواية على الراجح.

(٧) تحتاج مقدمة الرواية إلى تحقيق أدقَّ، فشعراء العربية الذين عنوا بالتمثيليات سواء في أوطان العروبة أو في المهاجر أصبحوا جمهرة، وليسوا ثلاثة كما ذكر المؤلف الفاضل، ونحن الآن في عصر «الراديو» و«التلفجن» ومن ثَمَّةَ كانت الكلمة المخطوطة المُذاعة معادلة على الأقل للكلمة المطبوعة، وفي مجال التحقيق العلمي لا بد من تقدير المخطوطات أيضًا، فما بالك بآثار موطدة منذ نصف قرن بل أكثر كآثار الشيخ نجيب الحداد رائد الأدب الدرامي، وهو لبناني الأصل وخليق باعتزاز اللبنانيين به، وفي المهجر الأمريكي وحده مسرحيات شعرية متعددة لا يُستهان بها وفي مصر أرخ الدكتور مختار الوكيل في كتابه «رواد الشعر الحديث في مصر» لِمَا فات أديبَنا الألمعيَّ يوسف الخال، وكذلك فعل الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي في جملة من كتبه، وفعل النقادة الشهير الأستاذ السحرتي.

(٨) إن الموطدين للتمثيليات الشعرية استعانوا بالسماحة في الأسلوب وبالتحرر النظمي فتوسلوا بالشعر الكلاسيكي وبالشعر المرسل وبالشعر المختلط وبالشعر الحر حسب المواقف والمناسبات، في حين قيد شاعرنا يوسف الخال نفسه تقييدًا شديدًا بدل إرسالها على سجيتها، وكذلك كان يفعل معظم القدامى فأساءوا إلى شعرهم وإلى أنفسهم بمجافاتهم التحرر، ومع ذلك يقول الأستاذ يوسف «الخال»: «... قد تكون «هيروديا» آخر ما سأنتجه من أدب في هذا الأسلوب الشعري العتيق؛ فإنه من العبث الاستمرار في استعمال أساليب شعرية لم تعد تصلح للتعبير الكامل الطليق عن خوالج النفس، ولا أعني القوافي والأوزان فحسب؛ بل اللغة نفسها أيضًا.

فأزمة الحياة العربية إجمالًا هي أزمة لغة كما هي أزمة عقل، ومهما طال الوقوف في وجه الحياة فلا بد عاجلًا أو آجلًا من الانصياع إلى نواميسها، وإلى أن يتم ذلك يظل الأدب العربي الحديث أدبًا مصطنعًا محدودًا لا يتجاوب مع نفس القارئ ولا يعكس حياته.» وعندنا أنه لا غبار على أي أسلوب يطابق مقتضى الحال، وإنما العيب هو الافتعال والتصنع والنحت المُغالى فيه.

ولا يسعنا في ختام هذه الكلمة إلا أن نقول لشاعرنا الفاضل: «أحسنت»، وإلا أن نطالبه بأخرى من آثاره الشهية، صحيح أن أعلامًا من أدبائنا كالدكتور «فيليب حِتِّي»

والدكتور فؤاد العقل اشتهروا بآثار معدودة، ولكن كلًّا منها بمقام ألفٍ، وليس بوسعنا أن نكون قنوعين بالقليل من آثار القديرين مهما يجيدوا، فإلى اللقاء يا أستاذ «يوسف» مع كتابك التالي، وإليك تحياتنا وتحيات لغتنا الشريفة.

الارتجال في الشعر

من روائع الشعر العربي آيات ألهمها الارتجال، وقد اشتهرت في كتب الأدب عن طائفة كبيرة من الشعراء؛ «كأبي نواس» و«أبي العتاهية» و«ابن حمديس» وغيرهم، في مواقف دعت إليها الإجازة الشعرية، وإنها في الحق لنوادر من الفطنة والألمعية، أما الارتجال النظمي في حد ذاته فلا قيمة له؛ لأن غاية ما يدل عليه هو الطبع الموسيقي لدى صاحبه، فإذا لم يساند هذا الطبعَ خيالٌ وعاطفةٌ وفكرةٌ، فغاية ما يأتينا بها كلام مرصوف قد لا يخلو أحيانًا من مُلحة أو نُكتة، ولكن شتان ما بين هذا وبين الشعر الصحيح!

ولعل أقوى الشعراء المعاصرين في الطاقة الارتجالية كان شاعر العراق الشهير عبد المحسن الكاظمي، وكان يجمع إلى جانب الارتجال المعانيَ الشعرية البليغة، وكان طويل النفس يملي شعره بسرعة مدهشة، كذلك كان «حافظ إبراهيم» — وقد خبرْنا شخصيًّا الشاعرين — ولكن حافظًا كان يتهيب نشر شعره المرتجل على الرغم من طلاوته وأصالته.

وهذه أمثلة من الشعر الارتجالي نعرفها ونعرف أصحابها شخصيًّا منذ عهد الصبا، وبعضها ضمنوه قصائدَ لهم، قال السيد «مصطفى لطفي المنفلوطي»:

إذا ما سفيهٌ نالني منه نائلٌ ... من الذمِّ لم يُحْرِجْ بموقفه صدري

أعودُ إلى نفسي، فإن كان صادِقًا ... عَتَبْتُ على نفسي وأصلحتُ من أمري

وإلا فما ذنبي إلى الناسِ إنْ طَغى ... هواها، فما تَرْضَى بخيرٍ ولا شر؟

وقال السيد «محمد توفيق البكري»:

حُكْمُ الألى يَحكمونَ الناسَ يُضحكني وسوء فِعلهِم في الناسِ يُبكيني
ما الذئبُ قد عاثَ بين الضأنِ أفتكُ من هذي الوُلاةِ بهاتيك المساكينِ!

وقال «خليل مطران»:

قالوا «لنابليون» ذاتَ عَشيةٍ إذْ كان يَرقُبُ في السَّماء الأنجُمَا:
«هل بعدَ فَتْحِ الأرضِ مِنْ أمنِيَّةٍ؟» فأجابَ: «أنظرُ كيف أفتتحُ السَّمَا!»

وقال «حفني ناصف»:

أَتُقْضَى معي إنْ حانَ حَيْني تَجاربي وما نِلْتها إلا بطولِ عنائي؟!
وأبذلُ جُهدي في اكتسابِ معارفٍ ويَفنَى الذي حَصَّلْتُهُ بفنَائي؟!
ويَحْزُنُني ألا أرى لِيَ حِيلَةً لإِعطائِها مَنْ يَسْتحقُّ عَطائي
إذا ورَّثَ الجُهَّالُ أبناءَهم غِنًى وجاهًا، فما أَشْقَى بنِي الحُكماء!

وقال الأمير «شكيب أرسلان»:

بالله لا تَنْدُبُوا قَتْلي، ولا تَهِنُوا بَعْدِي، ولا تُغْرِقُوا في النَّوْحِ والحَزَنِ
إنَّ الشهيدَ لَحَيٌّ عند خالقهِ وإنما المَيْتُ حقًّا خائنُ الوطنِ!

وقال «مصطفى صادق الرافعي» (ثم بنى على هذين البيتين قصيدة عامرة له):

بِلادي هواها في لساني وفي دمي يمجِّدُها قلبي ويَدْعُو لها فمي
ولا خيرَ فيمن لا يُحِبُّ بِلادَه ولا في حليفِ الحُبِّ إنْ لم يُتَيَّمِ!

هذه نماذج لما وعته كُنَّاشَتُنَا من شعرٍ ارتجالي معاصر، وقد سألنا بعضُ الزملاء أن نذكر نموذجًا من شعرنا الارتجالي فنقول: إن نماذجه مبثوثة ومُشار إليها في دواويننا،

ومن هذا القبيل الرباعية التالية بعنوان «اليد الدامية» عن ديوان «الإنسان الجديد»، وكانت مناسبتُها حوارًا وعتابًا مع نفر من المريدين إبَّانَ أزمةٍ نفسية:

قالوا وقد شاهدُوا نَزْفِي وعَضَّ يدي — مِن العقوقِ لإيماني وإحساني:
«ألم يَحِنْ أن تَعافَ الناسَ مُعْتَزِلًا؟» — فقلتُ: كلا، فخلِّي كلُّ إنسانِ
لَئنْ سِخِطْتُ فحسبي أن أُؤَدِّبَهم — ولن أُفرِّطَ في بِرِّي وإيماني
أوْلَى لَدَيَّ عُقوقُ النَّاسِ أجمعِهم — مِنْ أن أقابلَ عُدوانًا بعدوانِ!

وقد قرأنا أخيرًا في مجلة «الثقافة» المصرية[1] مقالًا شائقًا عن «الارتجال في الشعر» بقلم الأديب عمر عبده القاضي، زكَّى فيه شاعرية عبد العزيز السعدني من شعراء «الثقافة»، وهي التي نوه بها من قبل الشاعرُ «أحمد أحمد العجمي»، ثم خص ببقية مقاله شاعرًا آخر من شعراء الارتجال هو «محمود محمد بكر هلال».

ولا ريب أن شعره المرتجل أو شبه المرتجل لا يخلو من طرائفَ، وبعضُه نظم خَبَري، ومنه ما يسمو نفسُه به كقصيدته في «فلاح مصر» التي استهلها بقوله:

أيَّها الكادحُ الشقِيُّ المُعَنَّى — آنَ للشعب أن يرَى ما تمنَّى

ومنه ما يترقرق بالظرف كقصيدته في أزمة تموين البترول بمصر التي تذكرنا بشعر أسعد رستم.

ومهما يكن من شيء فالارتجال في الشعر ظاهرة فسيولوجية فحسب؛ أي إنها في ذاتها ليست معيارًا للتفوق الفني ما لم يصاحبْها بالفعل ذلك التفوقُ الفني دون جهد، وهذا أمر نادر.

[1] العدد المؤرخ السادس من أكتوبر سنة ١٩٥٢.

شعر النفاق والتسلية

أمَّا أن هناك شعرًا للتسلية فأمر مفروغ منه، بل إن كثيرًا من الشعر العربي يقصد به إلى التسلية فحسب. وعلى وجه التحقيق، هذا شأن الكثير من الشعر العربي الحديث بصفة خاصة، وقد تدلى جانب منه وتدنس بالانحطاط الجنسي، وما كان هذا شأنَ الشعر العربي إبان عظمة العرب بما يعنيه هذا الوصف من تعريف صحيح.

وأما أن هناك شعرًا للنفاق، فهذا أيضًا صحيح، وهذا وصف ينطبق على الكثير من الشعر العربي الذي يطأطئ للطاغوت ويشريه النفوذ، فيمتهن الكرامة الإنسانية، ويقف ضد حقوق الشعب، ويناوئ المثل العليا.

ومن الخطأ أن تظن أن الأثر الأدبي شيء وشخصية الأديب شيء آخر، وأن أدب الصنعة والنفاق يمكن أن يعيش مستقلًّا وينسى أمر صاحبه، فتاريخ الإنسانية ضد هذه النظرية تمامًا، وهذا هو «البحتري» الشاعر المشهور تُنوسيَ الكثيرُ من شعره الذي أملاه النفاق — على الرغم من أن صناعته الفنية واحدة ممتازة في جميع شعره — ولم يعش من قريضه مردَّدًا محبوبًا إلا ما أحست الإنسانية بإخلاصه فيه، مثل سينيته المشهورة التي استهلها بقوله:

صُنْتُ نفسي عمَّا يُدنِّسُ نفسي وترفَّعْتُ عن جَدَا كُلِّ جَبْسِ
وتماسكتُ حينَ زعزعني الدهـ ـرُ التماسًا منه لِتَعْسِي ونكسِي

هذا أيام كان يؤمن بهذه الأنفة وعزة النفس الأبية.

أو مثل تهنئته «للمتوكل على الله» بعيد الفطر:

بالبِرِّ صُمْتَ وأنتَ أفضل صائم ... وبسُنَّةِ اللهِ الرَّضيَّةِ تُفْطِرُ
فانعَمْ بيومِ الفِطْرِ عَيْنًا، إنَّهُ ... يومٌ أَغَرُّ من الزَّمانِ مُشَهَّرُ
أَظْهَرْتَ عِزَّ المُلْكِ فيه بِجَحْفَلٍ ... لَجِبٍ يُحَاطُ الدينُ فيه ويُنْصَرُ
خِلنا الجبال تَسيرُ فيه وقد غَدَتْ ... عُدَدًا يسيرُ بها العديدُ الأكثرُ
فالخيلُ تَصْهَلُ والفوارسُ تَدَّعي ... والبيضُ تَلمعُ والأسنَّةُ تَزْهَرُ
والأرض خاشعةٌ تَميدُ بثقلها ... والجوُّ معتكرُ الجوانبِ أغبَرُ
والشَّمسُ طالعةٌ تَوَقَّدُ فِي الضُّحَى ... طَوْرًا ويُطفئُها العجاجُ الأكدرُ
حتى طَلَعْتَ بِضَوْءِ وَجْهِكَ فانجلَى ... ذاك الدُّجَى وانجابَ ذاك العِثْيَرُ
فافتنَّ فيكَ النَّاظرون، فإصْبَعٌ ... يُومَى إليكَ بها وعينٌ تَنْظُرُ
يَجِدُونَ رُؤْيتكَ التي فازوا بها ... مِنْ أَنْعُم الله التي لا تُكْفَرُ
ذكَروا بطلعتِكَ النَّبيَّ، فهلَّلوا ... لمَّا طلعتَ عن الصُّفوفِ وكبَّروا
حتى انتهيتَ إلى المُصَلَّى، لابسًا ... نُورَ الهُدى يبدو عليك ويَظهرُ
ومَشَيْتَ مِشْيَةَ خاشِع متواضِع ... لله لا يُزْهَى ولَا يَتَكَبرُ
فلوَ انَّ مُشتاقًا تكلَّفَ فوقَ ما ... في وُسْعِهِ لمشَى إليكَ المِنْبَرُ!
أَبْدَيْتَ مِنْ فَصْلِ الخطابِ بِحِكْمَةٍ ... تُنْبِي عن الحقِّ المُبينِ وتُخْبِرُ
وَوَقَفْتَ في بُرُدِ النَّبيِّ مُذكِّرًا ... بالله تُنذر تارةً وتُبَشِّرُ

وأما شعره الذي أملته ذبذبته السياسية فقد صدفت الإنسانية عنه، فالنُّبل في ذاته شعر رفيع، وما يطعن هذه الصفة الجميلة لا يحترم على مر الأجيال، ويفقد كثيرًا من الروح الفنية، ولو ادعت الصنعة أنها هي الروح! هذه ظاهرة سيكولوجية ليس بوسع أي ناقد تجاهلها؛ لأن شواهد التاريخ تمنعه من تجاهلها، وقد يكتب كاتب اسمه «فرح أنطون»، أو ينظم شاعر اسمه «نسيب عريضة»، أو يؤرخ محقق اسمه «عبد الرحمن الرافعي»، أو ينتقد أديب اسمه «مصطفى عبد اللطيف السحرتي»، أو يلحن موسيقار اسمه «سيد درويش»، أو تغني مغردة اسمها «أسمهان» أو يرسم مصور اسمه «وانلي»؛ فتحترم الإنسانية الواعية جهودهم؛ لأنها تجد خلف آثارهم شخصيات قوية صادقة الإخلاص، رفيعة المبادئ، متشعبة برسالة سامية، تطل على هذه الإنسانية وتحبها، في

حين يُصْدَفُ — على مر الزمن — عن آثار أنجبتها الأنانية والغرور وشر الخصال عامة، واتسمت في جملتها بالنفاق حتى استحال نورُها إلى ظلمة.

وما استساغت الإنسانية أثرًا مجهول الأصل، إلا وتوهمت لصاحبه خصالًا جميلة، حتى في الأديان الوضعية الجديدة نرى حوارييها يَجهدون لإظهار أربابها في صورة نورانية من النبل كيما يُقْبَل عليها بانشراح، على اعتبار أن التراجم والآثار شيء واحد.

أما أدب التسلية من قَصص ونوادرَ وروايات وأوصاف نثرًا ونظمًا فلا أول له ولا آخر، والجماهير بطبيعة الحال مشغوفة بأدب التسلية، ومن قبيله أدب الرنين الموسيقي الذي لا تعمُّقَ فيه من تأملٍ وفلسفة، ومن طرازه شعر التهويل Poetry of fantasy الذي نلمحه في وقتنا الحاضر بنماذجَ من الشعر العراقي والأردني والفلسطيني خاصة، وقد انتقل تقليدُه إلى لبنان، وهو شعر طريف رشيق، ولكنه لا يسوغ غرور أصحابه الذين يتوهمون أن الشعر محصور في هذا اللون من الشعر فحسب، حتى إنهم لَيَسْخَرُون من كل ما عداه من الألوان، في حين أنهم وضعوا أنفسهم في سجن انفرادي لا يستطيعون الفَكاكَ منه، واتسمت محاولات بعضهم فيما عداه من ألوان الشعر بالفشل التام، فهم أعجزُ من إبداع شيء في النيوكلاسيكية أو في الرومانسية المتزنة، ويكاد كل إبداعهم يُحصر في السريالية المتطرفة، وقد حَسِبَ بعضُهم ترحيبَ صُحُفِ المهجر دليلًا على الإقرار بأنه لا شعر غير شعرهم، في حين أنهم لا يمثلون إلا فرعًا من دوحة باسقة، أو جِرْمًا من عالم فسيح.

إن أمريكا مهد السريالية في الشعر بل في الفنون الحديثة أيضًا كما أنها مهد الشعر الحر، ومع ذلك لا ترتفع منها أصوات الغرور ضد الألوان الأخرى في الشعر الرفيع، والفكرة السائدة أن هناك شعرًا سهلًا ينظم على السجية، ولا عمق فيه كشعر «البحتري» أو ابن نباته في العربية، وهذا حبيب بطبيعة الحال إلى الدهماء والسطحيِّ الثقافة، وأن هناك شعرًا بعيد الغور كشعر «أبي تمام» أو «ابن الرومي» يستمرئه الخاصة؛ لما يوحيه من فكر وتأملات إلى جانب مثاليته الرفيعة، والناقد المستقل يشعر بأن ثروة الأدب تشمل جميع «الضروب».

أما بين أبناء العربية فلا يزال النقدُ عاثرًا أعرجَ؛ ذلك لأن الأغلبية الساحقة من النقاد ليس لديهم من أدوات النقد الأدبي السليم كثير ولا قليل، فإن آفاقهم ضيقة ومعارفهم سطحية، بل لقد انتقلت العَدْوَى من احتراف الصحافة إلى احتراف النقد الأدبي، بعد أن كانت الأولى تجتذب إليها كلَّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ قبل أن أصبحت من الدراسات

الجامعية المحترمة، وقبل أن نُظِّمَتْ لها نقاباتُها وحُرِّمَ الانخراط فيها على غير المثقفين المتخصصين، وليس كذلك حال النقد الأدبي المسكين الذي ما يزال تحت رحمة الانتهازيين السطحيين وأنصاف المتعلمين الذين يبيحون لأنفسهم إصدار الأحكام الجريئة ولا أحكام النفي والإعدام والحجر والحرمان في بلاد السوفييت!

إن الشعر شعور، ومردُّ الشعور إلى العقلَيْن: الواعي، واللاواعي، وهذان كثيرًا ما يتلاقيان، وعندما يتلاقيان كثيرًا ما يغرِّد الشعر بأنفس روائعه: كقصيدة «المتنبي» في إصابته بحمى الملاريا، وكَمرثية «المعري»: «غير مجد في ملتي واعتقادي»، والشعر الذي يمليه العقل الواعي وحده ليس شعرًا إذا دار حول نظرياتٍ وقواعدَ وقوانينَ وطلَّق العاطفة، وهذا ما نجده في نظم الفقهاء، والشعر الذي يمليه العقل الباطن وحده — وقلما يكون ذلك — هو شعر خالص يعتمد على الخيال والتهويل، مثل قصيدة «ظِلِّي»، ديوان «الشفق الباكي»:

أيـها الـزنـجـي قـل لـي كيف قد أصبحت ظلي؟!

أما الشعر الذي يزاوج بين العقل الواعي واللاواعي «الباطن» فهو في رأينا أسمى الشعر متى جمع إلى الخيال والتأمل والعاطفة فكرة أو مثالية سامية، وشواهد هذا الشعر قليلة في أية لغة؛ لأنه من النادر وجود الذهن العلمي الأدبي العاطفي في وقت واحد.

صحيح أن الشعر الجميل في أية لغةٍ جميل في غيرها متى لم يكن معتمدًا على الرنين الموسيقي فحسبُ استهواءً للأسماع، وسترًا لضعف الطاقة الشعرية ذاتها، والحديث عن القلب كمنبع للشعور والعاطفة إنما هو حديث مجازي؛ إذ مَرَدُّ العاطفة — التي هي عنصر هام في الشعر — إلى العقلين الواعي واللاواعي معًا: عقلَي النضوج والطفولة، والفكر والأحلام، والحقيقة والخيال، وليست العاطفة إلا تجاوبًا بينهما وتجاوبًا مع المؤثرات الخارجية في آن واحد، وليس صحيحًا ما يقال إن أشكال العاطفة والفنون المنبثقة عنها ستبقى كما كانت منذ الأزل، فالزمن والمحيط يؤثِّران على تلك الأشكال وعلى الفنون الناشئة عنها باستمرار وفي تطور متواصل، على الرغم من أحكام الغريزة، كما أن التناول الفنيَّ لأي موضوع ليس محدودًا بل جِدُّ منوَّعٍ لفظًا وصورة.

وكما خسرت الثقافة العامة طويلًا بتحكم السطحيين والجاهلين، كذلك خسر وما يزال الأدب عامة والشعر خاصة — إن لم نقل الفنون أيضًا — في العالم العربي بتحكم السطحيين والجاهلين الذين تملي عليهم هوائيَّتُهم الأحكامَ الشاذةَ الفاسدة.

إن الفن الخالد — والشعر فرعٌ منه — هو التعبير الأصيل الخلاق عن الحق والجمال، وقَصْرُ هذا التعبير على نماذجَ معينةٍ بالذات شَطَطٌ في شَطَطٍ، هذا ما عرفه الغرب فأفلح، وقد عكس إيمانه هذا في متاحفه المنوَّعة المتباينة، وأما في الشرق فما يزال حب التحكم سائدًا، ولا بد من أن يخضع الشعر لأشكال معينة ولموضوعات معينة، وإلا فلن يُعَدَّ شعرًا! وهذا تعسُّفٌ عجيبٌ ليس بعده تعسف.

لقد كان النزاع قديمًا حول الشعر بين المحافظين والمجددين؛ أما الآن فهو غالبًا ما بين المجددين وحدهم، وقد دخل في رَوْعِ بعضهم وفي رَوْعِ من جاراهم من المهللين أنهم كلما شطوا وتهوروا كانوا أعظم تحليقًا بشاعريتهم، وأن كل من عداهم أدعياء ومتطفلون، وإن عجزوا هم عن الإتيان بمثالٍ واحدٍ غيرَ ما ألفوه، وأكثر ما يصفقون له تلك الفقرات العصبية الجامحة الغامضة، التي كلما ازدادت غموضًا وتدانت في طفولتها عُدَّتْ نهايةَ الإعجاز!

وقياسًا على ذلك لا بد لنا من أن نمحوَ من الوجود تسعة أعشار الشعر العربي بل والفرنجي أيضًا، وأن نسخر من النفائس الحديثة التي تظهر في مجلة Poetry ومثيلاتها في الأقطار الأمريكية والأوربية، دع عنك الشاهنامة والإلياذة، بل دع عنك شعر إقبال الذي فُتِنَ به العالم الإسلامي أخيرًا، وحتى الشعر الكلاسيكي المأثور كوصف «البحتري» لِبركةِ المتوكل، ووصف «ابن حمديس» للبركة ذات الأسود والأشجار الذهبية الفضية، ووصف «المتنبي» لوقائع سيف الدولة؛ يجب مَحْوُهُ من الأدب العربي؛ لأنه لا يمت إلى العاطفة بصلة! وفي الوقت ذاته إذا جئت لهم بمنوَّع من الشعر الكلاسيكي العصري المفعم بالعاطفة والخيال، والصور والموسيقى، والتأملات الوجدانية الفنية قال قائلهم مكابرة: هذه ليست من جِنان الشعر، بل هي لوافحُ الصحراء وسمومها!

وصفوة القول: إن شعر النفاق والتسلية قد جنى على الأدب العربي كما جنى على الذوق النقدي جناية السطحية والجهل والأهواء عليها، وهذه حالة مرضية يجب علاجها على ضوء الآداب العالمية؛ برًّا بمواهبنا وبتراثنا المجيد.

مدرسة «البارودي»

يُسعدنا أن تصل إلى يدنا مجلات ثقافية بلغتنا الشريفة من أقطار شتى بين عربية وإسلامية وسواها؛ لأنها تحمل الدليل العملي على حيوية لغة الضاد ومبلغ انتشارها أو نفوذها الأدبي، ومن بين هذه المجلات التي تلقيناها أخيرًا مجلة «هنا طرابلس الغرب»، وهي مجلة نصف شهرية مشرقة يصدرها «مكتب إذاعة طرابلس الغرب»، ويرأس تحريرها الأستاذ «علي مصطفى المصراتي»، ويُسْهم في تحريرها صفوةٌ من الأديبات والأدباء الليبيين وبعض أعضاء البَعثة المصرية التعليمية، وقد استرعى انتباهَنا بعددها الصادر في نوفمبر سنة ١٩٥٤ مقالٌ بعنوان «مدرسة حافظ إبراهيم» للأستاذ «محمد المهدي أبو حامد»، فأحببنا أن نقول إن ما نُعِتَتْ بمدرسة «حافظ إبراهيم» هي ما تعرف من قديم «بمدرسة البارودي»، فحافظ إبراهيم هو تلميذ «البارودي» شاعر «الثورة العرابية» الأول، أو على الأقل شاعر الوطنيين المثقفين في عصره حينما كان «عبد الله نديم» شاعرَ «الشعب»، فجاء «حافظ إبراهيم» يقتفي خطوه ويستوحي رُوحَه، وكلاهما كان جنديًّا ونصيرًا للحرية ومولعًا بالفصحى. جاء «حافظ إبراهيم» مكمِّلًا لرسالة البارودي أستاذه الرائد، وزاوجَ في التبسط بين «أسلوب البارودي» و«ديباجة النديم»، فجاء أغلب شعره أسلس، وأقرب إلى التذوق العام.

ولكن الأهمَّ من الديباجة والتناول، الروحُ الوطنية الصادقة النبيلة التي نبض بها شعره، وقد أوحت إلى جيله وإلى شعراء الوطنية بعده، فإذا ذُكر «الشابي» من بينهم فما في ذلك افتئات من وجهة عامة، ولكن «الشابي» كان أقرب في ذوقه الفني إلى الرومانسيين والواقعيين معًا من «مدرسة أبوللو»، ومَنْ أَحَبَّ أن يعرف نفسية الشابي الحقة وكفاحه الوطني فليرجع إلى كتاب «كفاح الشابي أو الشعب والوطنية في شعره» للأديب التونسي اللامع الأستاذ أبي القاسم محمد كِرُّو»، فهو ابن وطنه ومحبُّه وخيرُ من أرخ له عن فهم

ومقدرة، وستكون لنا وقفة بل وقفات مع الشابي الحبيب، ومع الصديق الوفي المترجم له، وبحسبنا هنا أن نقول: إن «مدرسة البارودي» الرائدة هي مدرسةُ وطنيةٍ وبعث أدبي، وقد تأثر بها جميع الشعراء الوطنيين المجلين في أواخر القرن الماضي خاصةً.

الأدب العربي في المهجر

أتحفنا الأستاذُ الأديب «عبد الحميد الأنشاصي» من «نابلس» بكتابه «عطفُ أمٍّ وقصصٌ أخرى»، الذي أصدرته «دار سعد مصر» بالقاهرة، وسألنا أن نسعى في ترجمته، وردًّا عليه نذكر أنه لا أحب لدينا من ترجمة أدبنا العربي قديمه وحديثه بشرط أن يكون أدبًا إنسانيًّا رفيعًا، فإن ثقافتنا هي عِرْضُنا؛ وهذه الثقافة تشمل ضروب الأدب والفن والعلم والدين؛ ولهذا نجد بين الأدباء المسيحيين مثلًا مَنْ يَغَارُ على الثقافة الإسلامية ومن يغار على سمعة نبي الإسلام ويعده قبل كل اعتبار بطلًا عربيًّا ومصلحًا فذًّا، ويحسب كل هذا ذا صلة وثيقة بكرامته القومية.

ومثل هذا الشعور نجده متجلِّيًا في «أمريكا» بين جميع الجاليات الأجنبية الأرومات، ومن بينها الجالية العربية، ولكن الجالية العربية — والقسم الإسلامي منها خاصة — بحاجة ماسة إلى المعونة المالية المنتظمة السخية من الحكومات العربية والإسلامية عامة؛ لتقوم بواجب التنويه بالثقافة العربية أو الإسلامية؛ ولتعمل على تدريسها في المعاهد والجامعات، كما تصنع جميع الجاليات الحية في هذه الربوع، بل في المهاجر كافة، وإزاء هذا العجز المادي الذي لا مسوغ له، ليس من الميسور القيام ببرنامج واسع جدير بالذكر لخدمة الثقافة العربية الإسلامية، فضلًا عن ترجمة الآثار العربية. وهذا هو العلَّامة الدكتور «محمود حُب الله»، مدير «المركز الإسلامي» بوشنطن، لم يقصر في رسم موازنة معقولة لتحقيق هذا الواجب المحُتَّم على كل عربي وكل مسلم مستنير أن يُسْهِمَ فيه بالمال أو بالسعي، كما هو محتم على الحكومات العربية والإسلامية، وحتى الآن لا يزال مشروعه الجليل معطلًا بسبب التهاون، وبسبب اهتمام تلك الحكومات والأفراد — إلى حَدِّ المبالغة — المعيبة بالسياسة وحدها، في حين أن منافسيهم يُعْنَوْنَ بالثقافة عنايتهم

بالسياسة ويبرزون شخصيتهم القومية كاملة، لإيمانهم بأنها وحدة لا تتجزأ، فما يُصْغِرُ ثقافتَهم يُصغر وضعهم السياسي ويسيء إلى قضاياهم.

وهذا ما أدركته حتى روسيا الشيوعية التي تُنْفِقُ الآلاف المؤلفة من الدولارات، بل قُل الملايين العديدة، للتنويه في الخارج بثقافتها وأعلامها في الأدب والفن والعلم، محاولةً إقناع العالم بأنها أمة عريقة في المعرفة والحضارة، فما أحرى الشعوب العربية والإسلامية بأن تنهج هذا النهج، بدل أن تتوهم أن ما يكيف الأمم ويصونها هي الماديات وحدها!

وبعد، فالأدب العربي في المهجر يغنيه بلا ريب النقلُ إليه والنقل عنه، ولكن بدون هذه اليقظة التي ندعو إليها لا يمكن أن يتحقق هذا الأمل. ونعتقد أن سفراء الدول العربية والإسلامية في العواصم المختلفة مسئولون عن تحقيق هذه الخطة، ومسئوليتُهم عنها في «وشنطن» عاصمة أقوى أمة في العالم وأبعد الأمم حضارة مسئوليةٌ لا يستهان بها، والتهاون إزاءها بعيد الخطر.

وإننا لنعد مشروع العلامة الأستاذ الدكتور «حب الله» بعيد الخطر؛ لأنه يدافع عن عرضنا بأكرم صورة في بلاد عظيمة النفوذ، تؤمن بالعدل وتطبقه، ويهمها الوقوف على حقائق الشعوب، والارتشاف من ينابيع مدنيَّاتها، والدفاع عن حسناتها؛ كأنها تنتسب إليها، وكل هذا له أثره في الجو السياسي الذي يُشغل به وحده أقطاب العروبة والإسلام أو يكادون مع الأسف، فيسيئون إلى قضاياهم من حيث لا يدرون!

والأدب المهجري في أمريكا متأثر إلى درجة محسوسة بالبيئة الأمريكية الحرة، ولا مفر من اهتمام «المركز الإسلامي» بتدريسه متى تحقق نظامه التعليمي، وقد حان له أن يتحقق بعد طول الانتظار. إنه مزيج من الواقعية والرومانسية والرمزية والسريالية وغيرها، ولكن للواقعية نصيب وافر منه، وإذا كانت الواقعية لا تزال منبوذة في العالم العربي تحت تأثير الأدب الفرنسي، أو على الأصح تحت تأثير الرومانسية الفرنسية المتمكنة من الشرق الأوسط وعلى الأخص من لبنان ومصر، فإن لها محلًّا محترمًا في الأدب الأمريكي — أدب الحياة الشاملة.

ولهذا كان تدريس الأدب العربي المهجري، بل وعرض الفن العربي المهجري، من خير المهام التي يمكن أن تُناط «بالمركز الإسلامي» في وشنطن إلى جانب الثقافة الإسلامية، وقد يدخل في مهمته نقلُ كثيرٍ من الآثار العربية بين قديمة ومعاصرة إلى الإنجليزية، ومن بينها مختارات من الأدب المهجري الذي يمثل شعوبًا شتى ما بين لبنانية وسورية

ومصرية وعراقية وأردنية وتونسية ومُراكشيَّة وحجازية وسودانية وغيرها وغيرها، وهكذا تصبح مهمةُ المركز الإسلامي الثقافية مهمة ثلاثية ومهمة لا تعلو عليها مهمة، وواجبٌ تسابقُ الدُّول والشعوب العربية والإسلامية وأعيان العرب والمسلمين في العالم الجديد بأسره إلى تحقيقها؛ حرصًا على المنفعة العامة وحرصًا على كرامتهم.

نشأ الأدب المهجري أولَ ما نشأ متأثرًا بحركتين: حركة التجديد الجبارة التي تزعَّمها «خليل مطران»، وحركة البعث الأدبي الأمريكي المتجاوبة مع خير ما في أوربا من أدب. أما الآن فهو أدب إنساني له شخصيته القوية الحرة، وأنصاره مثقفون موهوبون متعددون، وإن لم تكن لهم مجلة خاصة ولا بريقُ مَن سبقوهم في العقد الثاني من هذا القرن، ومع هذا فإن آثارهم التي تطالعنا الصحف المهجرية بنماذجَ منها آثار قيمة لامعة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، ولا تستحق هذه النماذج أن تدرس فحسب، بل تستحق أن تترجم صفوتها أيضًا؛ ليعرف الأمريكيون أية مثالية رفيعة تجول في نفوس العرب الأمريكيين؛ كما تجول في نفوس أهليهم في مواطنهم الأصلية، مما يؤدي إلى احترام النفسية العربية.

ولنذكر على سبيل المثال قصيدة «يا سلم»![1] التي ترجمت إلى الإنجليزية وانتفعت بها دوائر الأمم المتحدة في دعايتها النبيلة للسلام، وقد جاء فيها:

يا سَلْمُ! خيرٌ أن نراكَ مُزَعْزَعًا ... مِنْ أن نَرَى للحربِ سُوقًا بَيْنَنا
يا جاعلَ النيرانِ جَنَّاتٍ لنا ... ومُطَهِّرَ الإنسانِ حتى آمنا
لا تُلْقِنا يأسًا وصَبْرًا، رُبَّما ... عَلَّمْتَنَا وصَقَلْتَنَا فَخَلَقْتَنَا
إنْ كنتَ ترجونا الفِدَاء فَكُنْ لنا ... بعضَ الفِدَى، فَنَرى السَّعادةَ والغِنَى
يا نفحةَ الأربابِ حين تَجاوَبُوا ... والفَنَّ، فابتدعُوا سناكَ فَهَيْمَنَا
إنْ تَبْقَ حارسَنا رفعتَ نُفُوسَنا ... وإلى الحضيضِ تَزِلُّ إمَّا فُتَّنَا
ولئن تمادَى الأشقياءُ بِغَبْنِنا ... فكنِ الملاذَ ولا تُسَوِّغْ غَبْنَنَا
إنْ نحن ضِعْنَا ضِعْتَ أنتَ وإنْ تَصُنْ ... آمالنا صانتكَ كنزًا يُقْتَنَى
ويَجيءُ يومٌ لِلْحَيَاةِ مَقَدَّسٌ ... فتكونُ معبودَ الحياةِ المُعْلَنَا

[1] عن ديوان «إيزيس» ١٩٥٤م.

لـولاك كـانـتْ مـثـلَ أشـبـاح الـرَّدَى بِـجَـهـنَّـم، لا مـثـلَ أطـيـافِ الـمُـنَـى
فـأجِـبْ دعـاءً لِـلْـبَـرِيَّـةِ، شـامـلًا مَنْ قد أَساءَ لنا ومَنْ قد أَحْسَنَا!

وثمة قصائدُ أخرى وآثار أخرى ممتازة لشعراء وأدباء مختلفين حَرِيَّةٌ بأن تُتَرْجَمَ، كما هي حرية بأن تدرس في الغرب والشرق على السواء، كما صرح لنا غير مرة الأستاذ محمد كفافي أستاذ الأدب المقارَن بجامعة القاهرة، ولكن أنَّى لنا ذلك قبل توفير المال (وهو ميسور فعلًا) بإسهام الدول والشعوب الإسلامية المختلفة والجاليات العربية والإسلامية في أمريكا بهذه المهمة؟! ثم كيف يتيسر ويتوافر المال — وإن كان في متناول الأيدي، وإن كان المطلوب غيرَ جسيم — قبل تبديل العقليات الجامدة والنفسيات التي تحلم بالظهور من أهون طريق وبأرخصِ وسيلةٍ، بدل البذل السخي البريء لوجه الله والوطن؟!

خليل مطران

قل بين أعلام الأدب والشعر والفن من نَتَهَيَّبُ الحديثَ عنهم تَهَيُّبَنَا الحديثَ عن المعلم الأول «خليل مطران»، الذي ولدت الرومانسية والرمزية الحديثة في العربية على يديه، قبل مطلع القرن العشرين، فإن المنن الضخمة التي أسداها هذا العَلَمُ الشامخ إلى الشعر العربي الجديد نظمًا أم نثرًا وشرف بها «مصر» وطنه المختار؛ فوق تقديرنا. ومن السهل الآن على بعض تلاميذه أو على نفر من تلاميذ تلاميذه أن يجحدوا كل هذا، ولكن التاريخ الأدبيَّ لن ينسى ذلك، بل إنه ليردده بإعزاز.

تألق نجم «خليل مطران» في الربع الأخير من القرن الماضي، تَأَلُّقًا لم يُعْهَدْ في شاب مثله من قبلُ، تألقًا جادت به عبقريته الموروثة وتعليمه الممتاز وحوادث زمنه المثيرة من سياسية واجتماعية واقتصادية وسواها، ومثل هذا التألق المنقطع النظير لم تقترب منه ألمعيةُ «المعري» ولا «أبي تمام» ولا «المتنبي» ولا «ابن الرومي» في صباهم على جلالة خطرهم فيما بعدُ.

و«مطران» أحد العباقرة الذين تشهد حياتهم بفضل المرأة، فإن هذا الشاعر اللبناني — الفلسطيني الأصل الذي شهد النور أول ما شاهده في يوليو سنة ألف وثمانمائة واثنتين وسبعين للميلاد بمدينة «بعلبك»، وقد زادها خلودًا أدبيًّا بإحدى قصائده الرائعة — إن هذا الشاعر الفذ ليدين وراثيًّا بحاسته الشعرية إلى جدته لأمه، وبالرجاحة لأمه «مَلكة الصَّباغ»، كما يدين لوالده «عبده مطران» و«لآل مطران» بالسخط على الظلم وبمحاربة الجبابرة، وكثيرًا ما سمعت شاعرنا يذكر أمه بحنان وإجلالٍ بالغيْن ويُنوِّهُ بفضلها البارز في تكييف شخصيته، وبهذا يشهد أيضًا الأديب المصري الأستاذ «وديع فلسطين» الذي لازم شاعرنا ملازمة شبه دائمة في أواخر عمره.

لقد تشرَّبَ «مَطرانُ» حُبَّ الحرية منذُ صغره، وتمكن منه هذا الحب إلى نهاية أجله، في صبيحة الأول من يوليو سنة ألف وتسعمائة وتسع وأربعين بالقاهرة.

ولئن تَطَبَّعَ مَطران بعادة المراجعة والمعاودة «وبالتقية أحيانًا»؛ وفاقًا لتعاليم أمه الرزينة الصالحة، وتبعًا لسلوكها الحكيم فإن صاحب «مقتل يُزَرْ جُمْهِرَ» و«نيرون» لم يتبدَّل مثقال ذرة — رغم وطأة الأحداث والعلل، وآخرها النقرس الذي قضى به نحبه — ولم يتحول عن روح الثورة على الطغيان وإلهام الشعوب العربية أسمى معاني الديمقراطية.

طلع «مَطرانُ» على الشعر العربي، وخير ما ظهر فيه حينئذ «التجديد الكلاسيكي» الذي أنجبه «محمود سامي البارودي» و«شكيب أرسلان»، فأشرق بفنون من الشعر الأصيل نَبَّهَتْهُ إليها روحُه الإنسانية ومطالعاته العالية الجمة، وإن تكن تلك المطالعات باللغة الفرنسية، ولازمه طولَ عمره حبُّ الاطلاع الواسع هذا؛ فانتظم المعرفة بآداب كثيرة؛ من غربية وشرقية، بله الأدب العربي الصميم القديم والمعاصر، وهكذا مَجَّ للأدب الجديد من ألوان الرحيق الشهي، ما أثر في جميع رواد الشعر الحديث على اختلاف مشاربهم، سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا، وسواء أشَعَرَ وَعْيُهُمْ بذلك أم لم يشعر.

ولكن الناقد الأدبي المستقل المطلع على «المجلة المصرية» وعلى كتابه «مرآة الأيام» وعلى شعره المنظم والمنثور المتعدد النماذج؛ لا يمكنه إلا الإقرار بفضل هذا المعلم المرشد الملهم، الذي خلق آفاقًا جديدة من التأمل والأحاسيس والتصوف، حتى استحق أن يُدْعَى «شاعرَ العربيةِ الابتداعيَّ الأولَ».

وما كان الشعر العربي في أي وقت فقيرًا في «المذهب الواقعي» ولا في الحكم التجريبية والأمثال الفلسفية، فلم يجئ «مطران» ولا أحد بعده ببدعة في هذا الباب، اللهم إلا في أسلوب التناول الفني الطلق، وإنما جاء «مطران» وتلاميذه بما هو أعظم؛ جاء «مطران» بمذهب الحرية الفنية الصحيحة، التي تحترم شخصية الفنان واستقلال الفن عن الصناعة والبهارج والأناقة الزخرفية، وكلِّ ما يفرض العبودية على الفن والفنان من ألفاظ وقيود اتباعية، لا يحتمها الجمال المطبوع وأصالة الفن.

دَعَمَ «مطران» وحدة القصيدة وشخصية الفنان، وعزز رسالته كما تدعم الديمقراطيةُ حقوقَ الإنسان، وفتح له باب الحياة على مصراعيه كما أفسح له آفاق الخيال، وأبرز له كل شيء في هذا الوجود — صغيرًا كان أم كبيرًا — كموضوع شعري خليق بعنايته وأهل للتناول الفني إذا ما استطاع الشاعر أن يتجاوب معه، وحبب إليه

الموضوعات الإنسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتية فحسب، وأقنع شعراء مدرسته بأن على كل منهم رسالة مثالية لا بد له من أدائها، وليست وظيفة الشاعر أن يكون نَظَّامًا لُغويًّا، أو بين «المرتلين الانتهازيين»، بل عليه أن يكون بين زعماء الفكر، ورسل الوجدان، ودعاة الإصلاح، وأعلام الإيمان؛ لجيلهم ولما بعد جيلهم، وأن يجمع بين كل القيم التي تؤهل للزعامة الروحية والعقلية، والتي تزاوج ما بين أحلام الفنان، وحكمة الفيلسوف الواقعي بهذه التعاليم وما إليها. أنجب «مطران» وتلاميذه إنجابًا ممتازًا شرَّف العربية كما أغنى الأدب الإنساني الصادق، ولئن كانت لمطران مناسبات شتى لقصائده العامة تبعًا للأوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر والشرق العربي، إلا أن جميع هذا الشعر زاخر بكل العناصر الرفيعة، التي يتميز بها شعره كيفما كان عنوانه وموضوعه ومناسبته.

وعاطفة الحب التي ألهبت فؤاد «مطران» في صباه، ثم ألقته في لجة الحزن العميق بقية حياته، هي دعامة الزاوية في بنيان شعره الوجداني، وهي التي أسبغت الحنان على إخوانياته العديدة، من ذكريات وتقدير ورثاء، التي حفل بها ديوانه الرائع.

وإن نماذج الخيال الشعري المدهش في قصائده لأعظم من أن تحصر، ومن أقدمها قصيدته «فنجان قهوة» التي قال الأستاذ «عيسى خليل صباغ» عن خياله فيها: إنه تجاوز فيها غاية ما يبلغه قارئ البخت في فنجان القهوة!

«وخليل مطران» الشاب الذي رمى أعوانُ «عبد الحميد» سريرَه بالرصاص، والذي راح يتنقل من قُطر إلى قطر؛ فرارًا من وجه الظلم، والذي احتضنته «مصر» وتبنته عمرًا طويلًا، هو «خليل مطران» الكهل والشيخ الذي نظم الروائع منافحة عن الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية، فغذى بها الشعور الوطني جيلًا بعد جيل!

«وخليل مطران» الأديب اللغوي، تلميذ اليازجيَّيْنِ «الشيخ ناصف والشيخ إبراهيم» وتلميذ ألمعيته، هو الذي خلق العديد من الصيغ والتراكيب البيانية الحرة التي صدمت التقاليد أولًا، ولكن سرعان ما مَكَّنَتْ للعربية وأدبائها من حرية التصرف البياني الجميل؛ وفاقًا لحاجات العصر. «وخليل مطران»، مترجم «شيكسبير»، ونصير الفن، ومدير «الأوبرا» بالقاهرة، والأديب الكريم النفس؛ هو أفضل مثل يضرب إلى جانب «المعري» «وأبي تمام» في البر بالأدباء، مريدين وتلاميذ، بل وخصوصًا على السواء في روح فريدة من المحبة والإيثار والإنصاف والتشجيع لمستحقيه.

«وخليل مطران» الاقتصادي المجرب الواعي هو ذلك المعلم الفاضل الحكيم، الذي خدم مصرَ خدماتٍ جليلةً في النقابة الزراعية العامة، وأسدى إليها من آثاره الأدبية الاقتصادية ما لا يزال موضع الإعجاب؛ فكرًا وأسلوبًا وغاية.

هذه لمحات قليلة من شخصية هذا الشاعر الشامخ المتعدد الجوانب، نعرضها في ذكرى وفاته، ومثله لا يعيش في شعره فحسب، بل في أشعار الكثيرين من تلاميذه كذلك في أنحاء العالم العربي، في النهضة الشعرية المطردة الصعود كيفما كانت سِماتُها وألوانها، وخير ترحُّمٍ عليه دراسة آثاره الفخمة واستيحاؤها.

ولا يفوتنا أن نذكر في ختام هذا الحديث المجمَل أن «مَطْرَانَ» الصحفي النزيه الذي خدم القلم والقومية العربية والروح الوطنية؛ لأجدرُ الأدباء بإحياء ذكراه السنوية من محطات الإذاعة العربية، فالإذاعة اللاسلكية بنْتُ الصحافة، ومن محطات الإذاعة هذه يجدر أن يجلجل صوت الأحرار بقول «مطران» الرائد في العهد البائد.

شَرِّدوا أخيارهَا بحرًا وبرًّا ... واقْتُلوا أحرارَها حُرًّا فحُرًّا
إنَّما الصَّالحُ يَبْقى صالحًا ... آخرَ الدهرِ، ويَبْقَى الشرُّ شرًّا
كَسِّروا الأقلامَ، هل تكسيرُها ... يَمْنَعُ الأيديَ أن تَنْقُش صَخْرَا؟
قَطِّعوا الأيديَ، هل تقطيعُها ... يَمْنَعُ الأعْيُنَ أن تَنْظُرَ شَزْرَا؟
أطْفئُوا الأعْيُنَ، هل إطْفَاؤُها ... يَمْنَعُ الأنفاسَ أن تَصْعَدَ زَفْرَا؟
أخْمِدوا الأنْفَاسَ! هذا جُهْدُكُمْ ... وبِه مَنجاتُنا منكمْ فشُكرَا!

وبقوله:

أَنَا لا أَخافُ ولا أُرَجِّي ... فَرَسِي مؤهَّبَةٌ وسَرْجِي
فإذا نَبا بي بَطْنُ بَرٍّ ... فالمطيَّةُ بَطْنُ لُجِّ
لا قَوْلَ غيرَ الحَقِّ لي ... قَولٌ، وهذا النَّهْجُ نَهْجي
الوعْدُ والإِيعادُ ما ... كانا لَدَيَّ طريقَ فُلْجِ![1]

[1] فلج: ظفر.

وبقوله في مقتل بَزُرْجُمْهِرَ على لسان ابنته السافرة، التي تساءل رسول كسرى متعجبًا عن سبب سفورها:

انظرْ وقد قُتِلَ الحكيمُ فهل تَرَى	إلا رُسُـومًـا حـولـه وظـلالَا؟
ما كانت الحسناء تَرفعُ ستْرَهَا	لو أَنَّ في هذي الجُمُوعِ رجالَا!

كان ذلك منذ نصف قرن، ولكنَّ «مطران» بقي هو هو شاعر الحرية الجريء، الذي قال في ملحمته «نيرون» بعد ذلك بسنين:

كلُّ قـومٍ خـالـقـو (نـيـرونـهـم)	قيصرٌ قيل له أمْ قِيلَ (كِسْرَى)!

قد يمجَّد «مطران» لابتداعه في جميع ضروب الشعر — وليس أهونَها القصص — ولإيحائه بما تركه لغيره، لا عن عجز بل عن سماحة، كالشعر التمثيلي، وقد يمجَّد — كما مُجِّدَ فعلًا لريادته الممتازة في فنون الأدب، ولكن تبقى الصفة الأهم لمطران والنعت الأكرم، فإن شاعر الحرية الفنان الملهم أَولى الشعراء الأحرار في العالم العربي جميعه بأسمى التقدير، من دُوَله وشعوبه دون أيِّ تَحَفُّظٍ، وليس التقدير الصحيح إلا بنشر جميع آثاره، وتعميم درسها وتشرب مبادئها الإنسانية السامية التي تنظر إلى الإنسان الرفيع والفن الرفيع نظرة واحدة.

أحمد شوقي

كنت أقرأ لشاعر الشباب المهجري «سعيد جبرين» من الشعر الابتداعي قوله الشائق:

وادَّعى العُشَّاقُ يا مَفْدِيُّ أنِّي مِثْلُهُمْ متِّعْتُ بالأمْسِ البعيدْ
كَذَبُوا! أَمْسِي كيومي ضَاعَ مِنِّي مَوْجَة حَمْقى على صَخْرٍ عَنِيدْ!

وقوله:

أَتُرَى الزَّوْرقُ يَجْرِي أم تُرَى الشَّاطئُ سارَا؟
أَمْ تُرَى الزَّوْرقُ والشَّا طئُ والركْبُ السُّكارَى؟
مَوْكِبٌ قد سَحَرَتْه رَوْعَةُ الليْلِ فَحارَا!

وقوله:

وترْمُقُهُ أيُّ ضَوْءٍ تألَّقَ في ناظِرَيها وأَيُّ غَرَامْ!
كأنْ بَعْدَ هذا الضُّحَى لَنْ يُطِلَّ على ذلكَ الأُفْقِ إلَّا الظَّلَامْ!

وقوله وقد أجاد التفنن:

قالتْ: وحبكَ؟ قلتُ: خَلْفِي في المجيء وفي الرَّواحِ
يَبْكي فأَنْهَرُه فيُمْعنُ في البكاءِ وفي الصِّياحِ

فأَعُلُّهُ بَحَصَى المُنَى[١] وأنامُ وهو هُذَاكَ صاحي!

يذكرني هذا الشعر الطريف بالنزعة التي كانت سائدة في الشرق العربي، حتى ربع قرن مضى؛ نزعة العزوف عن الشعراء غير المشهورين، ولولا مكافحة «جمعية أبوللو» الشعرية هذا الاحتكار، وتنويهها في مجلتها بمنوَّع الآثار الجديدة لشعراء الشباب؛ لبقي حتى مثل «أبي القاسم الشابي» خاملًا كما أَخْمَلَ صيتُ الشعراء المقربين إلى الحكام والأعيان في سالف القرون كثيرين من الشعراء المجيدين، وعملت الأهواء عملها في إجحافهم، حتى إن صاحب «الأغاني» أغفل ذكر شاعر موهوب مثل «ابن الرومي»، الذي لم تقدِّرْ بيئته مواهبه أو أساءت فهمه، ثم مَدَدْتُ يدي إلى بريدي الأدبي الأخير، فإذا به كتاب شائق عنوانه «المتنبي وشوقي: دراسة ونقد وموازنة» للأستاذ «عباس حسن» الذي يمثل شعبة اليمين في الثقافة النقدية بدار العلوم في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة، فنبهني إلى وجوب التحدث عن الشاعر المصري الجهير «أحمد شوقي»؛ لأن المؤلف الفاضل بهذه «الدراسة» — كما نَعَتَها — إنما أعاد إلى ذاكرتنا تلك الروح التي كانت سائدة إلى ربع قرن مضى، تساندها منزلةُ «شوقي» في القصر، وإن بقيت لها تقاليد عند «المدرسة القديمة» التي يتزعمها الآن بين النقاد في مصر «أحمد حسن الزيات» وبين الشعراء «عزيز أباظة» وإن نافستها مدرسة أخرى، قديمة الوشائج في التأليف والأساليب القائمة أيضًا على التمجيد الفردي، وهذه المدرسة يتزعمها الآن بين النقاد «سيد قطب» وبين الشعراء «عباس محمود العقاد».

وقد كانت المدرسة الثانية في وقت ما تتأرجح نحو التجديد، متأثرة بنقد «عبد القادر المازني» وبشعر «عبد الرحمن شكري»، ثم انصرفتْ إلى لون مزخرف من الجمود وإن وصفتْه بنقيضه. وتقوم في صميمها، كما قامت مدرسة «شوقي»، على مبايعة زعيم أدبي ثم تأليهه، ولا تؤمن بجمهورية الأدب!

ومع ذلك فكتاب الأستاذ «عباس حسن» تحفة في موضوعه؛ لأنه غاية ما يمكن أن يمليه التأليه الأدبي الذي يتجاهل تجاهلًا تامًّا أصول النقد الحديث، كما يتجاهل الحقائق التاريخية العامة والخاصة، وإلا لَمَا جرؤ على مثل هذه المقارنة العجيبة بين

---

[١] في هذا البيت إشارة إلى حكاية أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» والأعرابية التي كانت تعلل أطفالها الجائعين بطهي الحصى!

«المتنبي» الشامخ في أصالته وعزة نفسه، وبين «شوقي» الذي مهما تكن مواهبه التي نقدرها قدرَها؛ فقد كان قبل كل شيء شاعرَ البلاط في زمنه، وكان يتتلمذ على «المتنبي» ويحاكيه، ويعارضه، ويقتبس منه؛ كما كان مرآة للشعر الفرنسي، ولم يكن يومًا ما شاعر الشعب بالمعنى الصحيح؛ كما كان حافظ إبراهيم، ولم تكن له نفسية «المتنبي» بأي حال، كما عرفَ وسجَّل ذلك المستقلون من معاصريه النقاد الأدباء النريهين.

لقد بزغ نجم «شوقي» في زمن تألق فيه نجم «خليل مطران» و«إسماعيل صبري» و«حافظ إبراهيم» بصفة خاصة، فكانت «لمطران» رسالة مستمدة من الإنسانية أولًا ومن القومية ثانيًا، إلى جانب شعره الوجداني وشعر الطبيعة المنوع؛ وكانت رسالة «إسماعيل صبري» وجدانية وطنية صرفة، وأقلها الجانب الوطني، وأغلبها شعر العواطف المُتْرَفَةِ التي لا تحمل أية رسالة فوق المتعة الموسيقية والأناقة الفنية للترويح عن النفس؛ وكانت رسالة «حافظ» وطنية سياسية شعبية إلى أبعد غايةٍ، وإن حُفظت له نماذجُ رائعةٌ في شكوى الزمان. وأما رسالة «شوقي» فكانت أساسيًّا التغني بمجد مصر ثم بتاريخ الإسلام والعرب، تسعفه في كل ذلك ثقافته التاريخية، وقربه من ولي الأمر في مصر، واستجابته لميوله حتى تهجَّم على الزعيم الوطني «أحمد عرابي» في الطبعة الأولى من ديوانه، ثم اضطر إلى حذف تلك القصيدة الهجائية وما ماثلها من الطبعة الثانية، أمام سخط الوطنيين والمثقفين المصريين في ذلك الحين، ولا ريب أن «شوقي» كان صادقًا في تاريخياته المنوَّعة التي تجلت فيها عبقريته، ولم يبزَّه أحد فيها، وتفوقه في هذا المضمار جدير بالتمجيد والتخليد، وأنه لَرسالة ذات قيمة كبيرة لا يعاديها أي إنسان حصيف، ولا أي ناقد منصف، إلا إذا جاز أن يعادَى مَنْ يسجل أمجاد التاريخ القومي بإخلاص ولذة، بل وشراهة!

لقد جمع ديوان «المتنبي»[٢] كل شعره، وفيه مَراءٍ مدهشة بين عادية ومكبرة ومصغرة للبشرية ولطبيعة الحياة في أساليبَ مركزةٍ متينة في الغالب، وعلى الرغم من مآخذِ بعضِ النقادِ عليه؛ وعلى الأخص في ديباجته، لم يقل أحد، من البصيرين بالأدب وبالشعر خاصة إنه كان يفتعلُ الشعرَ أو يُعْنَى بالصنعة على حساب ما عداها. بل كان

[٢] أكمل طبعة لديوان «المتنبي» وأصلحها شرحًا هي التي أخرجها «عبد الرحمن البرقوقي» في القاهرة سنة ألف وتسعمائة وثلاثين ميلادية، وفيها تذييل بأبياتٍ ومقطوعاتٍ وقصائدَ «لأبي الطيب» لم تذكر في ديوانه المألوف.

شعره ترجمة حياته وإيمانه، وكان أَسره وبذخه اللفظي مرآة نفسه الضخمة، ولم يكن أي من شعره نظمًا تقليديًّا لأحد، أو مجاراة للعرف أو خضوعًا لإرغام!

وليس كذلك شعر «شوقي»؛ فمن شعر شبابه المهلهل والتقليدي الكثير الذي أُسقط من الطبعة المتأخرة، ومنه ما يعد من شعر المناسبات العابرة الذي لا قيمة له خالدة بمحتوياته؛ لا فنيًّا ولا إنسانيًّا، وهكذا تكون المقارنة ما بين «شوقي» و«المتنبي» من أساسها باطلة.

إن طاقة «شوقي» الفنية عظيمة وموسيقاه أعذب في جملتها من موسيقى «المتنبي»، ولكن طاقة «المتنبي» الفنية أعظم وأصالته أجل، وليس هو الشاعر المنافق الكذاب الحاقد المستجدي السفيه كما وصفه الأستاذ «عباس حسن»؛ لأن «المتنبي» لم يقصد «كافورًا» إلا وهو المطلوب المُلَحُّ عليه، لا الطالب المستجدي، وقد صُوِّرَ له «كافور» بصورة العصامي العبقري، الذي يقدر المواهب قدرها، فلما اكتشف خبيئته أعرض عنه، بل سخر منه بأمداح، نابت فيها الرمزية والمبالغة عن كل تهكم مكشوف،[٣] ثم عمل على ترك مصر، بل هجاه وهو مقيم فيها، وإن لم يُذَعْ شعره فيه إلا بعد أن غادرها.

ونفسه العزيزة أبت عليه أن يبقى في بلاط «سيف الدولة» غير مكرَّمٍ، ولكنه لم يقل بيتًا واحدًا هجاءً فيه، بل على العكس كانت تحن إليه نفسه الوفية، وكان بوسع «المتنبي» أن يغنم أموالًا طائلة، لو كان هو المستجدي بطبيعته؛ لأن الأعيان الذي تهافتوا على أمداحه كانوا عديدين، بل على العكس كان يعزف عمن لا تجاوب بينه وبينه، وكان يرثي محبةً ووفاءً مَن انعدمت صلاتهم بموتهم.

وعُرِفَتْ عنه عفة النفس، فلم يقل أحد إنه استغل صلته «بسيف الدولة» ولا بغيره في سمسرةٍ تجديه، ولم يقتنِ مالًا ولا عقارًا من طريق خسيس كهذا كما صنع غيره، وكان شريف الخلق من جميع النواحي؛ وإن استثارته عصبيته أحيانًا إلى السخط؛ لأنه كان أبعد الناس عن الكيد، فهجاؤه في ذاته أشرف من الكيد الخفي الذي يلجأ إليه شعراء يتغنون نفاقًا بتمجيد الأخلاق.

لقد كانت «للمتنبي» شخصية واحدة بارزة تجلت في شعره، وأما «أحمد شوقي» كعباس محمود العقاد وإيليا أبي ماضي وأمثالهم، فمن أولئك الشعراء الذين لهم جملة

[٣] مجلة «الأهداف» المصرية، مايو سنة ١٩٥١: «بين المتنبي وكافور».

شخصيات و«أحمد شوقي» بصفة خاصة لا يدل شعره على شخصيته إطلاقًا، بل ربما كانت عكسها كما يشهد بذلك جميع معاصريه من المؤرخين النزيهين المستقلين.

وقد عمل «المتنبي» في مصر على تأسيس مدرسة شعرية قويمة، وأحبَّه مفكروها، وإن كرهه عتاتها،[٤] ولم يكن كذلك شأن «شوقي» الذي بر به شعراؤها الشباب حتى بعد مماته، ومع ذلك كان يغار حتى ممن كانوا يُعدُّون في حكم تلاميذه.

وكان «للمتنبي» غرور عبقريته ومواقعه مع مَنْ شاء، وكذلك كان لشوقي غروره، ولكنه جعل مَن حوله يقومون بالمعارك من أجله، بينما تحدَّث هو بالسلام!

ولكن كل هذا من نصيب التاريخ الأدبي الذي لا يَطْمِسُ أي تأليف متأخرٍ، لمن لم يعش في العصر المؤرخ له، ويجرؤ على تفسير الظواهر على نقيض الحقائق التاريخية الثابتة، في عصر شقي به الشعراء الشباب النابهون بل وغيرهم وسيطرت عليه الأنانية الأدبية، وحب التفرد، بأي ثمن، سيطرة معيبة.

وبعد، فلا ريب أن «أحمد شوقي» في مجمل شاعريته وآثاره مرحلة تقدمية في الشعر العربي الحديث، ولكنه شيء آخر غير ما ذهبت إليه خواطر الأستاذ «عباس حسن».

ونحن نعد ديوان «شوقي» وآثاره الأخرى ثروة للعربية، خلافًا لما يرى «عباس محمود العقاد» وأقرانه الذين لا تصل شاعريتهم إلى شاعرية «شوقي» منزلة وتنوُّعًا، ولو أن «شوقي» في كثير من آثاره جارى عصره وخصوصًا ثقافته الغربية، وما كان للمتنبي أن يصنع مثل هذا في عصر أحكمت فيه القيود، وأناخت عليه التقاليد شكلًا وموضوعًا، وقد كانت ظروف حياته تضطره اضطرارًا إلى أن يكون شاعر الملْك والعظمة.

ولم يكن احتراف الشعر في زمنه عيبًا بل فضيلة، ولم تكن له مندوحة عنه، ولكنه لم يكن صغير النفس، ولو كان لَمَا حفل به ومجَّده مثل «المعرِّي» الذي كان جد حافل بالقيم الخلقية والإنسانية، فسمى مختاراته من ديوان المتنبي «معجز أحمد».

إن «أحمد شوقي» هو من أولئك الشعراء الذين قلما عاشوا في شعرهم، وإن استمتعوا بنظمه وروحُ الموسيقار تغلب فيه روحَ الشاعر، وأحيانًا تتساويان، وقد يسف في نظم المناسبات التقليدي، كما قد يحلق في روائعَ له تحليقَ الخلود.

---

[٤] مقالات «مصر الشاعرة» في جريدة «البلاغ» المصرية للأستاذ «عبد الله عفيفي» بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة «المتنبي».

ومن الخير للأدب والأدباء أن تُحْصَرَ العنايةُ في الناحية الفنية وحدها من شعره، دون محاولة مثل تلك الموازنة الخاطئة، التي لجأ إليها الأستاذ «عباس حسن» عن جهل بالتاريخ الأدبي المعاصر، مهما يكن علمه بعناصر الأدب العربي عامة، وتزكيته المحمودة عن هذا العلم.

لقد أثبت «أحمد شوقي» بألمعيته كفاية العربية لاستيعاب المعاني العصرية في أسلوب كلاسيكي ساحر! يمرح فيه الخيال؛ كما تتدلل الموسيقى والمعاني وتتألق الصور فتنةً للقارئين، وخيرُ تحية وتقدير لذكراه حصرُ العناية في هذه النفائس والاقتصار على الموازنات الفنية فحسب؛ إذ في مجالها قد ترجح كفته مرارًا، وفيما عداها قد لا تَشُولُ غالبًا، وعشاق الجمال الفني لا يَحْفِلون بما ليس منه، ولا يشجعون المغالطة في التاريخ، أو ما قد يؤدي إلى تشويه الصور الجميلة بِمِبْضَعِ التشريح والتحقيق؛ كما لا يشجعون الاسترسال عند الدراسة والنقد والموازنة، في متابعة الميول الذاتية، وتجسيم الخيال على حساب الحق والجمال!

محمد حافظ إبراهيم[1]

إلـى هُـنَـا أيَّـتُـهـا الـمـدينَـهْ الـحُـرَّةُ الـفـاجـرةُ الـمـجـنـونَـهْ
تَملأ عَيْنَيَّ الرُّؤى السَّجينهْ والأدمـعُ الـوالـهـةُ الـسَّـخـيـنَـهْ
إنِّـي هـنـا أُغـربِـلُ الـسَّـكـيـنـهْ وأزرعُ الـخـواطـرَ الـحـزيـنَـهْ
مِلْءَ ضِفَافِ الوَحْدةِ المِسكينَهْ وفـي يدي فَجْرٌ ستعبدينَهْ
يومَ نُزولِ المِحنةِ الملعونَهْ

لم يقل هذا الشعر «محمد حافظ إبراهيم» وإن كان هو القائل منذ نصف قرن:

سَعَيْتُ إلى أن كِدْتُ أَنتعلُ الدَّما وعُدْتُ وما أَعْقَبْتُ إلا التَّنَدُّما
سَلامٌ على الدُّنيا سَلامَ مَوَدِّعٍ رَأى في ظَلام القَبْر أُنْسًا ومَغْنمَا
أضَرَّتْ به الأُولى فَهامَ بأختِها وإنْ ساءَتِ الأُخْرَى فويلاهُ مِنهما!
فَهُبِّي رياحَ الموتِ نكباءَ واطفئي سراجَ حَياتي قبلَ أن يَتحطَّمَا
فما عَصَمتني من زماني فضائلي ولكنْ رأيتُ الموتَ للحُرِّ أَعْصَمَا!

[1] جريدة «المقطم» بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥١: مقال بعنوان «نهاية شاعر» للأديب «سيف نديم زمر».

وإنما قال ذلك الشعر في منتصف القرن العشرين شاعر آخر موهوب، اضطرته الحاجة إلى ترك القاهرة والالتجاء إلى سفح «المقطم»، يلتحف السماء ويبيت لياليه على الطَّوى، ساخرًا من المترفين الكسالى، حتى مات ضحية الجوع والحرمان، وكان قبلًا يُنْشِدُ:

إنَّ أشْقَى الأحياءِ والأمواتِ   آدميٌّ يَعيشُ بالفلسفاتِ
يَتمنَّى الخلودَ بعدَ الممات   وهو حَيٌّ معذبٌ في الحياةِ!

كما كان يقول بإنسانيته:

وطني الدُّنيا، ودِيني خالقي   وأَخي كُلُّ شَقِيٍّ في البَشَرْ!

ويقول متسامحًا كريمًا:

ربَّما فوَّقوا السِّهامَ لقتلي   فرأوني أُباركُ القاتلينا!

وجميع هذا الشعر هو من روح «حافظ إبراهيم»، وكان من الجائز أن يقوله، كما كان من الجائز أن تكون نهايته نهاية ذلك الشاعر البائس «صالح علي الشرنوبي»، لولا أن العناية أنقذت حافظًا على يديْ ناظر المعارف المصرية «أحمد حشمت باشا» والأستاذ «الإمام محمد عبده».

كان والد «حافظ» أحد المهندسين المشرفين على بناء قناطر «أسيوط»، ولكنه توفي فقيرًا ولم يتجاوز «حافظ» السنتين، فانتقلت به والدته من مسقط رأسه في «ديروط» إلى القاهرة؛ حيث كفله خاله وعُنِيَ بتعليمه الابتدائي والثانوي، ثم انتقل خاله إلى طنطا فانتقل «حافظ» معه حيث لبث بها بضع سنوات مساعدًا في أعمال المحاماة،[٢] وكان يترافع في قضايا المحاكم الجزئية القريبة من طنطا ويكسبها، ويحدثنا خَدِينُ صباه وصديقه الحميم «الشيخ عبد الوهاب النجار» أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة

[٢] مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، ص١٣٢٤، من مقال للأستاذ عبد الوهاب النجار بعنوان «صفحة مجهولة من حياة حافظ».

الأزهرية سابقًا، فينوه بأدب «حافظ»، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة، وبديهة مطاوعة، وسرعة خاطرٍ وحضورٍ نادرة.

وضرب مثلًا لذلك ما حصل «لحافظ» في عهده الأول؛ إذ أغلظ خالُه القولَ له مرة في شأن من الشئون وزجره، فكتب إلى خاله:

ثَقُلَتْ عليكَ مئونتي وأنا أراها واهيَهْ
فافرحْ، فإني ذاهبٌ متوجِّهٌ في داهيَهْ!

ولكنه لم ينس خاله فيما بعد حينما سجن، فنظم «حافظ» قصيدة للخديوي «محمد توفيق باشا» يستعطفه بها على خاله، فوقعت قصيدته من نفس الخديوي موقعًا حسنًا، فأصدر عفوه عن خاله وعينه مدرسًا للأمراء «أحمد سيف الدين» و«محمد إبراهيم» و«شويكار هانم»، وبقي بعد مفارقتهما عهد الدراسة يستولي على مرتبه إلى وفاته.[٣]

وذكر الأستاذ «النجار» من آيات ذكاء «حافظ» أنه كان يَسمعُ الفقيهَ في بيت خاله يقرأ سورة «الكهف» أو سورة «مريم» أو سورة «طه» فيحفظ ما يقول، ويؤديه كما سمعه بالرواية التي قرأ بها الفقيه! وكان إذا وقف على بيت نادرٍ، أو شعر بارع، يبادر إلى الأستاذ «النجار» قبل أن يُسْمِعَهُ إنسانًا آخر، ويُسْمِعُهُ ما أعجبه، وكان لا يعجبه إلا كل مرقص مطرب،[٤] وقد لازمت هذه الخلال حافظًا إلى أواخر أيامه.

ولقد كانت أمنيته الكبرى أن يدخل المدرسة الحربية، فتمكن من ذلك بعد انتقاله إلى مصر، ولكن وطنيته كانت أكبر من مظهر الجندية، فعزله الإنجليز منها في السودان، ثم ازداد تَشَرُّبُهُ للمبادئ الوطنية ولفلسفة الحياة العملية بصحبة الإمام محمد عبده، فهيأه كل ذلك لأن يكون شاعر الوطنية المصرية المطبوع المجلى، لا يعرف الذبذبة في عقيدته، ولا يُزعزع إيمانَه بمبادئه أيُّ ظرف أو حادث، ولذلك بقيت لشعره القومي حرمة لا تعدلها حرمة أي شعر آخر في زمنه، أوْحتْهُ شجون مصر وشئونها وعواطف أبنائها، وتقدست بإخلاصه العميق لوطنه وترفُّعه عن الدنايا.

إن شعر «حافظ» الوجداني يمثل إنسانيته البَرِمة بالمفاسد والصغائر؛ كما يمثل مرحَه وظرفه، ومنه ما يمثل تعاطفه البشري في النكبات والأحداث العالمية، ولكن أعظم

[٣] المصدر ذاته ص١٣٢٧.

[٤] المصدر ذاته، ص١٣٢٤.

ما يمثله «حافظ» هو «مصر» التي أحبها ودللها، وزجرها وأرشدها، ودافع عنها وسخر مِنْ كُلِّ مَنْ حاولَ أن يثنيَه عن إيمانه وجهاده، وأن يستحوذ على قيثارته.

«حافظ إبراهيم» هو «مصر» العانية الحاضرة، لا مصر القديمة التي احتفى بها «شوقي» أجملَ احتفاءٍ، ولا مصر الإسلامية التركية التي نافح عنها «أحمد محرم» منافحة أجلَّ، فشاعرنا بِسماته وروحه هو هو «مصر» البائسة الوجلة المتيقظة المترددة المتقدمة، فإذا عاتبها أو لامها أو عنَّفها؛ فكأنه يوجه كل هذا إلى نفسه، فلن تسخط عليه «مصر»؛ لأنه توءمها، ولأنه بإخلاصه الناصع فوق كل لوم أو شك، ولو أن بعض النقاد الأفاضل آخَذَهُ على حملته على «المدعي العمومي» في «مأساة دنشواي» باعتباره مصريًّا؛ وإذا كان اللومُ القاسي لا يُوَجَّهُ إلى المصري الضالع مع خصوم مصر؛ فإلى من يُوَجَّهُ؟! ومثل هذا الخطأ في الحكم وُجِّهَ قبلًا إلى الرائد المصلح «جمال الدين الأفغاني»، الذي ألجأه الظلم إلى المهاجرة من وطنه الأول «إيران» والانتساب إلى أفغانستان، التي بَرَّتْ بعلمه وأدبه وحَنَتْ عليه، فقد شاء بعض النقاد أن يتستر على الظلم؛ لأن مرتكبيه هم أبناء وطنه، ولا تزال هذه التعاليم المعوجة تدرس لطلبة؛ العلم حتى الآن! إذن لا أسمي «حافظ إبراهيم» إلا «مصر الشاعرة»، لا ما دون ذلك بأية صورة[5] فهو الشاعر الشعبي، وهو الشعب عاطفة وأغنية.

لم تكن لحافظ ثقافة «شوقي» التاريخية أو الأدبية الفرنجية؛ فلم تكن له آفاق «شوقي»، بل ولا آفاق غيره من شعراء الشباب المتضلعين من الآداب العالمية، أو أولئك الذين جمعوا بين المعارف الأدبية والعلمية، ولكنَّ طبع حافظ الشعري كان أصلًا جذابًا، وعلى الأخص في شعره المرتجل الذي كان يرسل فيه نفسه على سجيتها ويتفنن؛ وللأسف ضاع معظم هذا الشعر؛ لأنه لم يكن يدوِّنه؛ معتمدًا في حفظه على ذاكرته القوية وحدها، وكثير منه مداعبات وإخوانيات، تكاد تكون عديمة النظير في الشعر العصري، وبعض هذه المداعبات التي جرت بينه وبين الدكتور الشاعر «إبراهيم الشدودي» تمكنت «مجلة سركيس» من نشره، وحتى هجاؤه اللاذع لم يكن إلا مداعبة. لقد كان لحافظ عبقريته كما كانت لشوقي، بعكس ما زعم أحمد حسن الزيات[6] الذي قال إن «شوقي» شاعر

---

[5] «حافظ إبراهيم» الشاعر السياسي بقلم «روفائيل مسيحة».

[6] مجلة الرسالة العدد الأول سنة ١٩٣٢.

العبقرية «وحافظًا» شاعر القريحة؛ لأننا نعرف أن لكلٍّ منهما إبداعَه وأصالتَه؛ كما أن لكل منهما إسفافَه.

والفارق بين الرجلين هو الفارق بين طبعين، وثقافتين، وقريحتين، وغيرُ صحيح أن حافظًا كان يتحمَّل من بناء القصيدة إرهاقًا شديدًا؛ فقد كان ارتجالُه للشعر أطوعَ من ارتجال «شوقي» في مجالس سمره، وكان يَسُحُّ بالشعر سَحًّا، وإنما كان يتأنق في التنقيح فحسب، بحكم تأثره المديد بالأدب العربي القديم، فجاءت صياغته ممتازة لا غاية بعدها، في منحاها العربي الصافي.

واعتلَّت صحة «حافظ» في أواخر عمره فَصَمَتَ؛ لا عن عيٍّ؛ بل عن اعتلالٍ فحسب، ولكن بعد أن كان قد زود أمته بأصداء جميلة من روحها، وبصفوة نقية من اختباراته.

وكان «حافظ» يعشق الحرية إلى أبعد حد، ويحتقر متاع الدنيا؛ فكان محسنًا بماله، إلى حد التبذير، ولكنه كان دائمًا ضنينًا بأخلاقه ومبادئه، وهذا ما أكسبه تجلَّة خالدة، فإن بوهيميَّتَه لم تمس أخلاقه الفاضلة. لقد كان «حافظ» مُسْهِمًا بشعره في ثورات فكرية، نهضت بالوطنية المصرية جيلًا بعد جيل، كما كان صادق التجاوب معها، وقصائده السياسة القومية أشهر من أن تَعُرَّفَ.

وهو يُعَدُّ أولَ شاعر مصري نَوَّهَ بعظمة أمريكا الحَرِيَّةِ بالاقتباس منها، وكأنه كان يخاطب أبناء مصر حينما وجه هذا الشعر البسيط الصياغة العميق المغزى إلى الرئيس الأسبق تيودور روزفلت، على أثر خطبة سياسية في «القاهرة» في أوائل هذا القرن:

يا خطيبَ «الدُّنيا الجديدةِ» شَنِّفْ	سَمْعَ «مصر» بقولِك المأثورِ
واخبرِ الناسَ كيف سُدْتُم على النَّا	سِ وجئتمْ بمعجزاتِ الدهورِ
وملكتمْ أعنَّةَ الرِّيح والما	ءِ، ودُسْتُم على رقابِ العصورِ
قِفْ وعَدِّدْ مآثرَ العلم واذكرْ	نِعمَ اللهِ ذِكْرَ عبدٍ شَكور
وإذا ما ذكَرتَ أنْعُمَهُ الكُبـْ	ـرى فلا تَنْسَ نِعمةَ الدستورِ!

إن «شاعرية حافظ» الثائرة الناقمة التي جاءت بقصائده الخالدة في «دنشواي» و«مصر» ورثاء «محمد عبده» ورثاء «مصطفى كامل» و«حطمتُ يراعى» و«رعاية الطفل» و«المناجاة» و«مظاهرة السيدات» وكثيرات سواها؛ لم تعرف المحاكاة التي لجأ إليها «شوقي» في تقليد «المتنبي»، ولجأ إليها «عبد المطلب» في تقليد شعراء البدو، ولجأ إليها «الجارم» في محاكاة الشعراء العباسيين، وإنما جاءت فيض عاطفته وخاطره

وإيمانه. و«لحافظ» مفاتن وصفية كما له حكم سائرة، جمع بعضَها «أحمد عبيد» في كتابه «مشاهير شعراء العصر»، وكلها تشع بروح تقدمية جذابة، وإن اتبع غالبًا «المذهب الواقعي» في عرضه، ونادرًا «المذهب الرومانطيقي» القصصي؛ كما في قصيدته «بنت مصر وبنت الشام» وقصيدته «المناجاة».

ولئن أُصْغِرَتْ طاقته الشعرية في نماذجَ؛ كما أُصْغِرَتْ طاقة شوقي الشعرية في نماذجَ أيضًا؛ فإنها مع ذلك محتفظة بروح قوية؛ لأنها مستمدة من روح الشعب، ومن روح التقدم الذي هو دين الوجود الغَلَّاب؛ ولأنه بسيرته خلق في تاريخ الشعب المصري خاصة سيرة «المصلح» في صورة شاعر، ولأنه عاش في جميع شعره لا في بعضه، وفي آذاننا رنين من حِكَمِه وأمثاله:

إذا الـلـهُ أَحـيـا أمـةً لـن يـردَّهـا   إلـى الـمـوتِ قـهَّـارٌ، ولا مُـتَـجَـبِّـرُ

* * *

إنَّ الـقـويَّ بـكـلِّ أرضٍ يُـتَّـقَـى

* * *

إنَّ الـمـنَـاصِـبَ فـي عـزلٍ وتـولـيـةٍ   غـيرُ الـمـواهـبِ فـي ذِكْـرٍ وتـخـلـيـدِ

* * *

أبــريءٌ عــنــهُ يَــعْــفُــو مُـذنــبٌ   كيف تُسْدِي العَفْوَ كَفُّ المذْنِبِ؟!

* * *

فـمـا ضـاعَ حَقٌّ لم يَنَمْ عنه أهـلـه   ولا نَـالَـهُ فـي الـعَـالَـمِـينَ مُـقَـصِّـرُ

* * *

قـد اتُّـهِـمْـنَـا ولَـمَّـا نَـطـلِـبْ جَـلَـلَا   إنَّ الضَّعيفَ على الحاليْنِ متَّهَمُ!

* * *

مَنْ رَامَ وصْلَ الشَّمْسِ حَاكَ خُيوطها   سَـبَـبًـا إلـى آمـالِـه وتَـعَـلَّـقَـا!

* * *

مَـرْحَـبًـا بـالـخَـطـبِ يَـبْـلُـونـي إذا   كَـانـتِ الـعَـلْـيَـاءُ فـيـهِ الـسَّـبَـبَـا!

* * *

هَـلَاكُ الـفَـرْدِ مَـنْـشـؤهُ تَـوَانٍ   ومَوْتُ الشَّعْبِ مَنْشَؤهُ انقسامُ

لقد عاش «حافظ» عيشةَ الفقير المحسن، وأما ثروته الأدبية وآثارها فلم تُقَدَّرْ بَعْدُ التقديرَ الكافي، وكان أحق الناس بالكتابة الضافية عنه صديقه الأستاذ «عبد الوهاب النجار» أو صديقه «خليل مَطران»، ولكن المنية عاجلتهما، فلم يبق إلا أن نرتقب تحقيق ذلك على أيدي الجامعيين المستنيرين؛ أمثال الأديب الفاضل «روفائيل مسيحة» في مصر، وغيره في بقية العالم العربي، الذي احتضنته شاعرية «حافظ» وإنسانيته!

عبد الرحمن شكري

كاد يمسك بتلابيبي صاحبي متلبسًا بجريمة الإعجاب بشعر لبناني عامي، وأنا أقرأ «ليوسف أسعد غانم» نشيده «مات الليل»:

مات الليلْ ومات الفجرْ　　ونُجومو عنِّي غابُوا
ومِنْ دُونْ ليلْ كِيفْ بدُّو البَدْرْ　　يُطل ويشْلحْ تِيابو؟!
مات ورَّثْني هُمومُو　　صِرْت هُمومْ وفُوقي هُمومْ
وطرطَشْ بيدَمُّو نجومو　　ورَشْ جبينْ الصُّبْح دمُومْ!
مات يكفَّن بغيومو　　وشموع التابوت نجومْ!
ماتْ بتضحكْ عيُونو　　والدِّمعةْ بعيونِ حْبابو
عامُوتو صُوتي بِيخن　　رَبَابي انقطَعتْ أوْتَارا
وقوافي الكانتْ بِترنّْ　　قصيدي ومَسْحِيِّي شعارَا
وجِراس القلب طِنّْ ... طنّْ　　دَقَّتْ حُزْن عَلَيَّ نْهارَا
الليلْ نهارْ بِدُنيا الفن　　وزِيت السَّما بقنديلو
وِبْواب الشِّعر بَوابُو

ولمح على مِنضدتي ديوان «الخليل»، وديوان «عبد الرحمن شكري»، فهز رأسه إشفاقًا علي، وقال: عجبًا! عجبًا! ما الذي يجمع اللبناني بالمصري، والعامي بالفصيح؟! قلت: يجمع بين أولئك الأدب والفن والإنسانية، ألا ترى روعة الفن في شعر هؤلاء الثلاثة؟! ألا ترى الأصالة والتحرر والابتداع؟! أما «مطران» فبعد أن تشرَّبَ كلًّا من الأدبين العربي والأوروبي أسمَعَتْ قيثارته العرب في العقد الأخير من القرن الماضي ألحانًا لا عهد لهم

بها من قبل، وقد دار ابتكاره حول التناول الفني للطبيعة البشرية في صورها المتعددة، ومن بينها نفسه في حالاتها المختلفة، مراعيًا وحدة القصيد، غير متهيب تطويع اللغة للمعاني والأخيلة الشعرية، مرقرقًا شعره الأصيل بالرومانطيقية الفرنسية اللطيفة، وخالقًا بجرأته ومواهبه الفذة مدرسة متحررة تمتْ رويدًا رويدًا، وأثر في أدباء كثيرين من الشبان والمراهقين في ذلك الحين؛ «كأحمد شوقي» و«مصطفى نجيب» و«إسماعيل صبري»، واستمر تأثيره بصور شتى جيلًا بعد جيل، كما تفرعتْ على تعاليمه مدارس شعرية متحررة منوعة؛ منها مدرسة «شكري» التي انتسب إليها «المازني» و«العقاد»، ولكن البون شاسع بين الأستاذ وتلاميذه، وإنْ آثر التواريَ بعد أن أصدر سبعة من دواوينه العامرة القوية الحيوية، ولكن التاريخَ الأدبي الأمين لا يهتم لهذا التواري، وإنما يُعْنَى بتسجيل الحقائق كما هي، ولا يبني استنتاجه إلا على المنطق السليم، دون أي تحيز أو تعصب، ودون أن يخدعه أي بهرج زائف يجمعه الاشتغال بالسياسة والصحافة، وقد زهد فيهما «شكري» بدرجة إقباله على الثقافةِ العالمية، دراسةِ علم النفس التطبيقي؛ كما تشهد بذلك مقالاته المسلسلة الشائعة في مجلة «المقتطف».

لا نعرف لشاعرنا الرائد ما يمكن أن يُنْعَتَ بالشعر التقليدي، إلا ما نظمه غناء؛ لأن روحه المتحررة كانت ناضجة بارزة حتى في ديوانه الأول، ومن ذلك الشعر الغزلي «الليريكي» قصيدته التي يقول فيها:

جَعلتُ فيكَ على العِلَّاتِ آمالِي لمَّا انْتَزَعْتَ حديثَ اليَأْسِ مِنْ بالي

وقصيدته التي مطلعها:

شَكَوْتُ إليهِ ذِلتِي فَتَحَكما وأَرْسَلْتُ دَمْعِي شَافِعًا فَتَبَرَّمَا

وقصيدته «مناجاة الحبيب» التي استهلها بقوله:

لو أنَّ أَشجانَ الفؤادِ تَطيعُني لنظمتُها لكَ في القريض نسيبا

ولكنه حتى في هذا الديوان الأول ذاته الصادر سنة ألفٍ وتسعمائة وتسع، يَطْلُعُ علينا بفرائدَ ابتداعيةٍ شائقةٍ، ويحمل عَلَمَ الشعر المرسل، وما عدا «عبد القادر المازني» لا نعرف أحدًا من تلاميذ «شكري» احتفظ في الغالب برقته الوجدانية العذبة؛ وقلده

الآخرون في تفكيره ونظراته، وفي الجامد من أساليبه، بل بالغ بعضهم في ذلك حتى تحجر الشعر على يديه، وشاء هذا البعضُ الإغرابَ، فسَفَّ في موضوعاته، ولم يرتفع بشيء من الخيال أو العاطفة أو المعاني أو الموسيقى اللفظية المعبِّرة.

وبماذا تتميَّز مدرسة شكري الذي قال فيه «حافظ إبراهيم» منذ أكثر من أربعين سنة:

أفي العشرينَ تُعْجِزُ كلَّ طوقٍ وتُرْقِصُنا بإحكامِ القوافي؟!
شَهَدْتُ بأَنَّ شِعْرَكَ لا يَجارَى وزَكَيْتُ الشهادةَ باعترافي
لقد بايعتُ قبلَ النَّاسِ (شكري) فمن هذا يكابر بالخلاف؟!

والذي قال في شعره تلميذه عباس محمود العقاد: «إن شعر «شكري» لا ينحدر انحدار السيل في شدةٍ وصخبٍ وانصبابٍ، ولكنه ينبسطُ انبساطَ البحر في عُمق وسَعةٍ وسكون»، أو على الأصح بماذا يتميز «شكري» منذ اندثرت مدرسته في جو من التحاسد والتكالب على الشهرة؟ لقد عُنِيَ «شكري» بالجانب الفكري التأملي، وبتجديد ما خلَّفه أمثال «المعري» و«ابن الرومي» و«ملتون» و«بوب»، وبالمزاوجة بين هذه التأملات الفكرية النفسية، والتأثرات الوجدانية، والانطباعات الصوفية والعاطفية والطبيعية، وقد شجعته وألهمته وَثَبَاتُ «مطران الرومانطيقية» قبل عهده بعقدين، ولكن «شكري» عَبَّ من الأدب الإنجليزي، بدل أن يَعُبَّ من الأدب الفرنسي الذي استهوى «مطران» في صباه قبل أن تستهويه الآداب الأخرى.

كذلك نجد «شكري» الرائد المحلِّق في الشعر المرسل، ونفائسه في هذا المجال فرائدُ باقيةٌ وفخرٌ للشعر العربي؛ ولا تقل عنها عظمة معانيه العميقة المتغلغلة، حتى قال فيه الشاعر «مختار الوكيل» في كتابه «رواد الشعر الحديث في مصر»، ص٤٦:

> أما شاعريته فتحتضن الحياة جميعها، وتصور الوجود بأسره؛ لأنه شاعر عبقري لا يقف دون التعبير عن شعوره حِيَال الكون كله!

هذا شاعر سابق لزمنه، وزعيم مدرسة ماتت لما ابتعدت عن صلته ووحيه المباشر، ولكنه بنى مفاخرَ لن تموت للشعر العربي الحديث، وتركه وما زال يترك أثره في جميع دارسيه، وقد قرأ كثيرًا ولكنه أعطى من نفسه ولم ينظم مطالعاته، فهو نجم أصيل خالد كيفما كانت ألوان ضيائه.

أحمد محرم

يُعَدُّ «أحمد محرم» مدرسة في ذاته، وإن يكن في طليعة الأعلام الذين اقترنوا معًا في زمرة «الكلاسيكيين المعلمين» للجيل الماضي في مصرَ خاصةً، وفي مقدمة أولئك الأقطاب في مصر «حافظ» و«شوقي».

وكان «خليل مطران» شاعر العربية الابتداعي الأول في العصر الحديث، ينعت «أحمد محرم» بشاعر العربية الفحل وأديبها الكبير،[1] ويجري في عروق شاعرنا الدم المصري والتركي معًا، وقد ولد «بالقاهرة» ونشأ من البداية نشأة عربية أزهرية صرفة بفضل ميوله الشخصية، وبفضل عناية والده بتلك الميول، وبرز في الشعر منذ صباه، حتى إنه نال شهادة الامتياز بين «شعراء النيل» من لجنة التحكيم، التي تولت أمر النظر في القصائد المقترحة على كبار الشعراء في عيد جلوس الخديوي، سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وعشر، ونال عدة جوائز في مسابقات شعريةٍ ونثرية أخرى، اقترحتها الصحف والمجلات في فنون شتى من الأدب وموضوعات مختلفة من سياسة الممالك وتربية الأمم، وما تصدى كاتب ولا أديب لتعيين طبقات الشعراء إلا عرف له مكانه وَوَضَعَه في الصف الأول.[2]

ولا يستطيع مَن يتناول «أحمد محرم» الشاعر أن ينسى «أحمد محرم» السياسي؛ كذلك كان شأن «حافظ إبراهيم». ولئن عُدَّ «محرم» مستقلًّا عن الأحزاب السياسية، إلا أنه كان في الواقع ضالعًا عمليًّا مع الحزب الوطني، كما نرى في شعره بل في جميع آثاره الأدبية، وصار الحديث عنه بمنزلة حديث أيضًا عن شاعرَي الحزب الوطني الآخرَين

[1] ديوان «من السماء»، ص٥٧.

[2] مشاهير شعراء العصر لأحمد عبيد، الجزء الأول، ص١١٥.

«أحمد نسيم» و«أحمد الكاشف»، اللذين يُعتبران مشتقين من ألمعيته، كما يعتبر «العقاد» و«المازني» مشتقين من ألمعية «عبد الرحمن شكري».

يقول «ولي الدين يكن»:[٣] «أحمد محرم» في شعره نسيج وحدِه، وهو أقرب الشعراء المعاصرين ديباجة من شعراء العرب، وما زال يعاني ذلك في أول أمره معاناةً حتى ملكه اليوم، وصار مَلكةً في طبعه، وليس في طبع الشعراء طبع أدل من طبعه وطبع «حافظ إبراهيم» على جودة الألفاظ، وكما أن «خليل مطران» فاق النظراء بل فاق كثيرًا من القدماء في معانيه؛ فكذلك «أحمد محرم» و«حافظ» فاقا النظراء بل فاقا كثيرًا من القدماء في ألفاظهما وتراكيبهما، وأقرب وصف في هذا الباب أن يقال: إن خليلًا أبلغ شعراء زماننا، وإن «محرمًا» و«حافظًا» أفصحهم.

بيد أن الشعر ليس مسألة فصاحة ألفاظ؛ ومهما يكن الجرس الموسيقي رائعًا في شعر «محرم»، ومهما تكن فصاحته ناصعة وديباجته مشرقة؛ فليس شيء من هذا بالذي يكفي وحده؛ ليخلق له منزلة فنية، وإنما الذي خلق له تلك المنزلة قبل كل اعتبار آخر حرارةُ عاطفته، وحرارة إيمانه القومي وتذوقه الجمال، وتحليق خياله وذكاؤه الخارق الذي يجعل تأملاته عميقة نافذة. استمعْ إلى أبياته القديمة في «الأمس واليوم والغد».

وَدِدتُ لَـوَ انَّ الـلــهَ أَخَّــرَ مَــدَّتِــي
إلــى أن يَـبـيـدَ الـدَّهْـرُ والـحَـدَثَـانُ
أبــانَ كِـتــابُ الأَمْـسِ والـيَـوْمِ مـا بـهِ
وعـنـدَ غـدٍ مـمَّـا جَـهِـلْـتُ بـيــانُ
فـيـا مَـلْـعَـبَ الـدُّنـيـا أَنُـخْـلِـي مَـكـانَـنـا
ومــا آن مِــنْ دَوْرِ الــخِــتــامِ أوانُ
أخـذنـا مَـكـانَ الـسَّـابـقـيـنَ، وإنَّـنـا
وإيَّــاهُ لـلـمـسـتـأخِـريـنَ مَـكــانُ
فـيـا لـيتَ لـي مِنْ جانبِ القَبْرِ مَنْفَذًا
إلــيـكَ، وإنْ أَغْـنَــى هُـنـالـكَ شَــانُ

---

[٣] المصدر الثاني، ١١٨.

أَتُـطْـبَـقُ لـي عَـيْـنٌ وفـيـكَ مُـحَـدِّقٌ
ويُـخْـفَـتُ لـي صَـوْتٌ وفـيـكَ لـسـانُ؟
عـلـى أنَّـهـا الـدُّنـيـا تَـدورُ صُـرُوفُـهـا
عـلـى الـنَّـاس حـتـى يَـنـتـهـي الـدَّوَرَان
يُـجـدِّدُ قَـوْمٌ ظُـلْـمَ قَـوْمٍ ويَـحْـتَـذِي
مِـثَـالَ زمـانٍ فـي الـصـغَـارِ زَمَـانُ
وما تَنْقَضِي — ما دَبَّ في الأرضِ ناطقٌ —
روايـــة «كـــان الأوَّلـــون وكـــانـــوا»!

فهذه تأملات شاعر مطبوع فلسفي النظرات، متمكن من لغته وموسيقاها الكلاسيكية أيَّ تمكن، وهو القائل في قصيدته «داعي المروءة»:

ثـوَيْـتُ مِـن الـدُّنـيـا بـبـيـداءَ قَـفْـرَةٍ … أَقَامَ الصَّدَى فيها مَعِي وثَوَى المَحْلُ
أُعـيـذُكَ مِـنْ قَـوْمٍ إذا مـا دَعَـوْتَـهـمْ … إلى الخَيْرِ قالوا شاعرٌ مَسَّهُ الخَبْلُ!

وإننا لنجد في ديوانه المطبوع بجزئيه — وقد صدر الثاني في سنة ألف وتسعمائة وعشرين — نفائسَ كثيرةً، وفيما لم يُجمع من شعره نفائسَ أكثر؛ كما نجد له الباهر من الشعر الإيبيقيِّ في «الإلياذة الإسلامية»، ومن النثر الفني الرائع في دراساته الأدبية النقدية، ومن شعره القديم المأثور في السخط على الحاكمين بأمرهم قوله:[٤]

إنَّ الـذي هَـزَّ الـمـمـالـكَ بَـأْسُـه … أَمْـسَـتْ تَـهُـزُّ فُـؤادَه الأشـجـانُ
ثـارتْ عـلـيـه شُـعـوبُـه وهُـمـومُـه … فـتـألَّـبَ الـطُّـوفـانُ والـبـركـانُ
عَـبَـدُوهُ فـوقَ سَـرِيـرِهِ مِـنْ هَـيْـبَـةٍ … حـتـى هَـوَى، فـإذا بِـهِ إنـسـانُ
تَرْضَى الشعوبُ إلى مَدًى، فإذا أَبَتْ … رِضِـي الأبـيُّ وطـاوعَ الـغَـضْـبَـانُ
والـحُـكْـمُ إنْ وزَنَ الـشُّـعـوبَ بـواحـدٍ … غَـبَـنَ الـشُّـعـوبَ وخـانَـه الـمـيـزانُ

[٤] ديوان «محرم» ج٢، ص١٣٩.

في عِصْمةِ الشُّورَى وتَحْتَ ظِلالِها   تُحْمى الممالكُ كلُّها وتُصانُ
المجدُ أجمعُ والجَلالُ لِأُمَّةٍ   صَدَقَتْ عزيمتُها وعزَّ الشانُ
جَمَحَ الأباءُ بها وأذعَنَ غَيْرُها   فالعَيْشُ ذُلٌّ والحياةُ هَوانُ

ومن شعره الإنساني الحر المناصر للسلم «حائيَّته المشهورة» التي يقول فيها[5] قدحًا في الحروب والطغاة:

رَثَت المَذَابحُ لِلدِّماءِ مُرَاقَةً   مِلْءَ البِطَاحِ وما رَثَى الذَّبَّاحُ
يَنْهَلُّ صَيِّبُها فيَثْني عطْفَهُ   مَرِحًا، ويَزْخَرُ سَيْلُها فيُرَاحُ
فاضتْ حواليْه فضُرِّجَ عَرْشُه   منها وخُضِّبَ تاجُه الوضَّاحُ
مَلِكٌ ولا غيرُ الجماجمِ حولَه   سُورٌ، ولا غيرُ الرقابِ سِلَاحُ
بَغَت الملوكُ على الشُّعوبِ وغَرَّها   ممن تَسُوسُ تَجاوُزٌ وسَمَاحُ
الظلْمُ مَفْسَدَةُ النفوسِ وما لَهَا   غيرُ الترفُّقِ في الأمور صَلاحُ
فِيمَ التناحُرُ والخلائقُ إخوةٌ   والعيشُ حَقٌّ للجميعِ مُبَاحُ
والدَّهْرُ سَمْحٌ والحياةُ خصيبةٌ   والرِّزقُ جَمٌّ والبِلادُ فِسَاحُ؟
أنَظلُّ في الدُّنيا يُفَرِّقُ بيننا   بُغْضٌ ويَجمعُنا وَغًى وكِفاحُ؟
ما بالُنا نَشْقَى لِتَنْعَمَ عُصْبَةٌ   مَلَكَتْ، فلا رِفقٌ ولا إسْجَاحُ؟

وفيها يقول عن الحرب وويلاتها:

الحرْبُ هادِمَةُ الشُّعُوبِ، وَإنَّها   لِلشَّرِّ بينَ العالمينَ لِقَاحُ
تخبو وتَقتدحُ الحُقُودُ رمادَها   كالنارِ هاجَ كمينَها المِقداحُ
صَدْعٌ، وإنْ طالَ المَدَى، متفاقِمٌ   ودَمٌ، وإنْ جَفَّ الثَّرى، نَضَّاحُ

---

[5] الجزء الثاني من ديوانه، ص١٨٤.

وليس من السهل الاختيار من هذه القصيدة العامرة الطويلة النفس، ولكن لا نود أن يفوتنا منها الوقوف عند هذه الأبيات الإنسانية:

عَالجتُ أدواءَ الشُّعوبِ وسُسْتُها فـإذا الـدَّواء تَـوَدُّدٌ وصِـفَـاحُ
وبلوتُ أسبابَ الحياةِ وقِسْتُها فـإذا الـتعـاونُ قُـوَّةٌ ونـجـاحُ
مَنْ للممالكِ والشُّعوب بِمَوْئِلٍ تَأْوِي النفوسُ إليهِ والأرواحُ؟
ومَتَى يَرُدُّ الحائرينَ إلى الهُدَى نَـهْـجٌ أَسَـدُّ وكـوكـبٌ لـمَّـاحُ؟
دَجَت العُصُورُ فما يَبِينُ لأهلِها نورُ الحياةِ وما يَحينُ صَباحُ

وشاعرنا المعلم الحكيم المربي لأمته المدافع عن بيضة الإسلام حيث تَمَثَّلَتْ زمنًا في الدولة العثمانية، والذائد في الوقت ذاته عن القومية المصرية، والمتصرف في فنون البلاغة تصرفًا أجَله أمثال «الرافعي» و«عبد المطلب» و«الجارم»، بل تأثروا به كما تأثر به جيل لاحق من أمثال «أحمد رامي» و«علي محمود طه» و«عزيز أباظة»؛ هو هو عينه «الشاعر المستقل الرومانطيقي» المفصح عن شخصيته النبيلة في جميع شعره، شأن الشاعر الحر المطبوع، وقد نوه الشاعر الجهير «حسن كامل الصيرفي»[٦] بعبقرية شاعرنا فقال:

إني لأقرأ البيت من شعر «محرم» فأحس كأن صدى أنغامٍ عذبةٍ تطوف على خاطري في حلمٍ جميلٍ، وإلى جانب هذه الموسيقى التي يتساءل عنها في قصيدته «وجودي» والتي يحس تأثيرها في أنفس قرائه فيقول:

أَمِنْ أدَبي تَبيتُ الطَّيْرُ تبكي؟ فما أدَبي؟ أَشَدْوٌ أم رَنينُ؟

تتجلى تلك الديباجة العالية، وتلك الجزالة السامية التي يقدرها فيه أدباؤنا، ولن أكون إلا محقًّا حين أقول إنه كان يمتاز على المرحوم «حافظ إبراهيم» في الرنين العذب الذي صحب شعره الناضج ولازمه، إلا أن مرض الشرق الذي يُظْمِئُ الفنانَ الموهوب، والالتفات الدائم إلى صوت أو صوتين دون أن يُلتفت إلى بقية الأوتار الجميلة التي تؤلف أنشودة الخلود؛ حَالَا دون

[٦] تصدير نقد ديوان «الشعلة»، ص٥.

التقدير الكافي لشاعرية «أحمد محرم»، ولولا هذا المرض ما سمعنا محرم يشكو حين يحس الحيرة في وجوده، فيقول:

ظَمِئْتُ، وفي فمي الأَدَب المُصَفَّى   وضِعتُ وفي يدي الكنْزُ الثَّمينُ
ظَلَمْتُ أبي ونفسي، إنَّ مِثْلي   لَغَالٍ في النَّوابِغِ لا يَهونُ
كريمٌ تَدْفَعُ الأخلاقُ عنه   ويَمْنَعُ رُكْنَهُ الأدَبُ الحصينُ
أَقُولُ فَيُفْزِعُ الشُّعَرَاءَ صَوْتي   وما أنا في بَنِي وَطَنِي ظنينُ
لربِّي ما عَمِلْتُ، وعندَ قَوْمي   دُيُوني، حِينَ تُلْتَمَسُ الدُّيُونُ!

نعم، عند قومك هذا الدَّيْنُ، وسيوفَّى دينُك، وستظل كما تقول:

أَشُدُّ على الفُنونِ يَدِي، وإنِّي   لفي زَمَنٍ جهالتهُ فُنونُ!

وإني لأرى أمامي مشهدًا لم تضعف ريشة «محرم» في رسمه، ولم ينقصها لون حين صوَّر الحائر، فقال:

وُجُودِي، ما عَرَفْتكَ غيرَ مَعْنًى   تَغَلغَلَ في الخَفَاءِ، فما يَبِينُ
غَرِيقٌ في الظَّلامِ، ولا مَنَاصٌ   ولا جِسْرٌ يُلَاذُ به أمينُ
أُقِيمَ عليهِ سُورٌ مِنْ عُبابٍ   تَضِلُّ على جوانبِهِ السَّفِينُ
أَطِلُّ، ويَضْرِبُ التيَّارُ وَجْهِي   فأين أنا؟ أحُرٌّ أم سجينُ؟

وأضل أنا أيضًا في عالم الإعجاب حين أقرأ له من قصيدته «مِنْ هُمومي»:

بين عينيَّ وما حَوْلَهما   صُحُفٌ مَنشورةٌ للقارئينْ
يَعطِفُ السَّطْرُ على السَّطر كما   يَعطفُ الباكي على الباكي الحزينْ!

هذا ما كتبه شاعر وجداني رمزي كبير عن الأستاذ «أحمد محرم»، في سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثين، وما سر إعجابه به إلا ما انتظمه شعره من عناصر الجمال المعنوي واللفظي، وصدق التعبير، والأصالة وإشراق الشخصية، وتميُّز ذلك الشعر

بالمواءمة العجيبة، ما بين الأسلوب المدرسي الخالص الناصع، والمعاني الوجدانية والصور الرومانطيقية الممثلة لروح العصر، في حين أن شاعرنا في ثقافته عربي قُحٌّ.

تقرأ هذا في مثل قصيدته «قوة وضعف»[٧] التي يقول فيها:

قُوَّتي ضَعْفٌ، وضَعْفِي قُوَّةٌ   فاخْشَعِي يا نَفْسُ أو طيري هَبَاءَ
يَسْقُطُ الصَّخْرُ ويَمضِي صُعُدا   ساقِط التُّرْبِ، فَيَحْتلُّ السَّماءَ!

وفي مثل قصيدته «تحية أبوللو»[٨] التي يقول فيها:

سَكَبُوا الشِّعْرَ على أَلْسِنَةٍ   ذابَ مَعْنَى الحُسْنِ فيها فانْسَكَبْ!

ويقول:

كُنْتِ مَعْنَى، والأَماني لُجَّةٌ   ما طَفَا في خاطرٍ إلَّا رَسَبْ
تَعْجَزُ القدْرَةُ أن تَلْفظَهُ   فهو سِرٌّ حائرٌ في كلِّ قَلْبْ
نَبَّهَتْهُ هِمَّةٌ نافذةٌ   حين أَغْفَى، فَتَلَوَّى واضطرَبْ
وأهابَتْ، فاسْتَوَى مستوفِزًا   فاستحثَّتْهُ، فأوْفَى واشرأب
ورآها تَتَلَظَّى، فارْتَمَى   لُجَّةً تَطْغَى، ونارًا تَلْتَهِبْ!

وفي مثل قصيدته الشهيرة «ليتني»[٩] المعدودة من عيون الشعر العصري وفيها يقول:

ليتني الدَّهْرُ الذي جَرَّبْتُهُ   فَعَذَرْتُ الناسَ مِمَّنْ جَرَّبا
حاكمٌ أعمى الهَوَى لو كنتُه   لجعلتُ الحكمَ أَهْدَى مَذْهَبَا

[٧] مجلة «أبوللو»، م١، ص١٩.
[٨] مجلة «أبوللو»، م١، ص٨٧.
[٩] مجلة «أبوللو»، م٢، ١٤.

مُظْلِمُ الأعماقِ ما مِنْ كوكبٍ   جـالَ فـي أثـنـائِـهِ إلَّا خَـبَـا

إن «أحمد محرم» بنظمه ونثره، عاطفة وتصويرًا ونقدًا، لَثروةٌ غالية للأدب العربي الحديث جديرة بأن تُدْرَسَ من جميع جوانبها، وبأن يُنَوَّهَ بنفائسها تَنْويهًا أجَل في أقطار الضاد جميعها، ولعل «وزارة التربية والتعليم العربية» تقوم مشكورة بإخراج ديوانه الكامل وإلياذته الإسلامية، كما صنعت من قبل بنشرها ديوان «حافظ إبراهيم»، فإن مآثر «أحمد محرم» الأدبية والقومية لا تقل شأنًا عن مآثر «حافظ»، وإنها لفخر أكيد للعروبة ولأبناء الضاد جميعًا.

أبو القاسم الشابي

١

أَلَا أيُّـهَـا الـظـالـمُ الـمُـسْـتَـبِّـدُّ حـبـيـبَ الـفَـنـاءِ، عـدوَ الـحـيـاهْ
سَـخِـرْتَ بأنَّـاتِ شَعْـبٍ ضعيفٍ وكـفـكَ مـخـضـوبـةٌ مـن دِمـاهْ
وعِـشْـتَ تدنِّسُ سِـحْـرَ الـوُجـودِ وتَـبذرُ شـوك الأسَـى فـي رُبـاهْ

* * *

رُوَيْـدَكَ، لا يَـخْـدَعَـنْـكَ الـربـيـعُ وَصَحْوُ الفَضَاءِ وَضَوْءُ الصَّباحْ
ففي الأفُقِ الرَّحْبِ هولُ الظَّلام وقَصْفُ الرُّعُودِ، وعَصْفُ الرِّيَاحْ
ولا تَـهْـزَأَنَّ بِـنَـوْحِ الـضَّـعـيـفِ فمن يَبْذُر الشوكَ يَجْنِ الْجرَاحْ

* * *

تَـأَمَّـلْ! هُـنَـالِـكَ، أنـى حَـصَـدْتَ رُءُوسَ الـوَرَى، وزُهُـورَ الأمَـلْ
وَرَوَّيْـتَ بـالـدَّمِ قَـلْـبَ الـتُّـرَابِ وأشـربـتَـه الـدمـعَ حَـتَّـى ثَـمِـلْ
سَـيَـجْـرِفُـكَ الـسَّـيْـلُ سَـيْـلُ الـدِّمـاءِ ويـأكُـلـكَ الـعـاصِـفُ الـمشـتـعِـلْ!

كنت أتلو من جديد هذه الأبيات لصديقي العبقري، فقيد الأدب، الشاعر التونسي «أبي القاسم الشابي»، فوجدت لها مذاقًا في جو الحرية الأمريكية، يفوق في أثره ما

أحسسته عند تلاوتها، منذ قرابة عشرين عامًا،[1] عند اطلاعي الأول عليها، قبل نشرِها في مجلة «أبوللو»، وقد عنونها «إلى طغاة العالم»!

وساقني تداعي الخواطر إلى ترديدها في إعجاب، وأنا أستمع إلى «صوت أمريكا» يردد في السادس من «نيسان» سنة ألفٍ وتسعمائةٍ واثنين وخمسين:

> صرح أمس أحد كبار موظفي وزارة الخارجية الأمريكية — وهو الدكتور «هاري هوارد»، المستشار في شئون الأمم المتحدة، بمكتب الوزارة المختص بالشرق الأدنى وجنوبي آسيا وأفريقيا — صرح بأن سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ترمي إلى مساعدة شعوبه على الاحتفاظ باستقلالها، وسلامة أراضيها، وبحياتها آمنة ضمن أسرة الأمم الحرة …

إن «لأبي القاسم الشابي» روائع كثيرة ظفرت «جمعية أبوللو» ومجلتها التي عنيت قبل سواها بإبراز فنه، ظفرت بالقسط الأوفر منها، وإنه لتصعب المفاضلة بين قصائده هذه؛ فجميعها يتسم بالجمال الفني الأنيق بكامل عناصره … أنؤثر قصيدته «صلوات في هيكل الحب»[2] التي يقول في مطلعها:

> عَذْبَةٌ أنتِ، كالطُّفولةِ، كالأحلام، كاللحنِ، كالصَّباحِ الجديدِ
> كالسَّماءِ الضحوكِ، كالليلةِ القمراءِ، كالوردِ، كابتسامِ الوليدِ
> يَا لها مِنْ وداعةٍ وجمالٍ وشبابٍ منعمٍ أُملود!
> يا لها مِنْ طهارةٍ تبعث التقديسَ في مُهْجةِ الشَّقِيِّ العَنيدِ!

وكلها على هذا النسق من الاندماج في الطبيعة، ومن الارتفاع بالحسيات إلى المعنويات القريبة والبعيدة.

[1] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، مايو سنة ١٩٣٤، ص٨١٠.

[2] مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، أبريل سنة ١٩٣٣، ص٨٤٨.

أم نؤثر قصيدته الفلسفية الواقعية «السعادة»[3] التي يقول منها:

ترجو السعادةَ يا قلبي، ولو وُجِدَتْ في الكونِ لم يَشْتَعِلْ حُزْنٌ ولا أَلَمُ
ولا استحالتْ حياةُ الناسِ أَجمعُها وزُلْزِلَتْ هاتِهِ الأكوانُ والنُّظُمُ
خُذِ الحياةَ كما جاءتكَ مبتسمًا فِي كَفِّها الغارُ أو في كفها العَدَمُ
وارقُصْ على الوردِ والأشواكِ متَّئدًا غَنَّتْ لك الطيرُ أو غَنَّتْ لك الرُّجُمُ!

أم نؤثر قصيدته «الأشواق التائهة»،[4] وقد جمعت بين ألوان من اليأس واحتقار الوجود والتصوف؛ إذ يقول:

يا صميمَ الحياةِ! كما أنا في الدُّنيا غريبٌ! أَشْقَى بِغُرْبَةِ نَفْسِي
بين قومٍ لا يَفهمونَ أناشيدَ فؤادي، ولا مَعانيَ بؤسي
في وُجودٍ مكبَّلٍ بقيودٍ تائهٍ في ظلامِ شكٍّ ونَحْسِ
فاحتضنِّي، وضُمَّني لكَ بالماضي، فهذا الوجُودُ عِلَّةُ يأسي!

أم نؤثر قصيدته «الجنة الضائعة»،[5] التي يذكر فيها عهد الطفولة، ويعرضه عرضًا فنيًّا بديعًا بصوره الفاتنة المنوَّعة، ثم يختمها بهذه الحُرقة:

قد كنتُ في زَمَنِ الطُّفُولَةِ والسذَاجَةِ والطُّهُورْ
أحيا كما تحيا البلابلُ والجداولُ والزُهورْ
لا تَحْفِلُ الدُّنيا، تَدورُ بأهلِها أو لا تَدُورْ
واليومَ أحيا مُرْهَقَ الأعصابِ مشبوبَ الشُّعُورْ
مُتأجِّجَ الإحساسِ، أَحْفِلُ بالعظيمِ وبالحقيرْ
تَمْشي على قلبي الحياةُ، ويَزْحَفُ الكونُ الكبيرْ
هذا مَصيري، يا بَني الدنيا، فما أَشْقَى المَصيرْ!

[3] مجلة «أبوللو»، المجلد الأول أبريل سنة ١٩٣٣، ص٨٦٨.

[4] مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، مايو سنة ١٩٣٣، ص١٠٢١.

[5] مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، مايو سنة ١٩٣٣، ص١٠٢٢.

أم نؤثر قصيدته «الأبد الصغير»[٦] المفعمة بالتأملات الفلسفية الوجدانية، وبها يخاطب دنيا قلبه:

يا قلبُ كم فيكَ مِنْ دُنْيا محجَّبةٍ كأنها حينَ يبدو فَجْرُها (إرَمُ)!
يا قلبُ كم فيكَ مِنْ كونٍ، قد اتَّقَدَتْ فيه الشُّموسُ وعاشتْ فوقهُ الأَمَمُ!
يا قلبُ كم فيك مِنْ أُفْق تُنَمقهُ كواكبٌ تَتَجلَّى، ثم تَنْعَدِمُ!
يا قلبُ كم فيكَ مِنْ قبر، قد انطفأتْ فيه الحياةُ، وضجَّت تحته الرِّممُ!
يا قلبُ كم فيكَ مِنْ غاب ومِنْ جَبَلٍ تَدْوِي به الريحُ أو تَسمُو به القِمَمُ!
يا قلبُ كم فيكَ مِنْ كَهْفٍ قد انبجَسَتْ منه الجداولُ تجْرِي ما لها لُجُمُ!
تَمْشِي، فتحملُ غصنًا مُزْهِرًا نَضِرًا أو وردةً لم تشَوِّهْ حُسْنَها قَدَمُ
أو نحلةً جَرَّها التيارُ مُنْدَفِعًا إلى البحارِ تغنِّي فوقَها الدِّيَمُ
أو طائرًا ساحرًا مَيْتًا قد انفجرتْ في مُقلتيْهِ جِراحٌ جَمَّةٌ ودَمُ
يا قلبُ إنك كونٌ مُدهِشٌ عجَبٌ! إنْ تسأَل الناس عن آفاقهِ يَجِمُوا
كأنك الأَبَدُ المجهولُ قد عَجَزَتْ عنك النُّهَى، واكفهرَّتْ حولك الظُّلَمُ!

أم نؤثر قصيدته «المستسلم»[٧] التي يسخط فيها على دنايا الناس، ويترفع عن محاربتهم:

قد تركت الناسَ غرقى في جِلادٍ وكِفاحْ
سئمتْ نفسي دناياهم وألقيتُ السِّلاحْ!

أم نؤثر قصيدته الفلسفية المتشككة الحائرة «في ظل وادي الموت»، التي يتشوق في ختامها إلى تجربة العدم:

ثمَّ ماذا؟ هذا أنا: صِرْتُ في الدُّنيا بعيدًا عن لهوها وغِناهَا

---

[٦] مجلة «أبوللو»، المجلد الأول، يونيو سنة ١٩٣٣، ص١١٤٦.

[٧] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، سبتمبر سنة ١٩٣٣، ص١٨.

في ظَلام الفناءِ أَدْفِنُ أيَّامي، ولا أستطيعُ حتّى بُكاها
وزهُورُ الحياةِ تَهوى بِصَمْتٍ مُحْزِن مُضْجرٍ على قَدَميَّا
جَفَّ سِحْرُ الحياةِ يا قلبيَ الباكي فَهَيَّا نُجَرِّبِ الموتَ، هيَّا!

أم نؤثر قصيدته الوجدانية الغِرِّيدة «الصباح الجديد»،[8] التي تغنت بها مواكبُ عديدةٌ ولا تزالُ:

اسكتي يا جراحْ واسكني يا شُجونْ
ماتَ عهْدُ النواحْ وزمانُ الجنونْ
وأَطَلَّ الصَّبَاحْ من وراء القُرونْ

أم نؤثر «ألحانه السكرى»[9] العذبة العَبِقَة التي يقول في ختامها:

أيُّها الدهرُ! أيُّها الزمنُ الجاري إلى غيرِ وُجْهَةٍ وقرارِ!
أيُّها الكونُ! أيُّها الفلكُ الدوَّار
بالفجْرِ والدُّجَى والنَّهارِ!
أيُّها الموتُ! أيها القَدَرُ الأعْمَى! قِفُوا حيث أنتمو أو فَسِيروا
ودَعُونا هُنا: تُغنِّي لنا الأحلامُ والحُبُّ والوجودُ الكبيرُ
وإذا ما أَبَيْتُمو فاحمِلُونَا ولهيبُ الغرامِ في شَفَتَينَا
وزُهورُ الحياةِ تَعْبَقُ بالعِطْرِ، وبالسِّحرِ، والصِّبَا في يَدَيْنَا!

أم نؤثر قصيدته الواقعية المريرة «الناس»[10] التي تُشْجِي منها زفرته:

ما قَدَّسَ المَثَلَ الأعْلَى وجَمَّلهُ في أَعْيُنِ النَّاسِ إلَّا أنَّه حُلُم!

[8] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، يناير سنة ١٩٣٤، ص٣٨٨.
[9] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، يناير سنة ١٩٣٤، ص٣٩٠.
[10] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، فبراير سنة ١٩٣٤، ص٤٨١.

ولو مَشَى فيهمو حَيًّا لحطَّمه قومٌ، وقالوا بخُبْثٍ إنَّه صَمَمُ
لا يَعبدُ الناسُ إلا كلَّ منعدمٍ ممنَّع، ولمن حاباهُمو العَدَمُ
حتَّى العباقرةُ الأفذاذُ حَيُّهمو يَلْقَى الشقاءَ، وتَلْقَى مَجْدَها الرِّمَمُ
الناسُ لا ينصفون الحيَّ بينهمو حتى إذا ما توارَى عنهمو نَدِمُوا
الويلُ للناس مِنْ أهوائِهم أبدًا يَمْشِي الزمانْ وريح الشرِّ تَحتدمُ

أم نؤثر قصيدته «من أغاني الرعاة»[11] التي جاءت من وحي استشفائه، وكل بيت من أبياتها صور شعرية متألقة بجمال الطبيعة، التي كانت تحضنه وترعاه في مرضه، بين جبال وأودية وغابات، وفيها يخاطب خِرافَه وشِياهَه بأعذب الألحان.

أم نؤثر قصيدته المتفائلة «الإيمان بالحياة»[12] وإن كانت عليها مسحة الرثاء لوالده.

أم نؤثر قصيدته الشامخة «نشيد الجبَّار أو هكذا غنى بروميثيوس» التي يرد فيها على حساده الشانئين، ويقول عن نفسه بعد مماته:

فأنا السعيدُ بأنني متحولٌ عن عالم الآثام والبغضاءِ
لأذوبَ في فجرِ الجمالِ السَّرْمَدِ يِّ وأرتوي مِنْ مَنهل الأضواء

أم نؤثر قصائده التأملية العاطفية أمثال «الرواية الغربية» و«أيتها الحالمة بين العواصف» و«صوت من السماء»[13] وكلها آيات من الرقة الحساسة، والرومانطيقية الجميلة الساحرة؟!

إن ما نؤثره هو إنسانيات هذا الشاعر المحلق، الذي لم تعقه أحلامه عن النزول إلى ميدان المجتمع، والسير في موكب البشرية، عازفًا مشجعًا هاديًا مهيبًا بالصاغرين:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياةَ فلا بدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ
ولا بُدَّ لِلَّيْلِ أن يَنجلي ولا بُدَّ للقيدِ أن يَنكسِرْ

[11] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، مارس سنة ١٩٣٤، ص٦٠٨.

[12] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، مايو سنة ١٩٣٤، ص٨٤٧.

[13] مجلة «أبوللو»، المجلد الثاني، فبراير سنة ١٩٣٤، ٤٨١.

* * *

إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ   رَكبْتُ المُنَى ونسيتُ الحَذَرْ
ولم أتَجنَّبْ وُعُورَ الشبابِ   ولا هَبَّةَ اللَّهَبِ المُسْتَعِرْ
ومَنْ لم يُحِبَّ صعودَ الجبال   يَعِشْ أَبدَ الدهر بين الحُفَرْ!

ولم تزل قصائدُه الموجهة إلى الشعب ترانيمَ سماويةً خالدةً، وإن سكن جثمانُه القبرَ!

٢

و«الأشواق التائهة» أحلام عُلوية مجنحة، لا تعرف القرار، يحدوها أَلَقٌ ساحر، ثم تستوعبه، وتفتِّش عن عوالمَ تُرضيها، حتى إذا ما بلغتها لم تقنع بها، وراحت تبدع عوالمَ جديدةً لها، ثم لم تكتف بما أبدعته، بل أخذت روحُها الخلاقة تواصل الإبداع متممة أو ناسخة. تلك هي «الأشواق التائهة» للشاعر الخالد «أبي القاسم الشابي» الذي ولد من النور، ورضع منه، وتغنى به في هيكل الحب، صلواتٍ روحانيةً تفيض بالجمال الإلهيِّ.

ولئن لم يُعَمَّرْ في هذا الوجود فكذلك عُمرُ النور؛ لمحة من الأبد، وهو هو الأبد الذي لا أول له ولا آخر. يصفه المولعون العابدون ولا ينتهون، ولا يشبعون، وصفًا وتعريفًا. فلا عجب إذا تعددت الدراسات الشعرية لعبقرية «الشابي»، ومنها مجموعة الأديب التونسي الأستاذ «أبي القاسم محمد كِرُّو»، ومجموعة الأديب الحجازي الأستاذ «محمد العامر الرُّميح».

إنها لعبقرية فذة توحي بتأملات لا حصر لها، فتتولد من هذه التأملات أطياف وألوان جميلة لا يغني أحدها عن الآخر. كذلك شأننا نحن، فكلما درسنا شعر «الشابي» ودوَّنا خواطرنا فيه؛ ساقنا التأمل إلى الجديد من الخواطر والشواعر، وتفرعت عن نشوتنا نشوةٌ أخرى!

إن شعر «الشابي» هو شعر العبقرية والتفوق؛ فله قُدسية نورانية يصعب تعريفها، وسواء لدينا فجرها أو شروقها؛ لأنها على اختلاف منازلها تتألق بالجمال وتنم عن رسالة سامية، لو لم يقلها شعرًا لتألقت في وجهه نورًا كما تألق النور في وجه «عيسى بن مريم»!

هذا الصبي الصغير الذي لم يبلغ العشرين، يحس في باكورة عمره إحساس النبي فيقول:

شعري نفاثةُ قلبي إنْ جاشَ فيه شُعوري
لولاهُ ما انجابَ عنِّي غيمُ الحياةِ الخطيرِ
لا أنظمُ الشعرَ أرجو بـه رضـاءَ الأمـيـرِ
بِـمـدحـةٍ أو رثـاءٍ تُهْدَى لِرَبِّ السريرِ
حَسْبي إذا قلتُ شعرًا أن يَرتضيهِ ضميري

* * *

لا أقرضُ الشِّعْرَ أَبْغِي بـه اقـتـنـاصَ نَـوَالِ
الشِّعْرُ إنْ لم يكن في جَـمَـالِـهِ ذا جَـلال
فـإنـمـا هـو طـيـفٌ يَسْعَى بوادي الضَّلالِ
يَقضِي الحياةَ طريدًا فـي ذِلَّـةٍ، واعـتـزال!

لسنا ممن يسوغ بأي حال وضع النقد الموضوعي موضعًا ثانويًّا بحيث نُرضخ الحكم على الطاقة الشعرية، إلى ما عداها من الاعتبارات، في تقدير القيمة الفنية للشعر، ولسنا ممن يذهبون مذهب التشريح والتفلية، الذي يتناسى وحدة القصيد، ولسنا ممن يبخسون أي فنان قدره؛ لمجرد أنه ذو شخصية طالحة، لا تستحق الاحترام، ولسنا ممن يتعصب لشاعر ما؛ لأنه يعبر عن فلسفتنا وعواطفنا تعبيرًا أكمل، متغافلين عن قيمة الجوهر الذي يُهديه وعن كفايته الفنية الخالصة، ولسنا من عباد التعابير البراقة، والبيان المزخرف الأخاذ، ومع ذلك لا ننكر أن الفن إذا امتزج بالتسامي في سبيكة واحدة، وأن الطاقة الشعرية المحلقة إذا تشربت الإيمان الرفيع تَشَرُّبًا لا يفصم منها، وأن الفن إذا صار لسان النبوة وترجمان التسامي أو توءمه، فإن مثل هذا الفن المركب الرفيع؛ يكون في اعتبارنا جديرًا باعتبار أسمى، وهذه نظرة تختلف جد الاختلاف عن إرضاخ كرامة الفن أو تقديره للأهواء الذاتية، والتعصبات الشخصية، والمسائل والاعتبارات العرضية.

وأبو القاسم الشابي هو أحد أولئك الأفذاذ العالميِّي الروح، الذين لم يبهروا النقد الموضوعي فحسب، من ناحية الطاقة الفنية القوية الغنية، بل بهروا كذلك مقاييس المثالية الرفيعة من خلقية ووطنية وإنسانية، وكانت معجزتهم في الازدواج بين هذه المزايا، وفي الانسجام التام بينها، وهذا قلما يكون إلا للصفوة الموهوبين.

فهذا «أبو القاسم الشابي» الشاعر الوطني، الثائر الرائد في «تونس الجميلة» و«زئير العاصفة» منذ صباه، هو ذاته الشاعر الإنساني في «لعلعة الحق» و«الحرب»، والشاعر الوجداني في «فن الظلام» و«الزنبقة الذابلة» و«الدموع» و«أغنية الأحزان» والشاعر المتفلسف في «نظرة الحياة» و«مأتم القلب» و«الأمل والقنوط»، والمصلح الاجتماعي أيضًا، وهو كذلك الشاعر المتصوف، والعاشق المتبتل في «شكوى اليتيم» و«أيها الليل» و«أيها الحب» و«حيرة» و«جدول الحب» و«يا شعر!» وكل هذا التراث الثمين، من شعر فتى لم يبلغ العشرين.

أما بعد هذه السن فإننا نواجه «الشابي» ذاته، ولكن في نَفَسٍ أطولَ، ونضوجٍ أبلغَ، وتحليلٍ أعمقَ، وتفاعلٍ أكملَ، وتصويرٍ أشملَ، استمع مثلًا إلى قوله من قصيدته «مناجاة»:

أنتَ يا شعرُ فلذةٌ مِنْ فؤادي ... تَتَغَنَّى، وقطعةٌ من وجودي
فيكَ ما في جوانحي مِن حنينٍ ... أبَديٍّ إلى صميم الوُجودِ
فيكَ ما في خواطري مِنْ بلاءٍ ... فيكَ ما في عواطفي من نشيدِ
فيكَ ما في عوالمي مِنْ ظلامٍ ... سرمديٍّ ومن صباح وليدِ
فيكَ ما في عوالمي مِنْ نُجومٍ ... ضاحكاتٍ خَلفَ الغمامِ الشَّرُودِ
فيكَ ما في عوالمي مِنْ ضبابٍ ... وسرابٍ ويَقْظَةٍ وَهُجُودِ

إلى آخر هذه الأبيات التي تبلغ الستة والثلاثين عدًّا، والتي تتلاحق فيها الصور تلاحقًا فنيًّا سريعًا؛ لا نعرف شاعرًا آخر أغرم به، ووفق إليه بهذه الدرجة المدهشة.

لقد اكتنفتْ حياةَ «الشابي» همومٌ عديدة، ولاقى من عنت الناس وجحودهم — حيًّا وميتًا — الشيء الكثير، ومات والأدب أحوج ما يكون لألمعيته، وصاح والداء يُنْشِبُ أظفارَه فيه:

سأعيشُ رغمَ الدَّاءِ والأعداءِ ... كالنَّسرِ فوقَ القمةِ الشَّماءِ
أرنو إلى الشمس المضيئةِ هازئًا ... بالسُّحْب والأمطارِ والأنواءِ
لا ألمحُ الظِّلَّ الكئيبَ ولا أَرى ... ما في قرارِ الهوَّةِ السَّوداءِ
وأسيرُ في دُنيا المشاعرِ حالمًا ... غَرِدًا، وتلك طبيعةُ الشُّعراءِ

أَشْدُو بموسيقى الحياةِ ووحيها وأُذيبُ رُوحَ الكونِ في إنشائي
وأُصيخُ للصوتِ الإلهيِّ الذي يُحْيي بقلبي مَيِّتَ الأصداءِ
وأقولُ للقدرِ الذي لا يَنثني عن حربِ آمالي بكلِّ بلاءِ
«لا يُطفِئُ اللهَبَ المؤجَّجَ في دمي مَوْجُ الأسى وعواصفُ الأرزاءِ
فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ، فإنَّه سيكون مثلَ الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ
لا يَعرفُ الشكوى الذَّليلةَ والبُكا وضراعةَ الأطفالِ والضُّعفاءِ
ويعيش كالجبَّار يرنو دائمًا للفجر، للفجرِ الجميلِ النَّائي
واملأْ طريقي بالمخاوف والدُّجَى وزوابع الأشواك والحصباءِ
وانشرْ عليه الرُّعْبَ وانثرْ فوقَه رُجُمَ الرَّدَى وصواعِقَ البأساءِ
سأظلُّ أمشِي رغمَ ذلك، عازفًا قيثارتي، مترنمًا بغنائي
أَمْشِي بِرُوحٍ حالمٍ، متوهِّجٍ في ظُلمةِ الآلامِ والأدواءِ
النُّورُ في قلبي وبينَ جوانحي فعلامَ أخشَى السَّيْرَ في الظَّلْماءِ؟
إني أنا النايُ الذي لا تنتهي أنغامُه ما دام في الأحياء
وأنا الخِضَمُّ الرَّحبُ، ليس تزيدُه إلَّا حياةً سَطْوةُ الأنْواء»

إلى آخر هذه القصيدة العجيبة، ولكنها ليست بأعجبَ من بقية شعره، الذي يتجلى فيه جميعًا حبُّ الاستغراق في المعاني، والتحليق بالأخيلة، والمثاليات النبيلة، والتأنق الموسيقي في الألفاظ؛ وكل ذلك عن طبيعة سمحة مصقولة، رضعت من أفاويق اللغة، ومن البيان العربي المصفى؛ منذ طفولتها، وفي طليعتها القرآن الشريف بكامله.

إن كل قصيدة من قصائد الشابي — طالت أم قصرت — صورة مكبرة أو مصغرة لهذه المزايا الفنية. وهو، قبل هذا وبعده، المؤمن بالحياة إيمانَه بالجمال والحرية، والساخط على طغاة العالم، والمصلي في هيكل الحب، والمناجي الطبيعةَ دون ملل، والمتفائل دائمًا، واللهفان على وطنه أو جنته الضائعة، وأخيرًا المعانقُ الموتَ، في غير وجل، عناقَ الفيلسوف الفنان، الذي ينشد التجربة والعلم؛ حتى تجربة الموت!

لقد كانت حياة «الشابي» سلسلة متلاحقة من النكبات والمآسي، في حبه وفي أسرته، وفي وطنه؛ كما كان حساسًا إزاء نكبات الإنسانية عامة، فرثى لسقطاتها، وبكى لها؛ كأنما كان يبكي قومه، وأهاب لتنهض وتقوى وتنقى، وعشرات القصائد، التي أتحفنا بها في فترة من حياته، لم تتجاوزْ ست سنوات، هي تَرْجُمَان صادق لأحاسيسه الشريفة،

وذخيرة متميزة في التراث الأدبي المعاصر، ومبعث قوة خارقة لأدب الانبعاث القومي، في العالم العربي لا في «تونس» فحسب؛ فثورته على الطغيان والمتجبرين، وعلى الرجعية المقيتة، وعلى جميع القيود التي ترسف فيها البشرية هي شعلة متأججة هادية، ولو لم يكن فن «الشابي» قويًّا بجميع عناصره، أصيلًا محلقًا؛ لما اكتسبت رسالته القوة التي خلعتها عليها مواهبه النادرة، فالتعبير الغث قد يكون عبئًا على الفكرة، فيهوى بها بدل أن ينهض ولو كانت طبيعتها السمو، وهذا ما لا يفوت الناقد الموضوعي، المستوعب، أي الذي لا يحصر أفق تأمله ونقده.

لم يغرد «الشابي» سوى ست سنواتٍ، قيل بعدها إنه مات. وأما هو فقد قال سلفًا:

سأعيشُ رغمَ الداءِ والأعداءِ كالنَّسْرِ فوقَ القمةِ الشمَّاءِ

قيل إن النقد الفني يجب أن يحصر همه في الطاقة الشعرية وحدها، وكثيرًا ما دافعنا نحن عن حقها في التقدير، ومع ذلك فقد لا تتجاوز الطاقة الشعرية الضائعة طيش النيازك أو عبث الصواريخ! أما «الشابي» فقد أبى أن تحمل طاقته الشعرية الخارقة، سوى الحقائق الأزلية الخالدة، أبى ذلك بطبعه، وبتزاوج الوعي مع اللاوعي في نفسه، تزاوجًا غير مفتعل، فخلدت رسالتُه في فنه وخلد فنه في رسالته، ولم يستطع أحد من آلاف المنتشين برحيقه أن يفرق بين الطعم والجوهر؛ فهو وحدة شاملة، تأبى على الناقد التحليل، وتهبُ النشوة والإلهام لصائدي النغم والخيال، ولصائدي المثالية الحية على السواء:

أيُّها الشعبُ! ليتني كنتُ حَطَّا بًا، فأَهوي على الجُذوع بفأسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سا لتْ تهدُّ القبور رمسًا برمْسِ
ليتني كنتُ كالرياح فأطوي كل ما يخنق الزهور بنحس
ليتني كنتُ كالشِّتَاءِ أغَشِّي كلَّ ما أذبلَ الخريفَ بِقَرْسِ
ليت لي قوةَ العواصف يا شَعـْ ـبي فأُلقي إليكَ ثورةَ نَفْسي
ليت لي قوةَ الأعاصير إنْ ضَجـَّ ـتْ فأدعوكَ للحياةِ بِنَبْسي
ليت لي قوةَ الأعاصير، لكنْ أنتَ حَيٌّ يقْضِي الحياةَ بِرَمْسِ!

ويقسو على شعبه، ولكنها قسوة المحب المبصِّر، وما كان يأسه أو استسلامه إلا عارضًا زائلًا، يحفزه إلى همةٍ جديدةٍ:

ها أنا ذاهبٌ إلى الغابِ يا شَعْبـ ـبي لِأَقْضِي الحياةَ وحدي بيأسِ
ها أنا ذاهبٌ إلى الغابِ عَلِّي في صميمِ الغاباتِ أَدفنُ نفسي
ثم أنساكَ ما استطعتُ فَما أنْـ ـتَ بأهلٍ لِخَمْرَتِي ولِكَأْسِي
سوفَ أَتْلُو على الطُّيور أناشيـ ـدِي وأُفْضِي لَهَا بأَحْزَانِ نفْسِي
فهي تدري معنى الحياة، وتَدْري أنَّ مجدَ النفوسِ يقظةُ حِسِّ!

خدم الشابي الأدب والعرب والإنسانية بحياته وموته على السواء، ودفع وحده الثمن غاليًا لذلك، وبعد أن كانت مهمتنا جد شاقة في الربع الأول من هذا القرن؛ سعيًا للتنويه بأدب الشباب؛ صار المثل الأعلى الذي ضربه «الشابي» بشعره يحفز النقاد والمجلات الآن إلى الاهتمام بأشعار شعراء الشباب — وما أكثرهم — في هذه الفترة، وإذا كان الشباب كالربيع رمز الحياة المتجددة، فهو أول من يطالب بإذاعة أدب «الشابي» في هذا الشعر المتجدد الحي.

٣

وأبو القاسم الشابي: «حياته وشعره»، كتاب ممتاز لأديب ممتاز عن شاعر ممتاز. ألفه أحد نوابغ الأدباء التونسيين السيد «أبو القاسم محمد كِرُّو» من خريجي دار المعلمين العالية ببغداد، ومن الشباب الناهض الواعي الوطني الغيور الذي درس وساح وفكر، ثم بدأ يزكي عن معرفته لأبناء الضاد جميعًا، فأتحفنا بنخب من شعره المنثور، في كتابه «كفاح وحب»، ثم نفح العربية بدراسة ممتعة لحياة «أبو القاسم الشابي» وشعره، سيُتبعها بدراسةٍ أضخمَ.

وتقع هذه الدراسةُ التي نحن بصددها، في كتاب ينتظم ثماني وثلاثين ومائتي صفحة، من القَطْع المتوسط مطبوعة طبعًا أنيقًا، ومزدانة بصور ملونة جميلة، للقصائد البديعة التي أثبتها أو على الأصح لأهمها بريشة الفنان «ع. شهال»، وقد عُنِيَتْ بإخراجها في صورة جذابة «المكتبة العلمية» ومطبعتها، في «بيروت».

وما كان الأستاذ «كرو» ولا شاعرنا العبقري «أبو القاسم الشابي»، بحاجة إلى شيء من البهرج والتزويق، ومع ذلك فإنه يبهجنا أن نرى الطبع الأنيق، والشعر الأنيق، والرسم الأنيق؛ في مثل هذه الوحدة الجميلة الخلابة.

وبروح المعلم، وأسلوب الأديب الشاعر المعلم يُحْسِنُ الأستاذ «كرو» في تقسيمه الكتابَ وفي عرضه مواده، فيتحدث بعد مقدمته البليغة، عن الحياة الثقافية في «تونس» القديمة، ثم عن النهضة الحاضرة، فعن حياة الشاعر وبيئته الاجتماعية، وعن تأثُّره بالأدب المهجري، وعن طاقته التصويرية والتعبيرية، ثم عن زواجه وحبه وعن مؤلفاته، ثم يأتينا بمختارات شائقة من شعره فيقسمها قسمين:

أولهما: ما يرجع إلى ما قبل العشرين.

وثانيهما: ما يرجع إلى ما بعد العشرين من سني الشاعر حتى وفاته، ثم يختم كتابه بنماذجَ رائعةٍ من نثر الفقيد ومعظمه بمنزلة شعر منثور.

وليس بوسعنا في هذه الإلمامة أن نتناولَ تفاصيلَ ما عرضه المؤلف الفاضل؛ تمهيدًا للكلام عن ألمعية «الشابي»، ولكن بحسبنا أن نشير إلى أن هذا النابغة ظهر — ككثير من النوابغ — في وسط متأخر بحكم الظروف السياسية والاجتماعية المعروفة، فلم يتجاوب ذلك الوسط معه، ولكنه ارتفع فوق الوسط كما ترتفع المنارة، فلا تحس بها الأرض التي تحتها، ولكنها تشع إلى مسافات بعيدة.

وفي بداية الكتاب اهتم المؤلف بالتنبيه إلى أن صحة اسم شاعرنا هي «الشَّابِّيُّ» لا «الشَّابِي»؛ نسبة إلى الشابِّيَّة إحدى ضواحي مدينة «توزر» كبرى بلاد «الجريد» بالجنوب التونسي، وهذا غير مجهول في الشرق العربي الذي يميل أهله عادة إلى تخفيف النطق بالأسماء — ولا سيما في مصر — ومن ثمة نطقوا اسم شاعرنا المحلق بالباء المخففة والياء الممدودة، وجاراهم الخاصة في هذا النطق، وإن لم يجهلوا الوضع الأصليَّ لاسمه.

وقد أُعجبنا بتحليله للعناصر التي أسهمت في تكييف حياة الشاعر، وأغلبها مزيج من الأحزان والحرمان، ويا لها من عناصرَ أثيمةٍ تألَّبَتْ على كثيرين من الموهوبين فصهرتهم صهرًا، وضحَّتْ بهم؛ لتغنم نورَهم الوهَّاجَ المنبعثَ من احتراقهم!

وبين الخيوط التي حاكها الأستاذ «كرو» في نسج سيرة «الشابي» بيئة الطبيعة الجميلة التي حفت بالشاعر، ودراسته الواسعة، التي انتهت بتخرجه في كلية الحقوق التونسية في سنة ١٩٣٠م، وهو في الحادية والعشرين، ونكبته بوفاة والده عائل الأسرة،

وفشله في زواجه، ومرضه الطويل المؤلم إلى أن توفي في الثامن من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٤م غيرَ متجاوزٍ خمسةً وعشرين عامًا؛ إذ ولد مع الربيع في آذار من سنة ١٩٠٩م.

يقول المؤلف الكريم في رسالةٍ أدبيةٍ إلينا بتاريخ الخامس من مايو سنة ١٩٥٣، جاءتنا إثرَ تسلُّمنا كتابه الممتع:

> يسرني أن تتفضلوا بإبداء رأيكم … خصوصًا أن لكم صداقة شخصية قديمة بالفقيد «الشابي»، ويعود لكم الفضل الأول في تعريف القراء بأدبه منذ عشرين سنة مضت، وحتى اليوم، وأنتم تكتبون عنه في مناسبات مختلفة دراساتٍ عميقةً قويةً، ومع ذلك فإن أدب «الشابي» لا يزال بحاجةٍ كبيرةٍ إلى البحث والكتابة والدرس، وكم كان مؤسفًا حقًّا موقف أهله بعد موته، ورغم مرور ثمانية عشر عامًا على وفاته فإنهم لا يزالون مصرِّينَ — في عناد الحمقى والجهلة — على عدم نشره! لا لسبب سوى عقلية محنَّطة وأفهام متحجرة، وهكذا لم أجد مناصًا من العمل، بكل ما لدي من جهود وإمكانيات، على خدمة هذا الفقيد المنكوب في حياته وبعد موته …
>
> لقد كان أهلُه سببَ موتِه المادي، وها هم أولاء اليوم يتآمرون على قتله المعنوي، فيرفضون في عناد نشر مؤلفاته وديوانه المعد للطبع رغمَ كل العروض المغرية التي عُرِضَتْ عليهم، وقد كان الفقيد أعده للطبع واتفق معكم — حسبما أظن — على طبعه في مصر، ثم عاجله الموت قبل أن يرسل إليكم الديوان بيوم واحد. هذه حقائق لست أدري إذا كان لكم علم سابق بها أم لا.
>
> وقد رأيت — كأحد مواطني «الشابي» — أن أنشر عنه كل ما هو عندي من أدبه ومعلومات حياته؛ خدمة له وللأدب العربي الذي يعتز بالشابي، فكان أول عمل قمت به هو نشر كتابٍ يشمل دراسة طويلةٍ لحياة الفقيد وبيئته ومؤلفاته، ثم عرْض نماذج مختارةٍ من شعره ونثره؛ لتكون لدى القراء صورة كاملة عنه، ولست أدري مدى نجاحي في عملي هذا، ولكني أعلم مدى إخلاصي فيه وحبي للشابي. على أنني سوف لا أقف عند هذا، بل إنني سأواصل العمل على إنجاز كتاب ضخم عن «الشابي» يكون أكبر مرجع لحياته وأدبه، وأنا الآن بصدد إعداد هذا الكتاب الذي يحتاج إلى زمن طويل؛ كي ينجز على أكمل وجه مستطاع، وإنني أُرَحِّبُ سلفًا بكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم وتوجيهاتكم، ويسرُّني كلَّ السرورِ أن ألقى منكم كلَّ اهتمامٍ وعناية ومعونة! …

وإننا لنبادر فنقول: إن العمل المجيد الذي قام به الأستاذ «كرو» هو في حد ذاته خدمة جليلة لذكرى «الشابي» وأدبه، ونحن على علم بما ذكره، وقد كانت رغبة الفقيد العزيز أن نكتب مقدمة دراسية تحليلية لديوانه، وأن تتولى إصداره في مصر «جمعية أبوللو» التي كان في طليعة أعضائها المراسلين، وأن وصيته لم تُنَفَّذْ! ... لقد تَجَمَّعَتْ لدينا رسائلُ كثيرةٌ من الفقيد العزيز، تُعَدُّ بأسلوبها العالي وبصراحتها الوجدانية من عيون الأدب الفكري والعاطفي معًا، ولكنها، مع مئات الرسائل الأدبية من أدباءَ وشعراءَ أعلامٍ شرقًا وغربًا — وبينهم شعراء وأدباء بارزون في المهاجر — قد ضاعت تحت وطأة العهد البائد في مصر قبل هجرتنا وبعدها، وكنا نؤثر ضياع بقية مكتبتنا المخزونة على أن تنال الأيدي المتطاولة المتجسسة ذلك الأدب الحي والتاريخ الأدبي المعاصر الذي سُلِبَ منا، وقد جاء ضياعُ تلك الرسائل القيمة التي تجمعت لدينا منذ سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٤٦م، من أقسى المآسي الأدبية المتعددة التي نُكبنا بها في حياتنا المضطربة.

أمَّا وهذا المصدر الهام لدراسة نفسية «الشابي» ليس تحت أيدينا فليس لنا إلا أن نشاطر الأستاذ «كرو» الأمل في أن أصدقاء الفقيد العزيز، وفي مقدمتهم الأديب الموهوب الأستاذ «محمد الحليوي»، وشقيق الفقيد الأستاذ «محمد الأمين الشابي»؛ سيتمكنون أخيرًا من إنقاذ الآثار الباقية للشاعر الفقيد، من أيدي أسرته، ونشرها للعالم العربي، ولعالم المستشرقين، ودارسي الأدب المقارن، ففي ذلك تشريف للأسرة بالذات وتشريف لأبناء الضاد جميعًا.

وبعد؛ فقد رأينا الأستاذ «كرو» يتحدث عن تأثر «الشابي» بالأدب المهجري، وعندنا أنه لم يتأثر به أي تأثرٍ خاص، ولو جاء شطر أو بيت له في صياغته الكلاسيكية — مع اختلاف المعاني — مماثلًا لصياغة «جبران» أو سواه، مثلما تقع الحافر على الحافر؛ كما يقال.

لقد كانت للشابي ذاكرة «فوتوغرافية»، وهو الذي أتم حفظ القرآن الشريف في التاسعة من عمره حِفظًا كاملًا، كما كان له اطِّلاع واسع — عن طريق اللغة العربية التي لم يكن يعرف سواها — على آداب شتى مترجمة، لا على الأدب العربي وحده، وكانت له قبل كل هذا وبعده لوذعية أصيلة حلَّقت فوق كل تقليد وتأثُّر حتى منذ نعومة أظفاره، وعلى ذلك لنا أن نعتقدَ أن أيَّة مشابهة بين شعره، وبين بعض الشعراء المهجريين، هي من باب المصادفة لا أكثر. ولعل أعظم تجاوب للشابي كان مع زملائه شعراء «أبوللو» حتى قبل ظهور مدرستها! ونحن شخصيًّا أُولعنا بالشابي لا لعبقريته الفنية فحسب،

بل لإنسانيته الرفيعة ولوطنيته السامية أيضًا. وكان التجاوب بيننا تامًّا مع تميُّزه هو بأناقةٍ لا نعرف لها نظيرًا إلا في قصائد الشاعر الفحل العظيم «بشارة الخوري»، مثال ذلك موسيقى «الشابي» في قصيدته الخالدة «صلوات في هيكل الحب» التي يقول في مطلعها:

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام، كاللحن، كالصباح الجديد!

فهي متجاوبة مع قصيدة «عُرْس المأتم» التي كان يعجب بها «الشابي» ديوان «زينب»، وقد جاء في مطلعها غير المسبوق إلى طرازه:

عَذْبَةٌ أنت في الخفاءِ وفي الجَهْر وفي الهَجْرِ، يا أغاني الظلام!
بلِّغي العاشقَ الأمينَ مَدَى العمرِ شقاءً لقلبهِ المستهامِ!
وارقئي أَدْمُعي؛ فحسبي عزاءً أن يُسَرَّ الحبيبُ من إيلامي!

ومثال آخر قصيدته العظيمة «إرادة الحياة»، فإنه متجاوب في مغزاها مع الشطر الأخير من قصيدة «النهضة إرادة» ديوان «الشفق الباكي»، وقصيدته الجميلة «الصباح الجديد» التي يقول في مطلعها:

اسكتي يا جراحْ واسكني يا شجونْ!

فهو متجاوب فيها بطراز موسيقاها مع قصيدتين رائدتين هما «قصيدة الوداع»، «قطرة من يراع، الجزء الثاني» وقد جاء في مطلعها:

انْتَهِبْ يا شُعاعْ نَبْضَ قَلْبي الحزينْ
حان وقتُ الوداعْ ليتَه لا يَحينْ
انتهبْ يا شعاعْ أنا ذاك القريبْ
إن روحي مُشاعْ في مداك العجيب!

وقصيدة «بعد الصيف» ديوان «أشعة وظلال» التي جاء في مطلعها:

اضحكي يا رِمَالْ مِنْ هَديرِ المِياهْ
غابَ مُلْكُ الخَيالْ وتَـجَـلَّـى سِـوَاهْ
ذاك بَحْرُ الدُّموعْ مِنْ بكاءِ الزَّمانْ
فهْو دَوْمًا مَرُوعْ مِـنْ مَـآلِ الـهوانْ
كلُّ حُسْنٍ بَناهْ بـيـديْـهِ يَـزولْ
ومِـــرارًا رَثَـــاهْ وأطـالَ الـعـويـلْ
اضحكي يا رِمَالْ مِنْ فُتوني العظيمْ
أنـا عبدُ الـجَمالْ الضَّريرُ الحكيمْ!

وكان «الشابي» كما كان «ناجي» — رحمة الله عليهما — معجبًا بكلتا القصيدتين، وكلاهما نَسَجَ على منوالهما، فإذا أراد الأستاذ «كرو» التوسع في مبلغ تجاوب «الشابي» مع شعراء عصره، فليتجه إلى الشرق قبل اتجاهه إلى الغرب.

ومهما يكن من شيء فإننا نؤمن بأن «الشابي» كان ذا عبقرية فنية أصيلة في منتهى الأناقة، كما كان وطنيًّا عظيم الإخلاص متأهبًا للزعامة في بيئته، وفي هذا يختلف عن «ناجي» الذي اقتصر جلُّ شعرِه على وجدانياته الذاتية، وغنائياته العاطفية، ولم يسهم في الحركة الوطنية.

وكان هذا من أسباب ولوعنا بالشابي الذي يوصف إجمالًا بأنه الفنان المبدع المحلِّق، والإنساني النبيل والوطني الغيور المضحي، وقد حقق بمثاليته الشريفة تأميلنا في أن يكون الشاعرُ زعيمًا هاديًا بين بني قومه، إن لم يكن أيضًا زعيمًا إنسانيًّا، وفي هذه النزعة والتعبير عنها كان تجاوب «الشابي» معنا كاملًا، وكنا نعمل كجنود في فرقة واحدة.

أما ما نقترحه إلى جانب استقصاء التفاصيل للدراسة، فهو شرح شعر «الشابي» ونقده نقدًا فنيًّا مقارنًا قصيدة فقصيدة، فتنتج عن ذلك دائرة معارف أدبية لغوية فنية واسعة يخدم بها الأدب الحديث؛ كما تنصف به مواهب شاعرنا الخالد الذكر.

إننا لمشغوفون فخورون بتدريس شعر الشابي وأدبه وبالتحدث عن سيرته الزكية ولن نمل ذلك، ونعتقد أن قراء العربية لن يملوا من قراءة ما كتب وما سيكتب عنه، ولو

تعددت التراجم والدراسات. ونعتقد أن كتاب الأستاذ «كرو» هو من خيرة الدراسات التي قرأناها عن أي شاعر أو أديب، فإليه نكرر التهنئة كما نُزْجِيها إلى الناشرين المحسنين.

محمد مهدي الجواهري

ليس من الميسور في كل جيل أن نظفر بشاعر مستوعب لروح قومه، أو مهتم بالمثل الإنسانية العليا اهتمامًا يستحوذ على مشاعره، فتذوب عناصر فنه في هذا الشعور، ويخرج من الآثار الفنية الرفيعة ما تتبلور فيها عواطفه وتفكيره وأمانيه وأحلامه وأخيلته، في وحدة منسجمة جذابة.

أجل، ليست مثل هذه الظاهرة ميسورة في كل جيل، وإن جاز أن ينبغ شعراء، لا شاعر فحسب، في جيل بعينه نبوغًا مجردًا يعتمد على طاقتهم الفنية لذاتها لا غير، في حين قد يتدلى أو ينحدر شعرهم، فلا تكون له أية قيمةٍ سوى قيمةِ الألق الباهر، الذي يعجب به أو يتسلى الناظرون، أو الخمرِ التي يلهو بها الشاربون!

وبين أولئك الأفذاذ الشاعر العراقي الجهير محمد مهدي الجواهري الذي حافظ للوطنية العراقية على مكانةٍ رفيعةٍ في الشعر العصري، بعد أن حُرِمَتْ علميها الشامخين «الرَّصافي» «والزَّهَّاوي»، كما أسهم بشعره القيم في الدفاع عن حقوق الإنسان وكرامته قبل أن يشغل بنفسه أو بتوافِه الوجود. وتألُّقُ نجمه في سماء العالم العربي يتفق واليقظة الشاملة، بل اليقظة القومية عامة في أقطار العروبة؛ كما أن صدور ديوانه بجزأيه يتفق وظهور نفحات شعرية أخرى رائعة، من بلاد الرافدَين، بله ظهور آثار المجمع العلمي العراقي، التي تنم عن نضوج فكري عظيم. يضم الجزآن من هذا الديوان ستًّا وخمسين قصيدة، من عيون الشعر العالي، وقد أهداه الجواهري «إلى مَنِ اختاروا عامدين مُصِرِّين صامدين طريق الحرية والنور والخلاص، إلى من تحملوا متحفزين آلامهم وحرمانهم في هذا السبيل، إلى ضحايا الجور والحقد والانتقام، إلى من كانوا يقدرون، لو أرادوا أن لا يكونوا كذلك».

والديوان محلًّى في جزأيه بطائفة من الصور الفنية، وله مقدمة وجدانية مؤثرة نسجها في أسلوب قصصي، وجاءت بمنزلة ترجمة لسيرته الفكرية والعاطفية، وهي ناطقة بروح الحرية والشمم، شارحة لتطوره الذهني والنفساني.

يميل شاعرنا إلى النظم المطول، ولكنه لا يُسِفُّ، وفي الثلاثين والأربعمائة صفحة التي تحتوي على مئات الأبيات من شعره الحي نجد شواهدَ لا حصر لها، على الشاعرية المتوقدة، وعلى المثالية الرفيعة، وعلى الديباجة الجزلة الفريدة في صياغتها الكلاسيكية الفخمة، حينما هي في الوقت ذاته تعلن أنها خادمة وحيه، وليست بالمسيطرة التي يحتمي وراءها النظامون السطحيون، لو أن لهم بلوغَ شَأْوِها، ومع ذلك فما يزال للجواهري شعر كثير لم يدوَّن بعدُ.

ويستوقف انتباهنا رثاؤه لشاعر النيل «محمد حافظ إبراهيم»، فالشبه في الروح الوطنية الإصلاحية بين الشاعرين عظيم، وقد عاش كلاهما لشعره وفي شعره، واحتمل ألوان الحرمان في سبيل إخلاصه، وإن كان لكل منهما ظروفه وبيئته التي كيفت إلى درجة محسوسة أسلوبه وتفكيره وتفاعله معها، وقد كان «حافظ» يميل إلى النصوع البياني مع شيء من الجزالة وإلى التبسط غالبًا، وهو الذي ينسجم والذوق المصري في زمنه.

أما الجواهري فديباجته متناهية في الجزالة القوية التي تلائم الذوق العراقي من ناحيةٍ، وتنسجم وشخصيته الثائرة من ناحية أخرى، وكلا الشاعرين ذو طاقة شعرية محترمة، ولكن طاقة «الجواهري» أعظم من طاقة «حافظ» وتفكيره أوسع، وكلاهما موسيقيُّ الطبع، ولكن موسيقى «حافظ» أسلس، وكلاهما راق في انفعالاته؛ لأننا لا نعد من الانفعالات الهابطة الأوصاف القصصية التي نجدها في مثل ملحمة «أفروديت»، «للجواهري».

وكلا الشاعرين يحترم المذهب الواقعي، ولكننا نجد المذهب الفني ذا سلطان أعظم على «الجواهري»، ونجد «الابتداعية» بل والرمزية تبتسمان في أسلوبه الكلاسيكي لمن يتجاهلهما في شعره، وكلا الشاعرين ينظم غالبًا في مناسبات خاصةٍ أو عامةٍ، ولكنه ارتفع غالبًا فوق حدود المناسبات.

وحينما يؤرخ لزعامة الشعر الإصلاحية في أقطار العروبة، ستكون للشاعر الحر، الصادق الوطنية والإنسانية «محمد مهدي الجواهري» مكانةٌ خالدة من الإكبار، فوق كل إعزاز لقيه من الأقطار العربية التي حل فيها!

وبعد، فما من قصيدة لهذا الشاعر الفحل إلا وهي مشرقة بأطياف وألوان فنية عديدة، وما من قصيدة له إلا وهي برهان دامغ على أن الشاعر المطبوع القدير المتضلع من لغته، لا يخضع للقافية ولا للفظ، بل إنها طَوْعُ قلمه طواعية اللازب[1] لأنامل المثَّال، وما من قصيدةٍ له إلا وهي صاحبة رسالة لجميع الأحرار، ودليل على أن الشاعر القمين بهذا الوصف حريٌّ — إذا شاء — أن يكون زعيمًا ملهِمًا لبني قومه ولبني الإنسان.

ومنذ يستهل «الجواهري» ديوانه بقصيدته البديعة «حنين» الجامعة بين «الرمزية» و«الابتداعية» لا يترك القارئ من خميلةٍ إلا إلى خميلةٍ. استمعْ إلى هذا الوصف الرائع:

أَحِـنُّ إلـى شَـبَـح يَـلْـمَـحُ	بـعـيـنـيَّ أطـيـافُـه تَـمْـرَحُ
أَرَى الشَّمْسَ تُشْرِقُ مِنْ وَجْهِه	ومـا بـيـنَ أثـوابـِهِ تَـجْـنَـحُ
رَضِيَّ السِّماتِ، كأَنَّ الضميرَ	عـلـى وَجْـهِـه أَلِـقًـا يَـطْـفـحُ
كـأنَّ الـعَـبـيـرَ بـأردانِـه	عـلـى كلِّ «خـاطـرةٍ» يَـنْـفَـحُ
كأنَّ بـريقَ الـمُـنـى والـهَـنَـا	بـعـينـيْه عن كوكبٍ يَـقْـدَحُ
كأنَّ غـديـرًا فُـوَيْـقَ الـجـبيـ	ـن عن ثِقَةٍ في «غدٍ» يَنْضَحُ
كأنَّ الـغُـضُـونَ على وَجْـنَـتَـيْـهِ	يُـكَـنَّ بـهـا نَـغَـمٌ مُـفْـرِحُ

وهذه القوة الوصفية؛ كالمقدرة اللغوية البيانية إلى جانب العاطفة الجياشة، مِن ألزم خصائص شعره، ولكن لننظر في أيسر شعره الذي يريد أن يخاطب به الجمهور ولو بأسلوب غير مباشر، وهذا مثال منه، في نصرة العدل والمساواة والحرية:

ألا قُـوَّةٌ تَـسـطـيـعُ دَفْـعَ الـمـظـالِـم	وإنعـاشَ مـخـلـوقٍ على الـذُّلِّ نـائمِ؟
أَلَا أَعْيُنٌ تُلْقِـي على الشعبِ هاويًا	إلـى حَـمْـأَةِ الإدقـاعِ نـظـرةَ راحـمِ؟
وهل ما يُرَجِّي المصلِحون يَرَوْنَهُ	مـواجَـهـةً أم تـلـك أضـغـاثُ حـالِـمِ؟
إذا رُمْـتُ أوصـافًـا تَـلـيـقُ بـحـالـةٍ	تَـعَـرَّفْـتُـها ضاقتْ بُطُونُ المَعَاجمِ
هِيَ الأَرْضُ لَم يخْصُصْ لها اللهُ مالكًا	يُـصَـرِّفُـهـا مُـسـتـهـتـرًا فـي الـجـرائـمِ

[1] اللازب: الطين الذي يستعمله المثَّال.

ولـم يَبْغِ منـهـا أَن يكون نِتـاجُـهـا شـقـاوةَ مـظـلـومٍ ونِـعـمـةَ ظـالـمِ!

وفي الديوان من الشعر الوجداني الجميل نماذجُ جَمَّةٌ، وكذلك من شعر الطبيعة كقصائده «دجلة في الخريف»، و«يافا الجميلة» و«الأصيل على دجلة»، وفيه من استيحاء التراث العربي ومن الأماني القومية نفائس ستحيا على الزمن. «والجواهري» في أصالة فنه وفي تفانيه بمبادئه الشاملة الرفيعة هو من أولئك القلائل الجديرين بأن يُدْرَسُوا دراسة جامعة في كتاب بل كتب، وممن لا يجوز أن تحدد نسبتهم بقطرٍ معين، ولو كان مسقط رأسهم.

نزار القباني

شاعر الغزل الفني الحسي

«نِزار القبَّاني» ليس شاعرًا من شعراء الشباب الموهوبين في سوريا فحسب، بل أصبح يعد من أقطاب الغزل الفني الحسي في العالم العربي ولما يبلغْ نهاية العقد الثالث من عمره. وليس هذا بعجيب، فهو من أسرة اشتهرت بالأدب والفن كما اشتهرت بالوطنية، وحسبنا أن نشير إلى جده الفنان «أبي خليل القباني» أول من حمل لواء التمثيل المسرحي من بلاد الشام إلى وادي النيل، ومن هناك انعكست أضواء المسرح على سائر الأقطار العربية، كما نشير إلى والده «توفيق القباني» الوطني الغيور الذي اعتقل عدة مراتٍ ونفي إلى قلعة «تَدْمُر» إبان الاحتلال الفرنسي، وكانت دار القباني في «دمشق» مركزًا مهوبًا من مراكز الكتلة الوطنية!

وهكذا ورث نزار الملكة الفنية، كما أن نشأته في ذلك الوسط الوطني العريق أضافت إلى تعلقه بالشعر والأدب والموسيقى والتصوير منذ صباه؛ تعلُّقَه بوطنه وخدمته في المجال السياسي، وقد هيأه لذلك نيله درجة «أستاذ في الحقوق» من الجامعة السورية بدمشق فتدرج في خدمة وزارة الخارجية السورية.

وعلى الرغم من هذه الظروف المواتية، وعلى الرغم من شاعريته المبكرة التي دفعته إلى نظم ملحمةٍ شعرية سماها «دنيا الحروب» خلال دراسته الثانوية، وقد نالت تقريظًا في وقتها، لم يُعْنَ «نزار» حتى الآن بترجمة وطنيته ولا إنسانيته شعرًا، وإنما اقتصر على

استلهام «الأنوثة» حسيًّا ومعنويًّا في تعابيرَ منوعةٍ: بعضها مكشوف وبعضها رمزي، وقد تجلت بها جميعًا الأناقة والرشاقة والتغني الموسيقي الخفيف الخاطف.

أصدر شاعرنا ديوانه الأول «قالت لي السمراء» عام ألف وتسعمائة وخمسةٍ وأربعين، ثم مجموعته الشعرية «ساميا» عام ألف وتسعمائة وتسعٍ وأربعين، بعد ديوانه الثاني «طفولة نهد» الذي سبقها بعامٍ، وأخيرًا طالعنا بديوانه الثالث الموسوم «أنتِ لي»، وفي جميع ما اطلعنا عليه من شعره نجد الشاعرية الممتازة، بأخيلتها الوثابة ورمزيتها المبتدعة، وموسيقاها الهفهافة الساحرة، ونجد كل هذه الخصائص الرشيقة مندمجة في معاني الأنوثة اندماجًا خلابًا عجيبًا.

ومهما تكن نزعات شاعرنا في سِنِّه الحاضرة فلا ريب عندنا في أن وطنيته وإنسانيته ووطنية أسرته المأثورة الموروثة ستتجلى في شعره مستقبلًا عندما تزيده التجارب والسن نضوجًا. أما شعره الحاضر فليس مع ذلك بالجمال المجرد، فإن تغنيه بجمال المرأة — وإن تدلى أحيانًا — هو توجيه بديع إلى نبعٍ طبيعي قد يصدف عنه في البيئات المتأخرة، بحكم العزلة والحجاب، وإن تغنيه بجمال الطبيعة في ألوانها وصورها المنوعة لثروة فنية ممتازة!

يقول شاعرنا في تصدير ديوانه الجميل «طفولة نهد» الذي يمثل في كل صفحة من صفحاته وفي مظهره آيات من الرشاقة النفوس الساحرة:

> إن الشعر هو كهربة جميلة لا تعمر طويلًا، تكون النفس خلالها بجميع عناصرها من عاطفة، وخيال، وذاكرة، مسربلة بالموسيقى. ومتى اكتست الهنيهة النفسية ريش النَّغَم، كان الشعر؛ فهو بتعبير موجز النفسُ الملحَّنة. لا تعرف هذه الهنيهة الشاعرة موسمًا ولا موعدًا مضروبًا فكأنها فوق المواسم والمواعيد، وأنا لا أعرف مهنةً يجهل صاحبها ماهيتها أكثر من هذه المهنة التي تغزل النار، والذي أقرره أن الشعر يصنع نفسه بنفسه وينسج ثوبه بيديه وراء ستائر النفس، حتى إذا تمت له أسباب الوجود واكتسى رداء النغم، ارتجف أحرفًا تلهث على الورق.

ويقول أيضًا:

> الشعر يحيط بالوجود كله، وينطلق في كل الاتجاهات فترسم ريشته المليحَ والقبيحَ، وتتبادل المترف والمبتذل، والرفيع والوضيع. ويخطئ الذين يظنون

أنه خط صاعد، دائمًا؛ لأن الدعوة إلى الفضيلة ليست مهمة الفن بل مهمة الأديان وعلم الأخلاق، وأنا أومن بجمال القبح ولذة الألم وطهارة الإثم، وهي كلها أشياء صحيحة في نظر الفنان. تصوير مخدعِ مومسٍ وارد في منطق الفن ومعقول، وهو من أسخى موضوعات الفن وأغزرها ألوانًا. أما المومس من حيث كونها إناء من الإثم وخطأ من أخطاء المجتمع، فهذا موضوع آخر تعالجه المذاهب الاجتماعية وعلم الأخلاق.

وواضح أن شاعرنا متأثر في كل هذا بفلسفة «كروتشي» الفنية بحسية «بودلير».

وبين ملاحظاته في تصديره الرائع قوله: «مهمة القصيدة كمهمة الفراشة، هذه تضع على فم الزهر دفعة واحدة جميع ما جنته من عطر ورحيق متنقلة بين الجبل والحقل والسياج، وتلك — أي القصيدة — تفرغ في قلب القارئ شحنة من الطاقة الروحية تحتوي على جميع أجزاء النفس وتنتظم الحياة كلها.»

ولكنه يعود فيناقض نفسه قائلًا إن الشعر «زينة وتحفة باذخة فحسب، كآنية الورد التي تستريح على منضدتي لست أرجو منها أكثر من صحبة الأناقة وصداقة العطر»! وشاعرنا حر في مذهبه وإن لم يَثْبُتْ عليه تعريفًا، ونرجو أن يتحول عنه عمليًّا في مستقبله؛ لأن من الخسارة للإنسانية أن تُقْصَرَ هذه الموهبةُ الفنية على ثغور وأثداء وما إليها.

إننا لنتفق مع شاعرنا في الكثير من ملاحظاته، ولا نبيح مطالبة أي شاعر بغير ما يُطبع عليه، ولكننا نُهدي أعظم تحية وأوفر إجلال — كما فعلت الإنسانية على كر الأجيال — إلى الشاعر الذي تذوب عناصره الفنية الأصيلة الصادقة دون تصنعٍ في مثاليته الإنسانية السامية.

وهو جد محسن حين يقول: «أريد أن يكون الفن ملكًا لكل الناس، كالهواء وكالماء وكغناء العصافير. يجب ألا يحرم منها أحد. إذن يجب أن نعمم الفن؛ أن نجعله بعيد الشمول، ومتى كان لنا ذلك استطعنا أن نجذب الجماهير المتهالكة على الشوك والطين والمادة الفارغة إلى عالمٍ أسواره النجوم وأرضه مفروشة بالبريق ... متى جذبنا الجماهير إلى قمتنا نبذوا أنانيتهم، وتخلوا عن شهوة الدم، وخلعوا أثواب رذائلهم؛ وهكذا يغمر السلام الأرض وينبعث الريحان مكان الشوك. إنني أحلم بالمدينة الشاعرة؛ لتكون إلى جانب مدينة الفارابي الفاضلة، وحينئذ فقط يكتشف الإنسان نفسه ويعرف الله.»

وكل هذا حلم جميل، ولكنه أبعد ما يكون عن التسامي بالإنسانية، والمدينةُ «الشاعرة» التي يتغنى شاعرنا بها نثرًا لا وجود لها في شعره، وإنما فيه رمزية شائقة وأخيلة رائعة وأوصاف باهرة وموسيقى خلابة، ولكنها في مجموعها لا تسوق أحدًا إلى القمة التي يشير إليها وقد تسوقه إلى الهاوية!

أجل، إن المثالية الحميدة التي يمجدها في تصديره المشار إليه قد نجدها في شعر «تاجور» الإنساني، ولكننا لا نجدها في شعر «نزار القباني» الحسي، ومن أهون نماذجه قوله:

خِـــلْـــتُ لـــمَّـــا
سَـلّـمَـتْـه الـوَسَـطـا
كَـبِـدَيْـن اخـتـلَـطَـا
حِـــيــنَ ضُـــمَّـــا
فـــي ضُـــلـــوعِـــهْ
غرَّزَتْ سِكِّينَ فِضَّه
نَبْضُها أصبحَ نَبْضَه
مِـــنْ وُلـــوعِـــهْ
مِـــنْ يَـــمـــيـــنِـــهْ
تَــخِــذَتْ زُنــارَهَــا
وأراقـــتْ نـــارَهَـــا
فـــي جُـــفـــونـــهْ
لَا مَـــــــفَـــــــرُّ
ليس تَسطيعُ خُلوصَا
أكلَ النَّهْدُ القميصَا
فـــهـــو جَـــمْـــرُ!

يقول شاعرنا: «... وفي سبيل هذه الفلسفة، فلسفة الغناء العفوي، حاولت فيما كتبت أن أرد قلبي إلى طفولته، وأتخير ألفاظًا مبسطة، مهموسة الرنين، وأختار من أوزان الشعر ألطفها على الأذن، وإن القارئ ليحس أن الكلام الذي أهمس له به يعرفه ويردده كأنه هو الذي يغني، فإذا أحس القارئ بأن قلبي صار مكان قلبه، وانتفض

بين أضلعه هو، وأنه يعرفه قبل أن يعرفني، وأنني صرت فَمًا له وحنجرة، فلقد أدركت غايتي وحققت حلمي الأبيض، وهو أن أجعل الشعر يقوم في كل منزل إلى جانب الخبز والماء.»

وعلى الرغم من اعترافنا بأن الأناقة الفنية في شعر نزار ممتازة امتياز طاقته الشعرية وأصالته، فإننا نعجز عن تصور شيوع شعره في كل بيت ما دامت صلته بالحياة التي نحياها، بله التي نتسامى إليها، محدودة. وإذ نراه ينتقد الشعر الاجتماعي وشعر الرثاء ونحوهما؛ نرى من المفيد أن نختتم هذا الحديث على سبيل المقابلة ودعمًا لوجهة نظرنا بمقتطفات من قصيدة «جبل النار» لشاعرٍ سوري آخر أنيق هو «عمر أبو ريشة»، التي نظمها رثاءً للوطني الفلسطيني «سعيد العاص» الذي استشهد سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين:

أَشْبَعَتْهُ الأجيالُ خَتْلًا فأَغْفَى   تحتَ هَزْجِ الأعراسِ والأفراحِ
حين مَوْجاتُه تَمُوجُ على الكوْ   نِ بِعَرْفِ النُّبوَّةِ الفَوَّاحِ
وتَرِفُّ الحياةُ فيهِ على وطـ   ـآتِ عَيْشٍ في جيئةٍ ورَوَاحِ
نَفْحَةٌ لِلنَّعِيم مَرَّتْ وأَبْقَتْ   ما يُبَقِّي السِّكِّيرُ في الأقداحِ
فإذا الأَعْصُرُ الخَوالي مَطَافٌ   لِخيالاتِ شاعرٍ صَدَّاحِ
وإذا الطَّرْفُ ليس يَعْثُر إلَّا   بقيودٍ مغموسةٍ بجراحِ
ورقابٍ مَحنيَّةٍ تَتَشَظَّى   تحتَ شفراتِ مِنْجَلِ السَّفَاحِ!

ثم يصف البطل بقوله:

وكأني أراكَ فِي زَحْمَةِ الهَوْلِ على سَرْجِ ضامرٍ طَوَّاح
وحَوَالَيْكَ مِنْ فخارِ الميادينِ كِبَاشٌ مُعَدةٌ للنِّطَاحِ
وأخوكَ الجَسورُ في القِممَ السُّودِ مُطِلٌّ على الرَّوابي الفِساحِ
لَوَّحَتْ كَفُّهُ بِمنديلِهِ الأَسْوَدِ شَوْقًا إلى اللِّقاءِ المُتاحِ
فَحَسِبْتُ الأجيالَ تَهْتِفُ: يا «خالد»! جاهدْ في فَيْلَق «الجرَّاحِ»

* * *

فاقتحمتَ الرَّدى، وكنتَ مع الصيدِ فَرَاشًا على فَمِ المِصْبَاحِ!

مثل هذا الشعر الإنساني القومي الذي يهز النفوس العربية هو الذي يمكن أن يعيش في كل بيت عربي، وليس نظيره بعزيز على شاعرنا الموهوب «نزار القباني» دون أن يتخلى عن خصائص شاعريته الأساسية؛ إذ كل ما عليه أن يتسامى بالشهوة في شعره؛ كما تسامى بعض شعراء الغزل، وأن يجعل منه قربانًا لمثلٍ أعلى.

إبراهيم العريض

الشاعر المطبوع هو وحده في نظرنا الجديد بصفة «الشاعرية»، ولكنه مع ذلك ليس بالقادر في كل وقت — وربما في أغلب الأوقات — على التجاوب مع دوافع الوجدان وعوامل الحياة تجاوبًا يستثير كوامن نفسه وتضطرم له وتثور فتنبثق عنها تلك الفورة التي نسميها «الشعر»، وإن لم يكن من الحتم أن يفيض صاخبًا فوَّارًا، بعد أن جاشت به نفس صاحبه؛ فقد يسيل هينًا منبسطًا حلوًا رقراقًا تنام على همسه الخواطر الكليلة، وتنعم بأنسه القلوب المعذبة والأذهان المكدودة، والنفوس المحرومة التي تشهد فيه، وتتذوقُ فِرْدَوْسَها المفقود، وقد يكون على العكس ثورة جامحة صاخبة، أمواجها شواظ من نار تصهر الأرواح الشاربة منها، وتخلصها من أدرانها وتزجيها في تيار الحرية، وقد يكون إلهامًا ينير بآيات سماويةٍ عجيبة؛ كأنه صاحب رسالة دينية فيعرضها عليك غير عامدٍ في رفقٍ وعطفٍ، وقد يكون الشاعر معلمًا أو خطيبًا مرشدًا أو مؤرخًا أو مصورًا أو متعبدًا؛ كما قد يثرثر بأنغام بدائية عذبة تحمل أخيلة الطفولة أو أحلام الإنسان الأول، وقد يكون الشعر والشاعر غير ذلك ولا يُطَالَبُ الشاعر عَدْلًا بأن يكون غير مَنْ هو، أي غير ما هيَّأته الطبيعة لأن يكون، والعبرة في كل هذا بالتناول الفني، وهذا أيضًا يتنوع تنوعًا شديدًا، ومنه ما يغالي في السريالية؛ كما نرى في قصيدة «نهر النسيان» مثلًا «لمحمود حسن إسماعيل»، وما يتبسط في البيان المباشر والإفصاح الناصع؛ كما نرى في شعر «حافظ إبراهيم» و«معروف الرصافي»، ومنها ما يتوارى خلف الرمزية ما بين بسيطة ومركبة؛ كما نرى في شعر «صلاح الدين الأسير» و«نزار القباني» و«بشر فارس»، وثروتنا الأدبية تجمع كل هذا، والحذف منه لا يغنينا.

وخلْق الأبطال في شعرنا أو توهُّمُهُم، وعبادة الأصنام لا تنفع أدبنا مثقال ذرةٍ، وإنما الذي يجديه المجموع الفني الضخم المنوع الذي تجود به مواهبُ شتى، ولذلك يهمنا أن

نحرص على هذا المجموع الفني الذي يجب أن يعتز به الأدب العربي، وألا ننساق في تيار التشيع لشاعر دون سواه، مهما تبلغ منزلته من السمو والرياد. ومهما نتمنَّ ونؤثر ضروبًا وألوانًا من الشعر، فلا يسوغ لنا أن نملي على أي فنان ما نشتهي، وحسبنا أن يكون مجيدًا مبدعًا يعطينا خير ما عنده، ففي التنويع غنيمة الأدب، وفي الحصر غُرْمُ الأدب، وربما ضياع الفن.

تبقى بعد ذلك، بل تجيء قبل كل ذلك، مسألة الطاقة الشعرية والأصالة الفنية؛ إذ لا جدوى للأدب من الكلام المعاد في صور شتى، وإن انتفع الشعر مثلًا أحيانًا بآثار مَنْ نسميهم الشعراء «الموكِّدين» متى تناولوا نَزَعات تجديدية جميلة، ووكدوها بتكرارهم الموسيقي الخاص بهم، أو أفرغوها في قوالبَ من صياغتهم، ولكن من الغَبْنِ الكبير في مثل هذه الحالات الإسراف في تقديرهم على حساب الشعراء الأصليين، الذين كانوا مبعث إلهامهم والنور الذي استوحوه!

من أجل هذا كله، وفي مقام الحديث عن شاعر البحرين اللامع، نرحب أولًا بكتابه القيم «الأساليب الشعرية»، الذي نَظَر فيه مثلَ هذه النظرة الشاملة بروح صافية مستقلة مشغوفة بخدمة الشعر والشعراء الذين أهدى إليهم كتابه، وكان الأولى في نظرنا بهذا الإهداء نُقَّاد الشعر الذين يَجْمَحُ أغلبهم ويتعصَّب تعصبًا أعمى، دونه التعصب السياسي الغاشم، وقد أحسنت «دار مجلة الأديب» البيروتية أيما إحسان، بإصدار هذا الكتاب المرشد المثقف، الذي يعد بحق بين أثمن الدرر التي أخرجتها، في وقت لا يزال معظم النقد الأدبي فيه متعثرًا بين الأهواء الشخصية التي لا تحترم المنهاج العلمي والقواعد الفنية السليمة، وليس من الضروري أن نتفقَ والمؤلفَ في جميع نظراته، وفي الشواهد الكثيرة التي أتحفنا بها قديمة وحديثة؛ لنقدر جهده الصالح في تنوير الأذهان وفي هداية النقاد، ولنستمتع بخواطره المليحة وآرائه النافذة، التي هي في الوقت ذاته مرآة شاعريته المتغلغلة وذوقِه الفني المرهف.

إن «إبراهيم العريض» يستطيع أن يَحْمِلَ مَزْهُوًّا بيمينه هذا الكتاب التحليلي البديع، الذي يحبب الشعر الجيد إلى قارئه ويبصره به، ويستطيع أن يَحْمِلَ مَزْهُوًّا بيساره دواوينه، وأمامنا منها «العرائس» و«قبلتان»، والأول ديوان شعر لم يخل من الأقصوصة الفنية، والثاني قصة شعرية. وقد صدرتا عن دار العلم للملايين.

وشاعرنا يجيد القصص ويجيد التصوير، وله أسلوب موسيقي عذب يتفنن فيه، ونزعته ابتداعية غالبًا، رمزية أحيانًا، وطاقته الشعرية قوية، وأصالته غالية، ومع ما له

من شعر حسي فإن له كذلك من شعر الحب ما عداه، وله جاذبية خاصة هي من نفسه السمحة.

وإذا كان لنا أن نختار قصيدة واحدة من ديوانه «العرائس» فحسبنا قصته «التمثال الحي» التي مهد لها بهذه التوطئة:

دِنْتُ بالفنِّ صغيرًا منذ شَبَّ الطِّفْلُ فيَّهْ
لُعبةٌ تَرْعَى مَجاليها العيونُ النَّرجسيَّهْ
مَنْ رأى الخالق كالشَاعرِ يختار رَوِيَّهْ
كلَّما وَقَّعَ لَحْنًا مَثَّلَتْه البشريَّهْ
فإذا المأساةُ والمهزلةُ اسمٌ لقضيَّهْ
هي أُسطورة «حواءَ» جَرَتْ في إِثْرِ حَيَّهْ
إنْ تُرَجِّعْها طُيورُ الخُلدِ أنغامًا شَجِيَّهْ
فهي في كوكبنا الأرضيِّ أوراقٌ نَدِيَّهْ
طالما خضَّلها دَمْعُ ضحايا المدنيَّهْ
غير أنَّ الدمعَ هذا قطراتٌ لؤلؤيَّهْ
عطَّرَ الفَنَّ بما نَدَّتْه مِنْ زَهْر نديَّهْ!

وتستهوينا هذه الحلاوة والسلاسة الجميلة المطبوعة، فتُزْجِينا إلى رواية هذه المقطوعة من مستهل قصته؛ تدليلًا على عذوبته وشاعريته:

سكنتْ في الطابقِ المُظْلِمِ من دارٍ سويَّهْ
غادةٌ لا تَملِكُ القوتَ وبالحسنِ غَنِيَّهْ
هي في الأسمالِ، لكنَّ لها رُوحًا زكيَّهْ
سَلَبَتْها كلَّ شيءٍ ثورة إلَّا التَّقيَّهْ
تَتَلوَّى كلَّما أَبْصَرَت الدارَ خَليَّهْ
أينَ عنها أَبَوَاها في ظَلامِ الأَبَدِيَّهْ؟
وأخوها جدَّلَتْه في الوَغَى كَفٌّ شقيَّهْ
فَثَوَى والعلمُ الخافقُ يَلوي بالتَّحيَّهْ

كيف لا تبكي؟ وهل أبقى لها الدهر بقيَّهْ؟

هذه موهبة في الأداء، يُغْبَطُ عليها شاعرنا؛ موهبة هي أصلح ما يُرْجَى لخدمة القصص، ولخدمة التمثيل.

ولو اقترنت بالشعر الفلسفي لجاءت بالمُعْجِب المطرب، بل لحببت الفلسفة إلى جمهرة الناس ولجعلتهم يعشقون الحكمة ويرتفعون فوق السطحيات!

إن «إبراهيم العريض» لا يزال في عنفوان شبابه، ولكنه زكَّى عن أدبه بأكثرَ مما زكى به كثيرون من الشيوخ!

ولا بد لنا أن نلاحظ أنه توجد الآن إجمالًا ثلاث مدارس شعرية رئيسية، في العالم العربي باعتبار نزعاتها وأساليبها:

(١) أولاها «المدرسة الكلاسيكية المجددة» تحت الراية الابتداعية، وهي التي كان يتزعمها «مطران»، ومن أقطابها الأحياء «الأخطل الصغير» و«بدوي الجبل» و«الشاعر القروي» و«شفيق المعلوف» و«إيليا أبو ماضي» و«ميخائيل نعيمة» و«عبد الرحمن شكري» و«إبراهيم ناجي».

(٢) وثانيتها «المدرسة التجديدية المتطرفة»، وهي ألوان مختلفة، ومن أشهر أعيانها وروادها في الوقت الحاضر شعراء الشباب الناضجون في «العراق» و«سورية» و«لبنان» و«مصر»، الذين يهيمون بالسريالية والرمزية، ومنهم من يُغْرِقُ في نظم الشعر الجنسي وأغلبيتهم تنفر من الشعر الإنساني العالمي، وكثيرون منهم يميلون إلى الانطواء على أنفسهم، ويصفون هذا الانطواء الذاتي، بأنه هو وحده الحياة، وكذلك يصفون الموضوعات المؤلمة القبيحة المنفرة، بأنها كنوز الجمال الفني لا أن هذا الجمال الفني يخلقه الفنان من ذاته ويتوهمه في موضوعاته؛ أي لا يقدِّرون أنها بمنزلة مَرَاءٍ لأخيلته وأحاسيسه وتفلسفه، وإذا تجاوزنا المدرسة الأولى «مدرسة اليمين» فهذه هي المدرسة اليسارية، وقد تحدثنا من قبل عن أحد روادها الحاضرين «نزار القباني»، الذي يعتمد في صياغته الموسيقية على تنوع مجزوءات البحور وينبض جميع شعره بالطلاقة الفنية الساخرة من القيود، وبروح الابتداع البعيد عن أي تكلف، وإن كانت عنايته لا تزال محصورة في نواح قليلة من الحياة، لا يزال كزملائه المتطرقين يحسبها أيها ولا غيرها الحياة.

ومن كواكب هذه المدرسة: الشاعرة العراقية الموهوبة «نازك الملائكة» التي يفيض جميع شعرها باللوعة والتشاؤم؛ كما ينم على المغالاة في الانطواء على نفسها.

(٣) وأما المدرسة الثالثة الرئيسية أو المدرسة الوسط، فهي التي تَحْفِلُ، أشدَّ ما تَحْفِلُ، بالموسيقى الاتباعية، وبجزالة الألفاظ، وبالصيغ العريقة المأثورة، التي تصفها بالإيناق والإشراق العامر والترقرق، وتعرض غالبًا المعاني المصطلحَ عليها مع الأخذ بطرف من اجتهاد المدرستين السابقتي الذكر، واحتذاءِ حذوهما في مواضعَ، سواءٌ في الشعر الوجداني والوصفي المقصَّد أو في الشعر القصصي أو في الشعر التمثيلي، وأعظم ما تتيه به في صميم زهوها ما تنعته بإشراق الديباجة، وجزالة الأسر، وعذوبة الجرس.

وهذه المدرسة كان يمثلها الشاعر المصري «علي محمود طه» أقوى تمثيل، والآن يتزعمها الشاعر الخلاق المبدع «عزيز أباظة» ولها أشياعها في أقطار شتى.

فأين محل شاعرنا إبراهيم العريض؟ وما هي مكانته بين هذه المدارس الرئيسية؟ إنه شاعر ابتداعي غالبًا في روحه، لا يَعبد الألفاظ، ولكنه لا يحتقر الموسيقى الشعرية، وله عذوبة الشاعر المطبوع وتفنُّن الذي يستوحي بكل حواسه وعواطفه العصرَ الذي يعيش فيه، وفي نفسه الاعتزاز بتراث قومه، إنه يُنْصِفُ العربية وطاقتها الحضارية؛ كما ينصف عصره ونفسه، وهو واحد من كثيرين يكاد كل منهم بتنوُّعه واستقلاله يكوِّن «مدرسة خاصة» به!

عمر أبو ريشة

شاعر سورية الرومانسي

سَبَقَت الفجرَ في غلائلَ من أشعة النجوم، وتبرجت من «قوس قُزَح»، ثم أخذت تتعطر خُلسة من أنداء الفجر، حتى إذا طلع جَزَتْهُ أضعافًا وردَّتْ للنجوم دَيْنَها، وتركت الشمس تَعجب من استحالة أشعتها إلى هذا الفن الرائع، في هذه الحورية التي لا تنتسب إلى أرض أو بحر أو سماء فحسب، بل إلى العوالم بأسرها. تلك هي «الرومانسية» التي تتقمص الشعراءَ والفنانين حتى إذا شَدَوا بسحرها تركوا الخلق مشدوهين حائرين.

لمحناها في شاعر «سورية» «عمر أبو ريشة»، وأردنا أن ننوه بوطنيته التي أهَّلَته لمركز سياسي جهير، وبواقعيته الشريفة الاتجاهات، التي انتظمها ديوانه، ولكن رومانسيته الخلابة جذبتنا إليها وقالت: ألا يكفيكم قول شاعركم فيَّ:

حسبها أن أردَّها لكَ مِنْ قَلْبي صلاةً، ومن شفاهي أغاني!

ثم تجلَّتْ في كتاب أو ديوان رائع تنافست فيه الأنغام والصور والأحاسيس والألوان الرشيقة، واكتفى الإلهام بعنونته «من عمر أبو ريشة» ولكن لمن؟ لمن؟ ساءلَ الشاعرَ وجدانُه.

لِمَنْ تعصرُ الرُّوحَ يا شاعرُ؟ أمَا لِضَلَالِ المُنَى آخِرُ؟

أَلِلْحُبِّ؟ أين التفاتُ الفُنونِ إذا هتف الأملُ العاثرُ؟
أَلِلَّهو؟ كم دُمْيَةٍ صُغْتَها ومَزَّقَها ظُفْرُكَ الكاسِرُ؟
أللمجدِ؟ ماذا يُحِسُّ القتيلُ إذا ازورَّ أو بسمَ العابرُ
أَلِلْخُلْدِ؟ كيف تردُّ الذِّئابَ وقد عَضَّها جُوعُها الكافِرُ
رُويدك! لا تَسْفَحَنَّ الخيالَ ببيداء، ليس بها سامرُ
أمَا يُرقِصُ الكونَ في صَمْتِهِ كما يُرقِصُ الحيةَ الساحرُ؟
دَع الحُلْمَ يَخْفُقُ في ناظريك فموعدُه غدُكَ الساخرُ

أسمعتَ؟ أأدركتَ أن خيال الرومانسية، يرقص الكون صمته؛ كما يرقص الحية الساحر؟ ثم ماذا؟

ثم يمر شاعرنا بصرح روماني قديم، لا يستطيع غير الظن أن يتحدث عن ماضيه، واسترعى انتباهَه خلوُّه من الشوك، وتألق ترابه النظيف، فقال في نفسه: إن الموت يقف أمام ضحيته، مجروح الكبرياء؛ لأنه لا يستطيع أن يفتك أكثر مما فتك:

قِفي قَدَمِي! إنَّ هذا المكان يَغيبُ به المرءُ عن حِسِّهِ
رمالٌ، وأنقاضُ صَرْحٍ هَوتْ أعاليه تَبحثُ عن أُسِّهِ
أُقلِّبُ طرفي به ذاهلًا وأسأل يوميَ عن أمْسِهِ
أكانت تسيل عليه الحياةُ وتغفو الجفونُ على أُنسهِ؟
وتَشْدُو البلابلُ في سَعْدهِ وتجري المقاديرُ في نحسهِ؟
أأستنطق الصخرَ عن ناحِتِيهِ وأستنهضُ الميْتَ مِن رَمْسِه؟
حوافر خَيْلِ الزمانِ المُشِتِّ تكادُ تحدِّث عن بُؤْسِهِ!
فما يَرضعُ الشَّوكُ مِنْ صَدْرِهِ ولا يَنعبُ اليومُ في رأسهِ
وتلك العناكبُ مذعورةٌ تريدُ التفلُّتَ من حَبْسِهِ
لقد تَعبتْ منه كفُّ الدَّمار وباتت تخاف أذَى لَمْسِهِ
هنا ينفضُ الوهمُ أشباحَهُ وينتحرُ الموت في يَاسِهِ

أرأيت كيف تتأنق الرومانسية بألوانها الزاهية، حتى في معرض التفلسف والاعتبار، وكيف حين تمس الواقع مسًّا خفيفًا تطير سريعًا بأجنحة الخيال، ومعها طيوف شتى

من كل شيء احتكت به، فأحيته وجسمته، ولطفته، حتى كف الديار التي صارت تستحي من الأذى!

أرأيت كيف أن الشاعر الرومانسي الطبع يأبى إباءً أن تستبد «الواقعية» به وسرعان ما تطويها عواطفه وأخيلته الزاهية؟!

ورأى الشاعر في الصحراء ماءً يتموج من بعيد، فقيل له إنه السراب، فتأمله طويلًا وأحس بالرمل الملتهب ظمأ تحت أشعة الشمس ينام ليحلم بالماء، وما هذا الذي يسمونه سرابًا إلا أطياف حلمه اللذيذ، وكان الشاعر على حال عاطفية قلقة، فوجد في إحساسه هذا منفذًا لها:

كم جئت أحملُ من جراحات الهوى	نَجْوَى يُرددها الضميرُ تَرَنُّما!
سالتْ مع الأملِ الشهيِّ لِترتمي	في مِسمعيكِ، فما غَمَزْتِ لها فَما
فخنقتُها في خاطري! فتساقطتْ	في أَدْمُعي، فَشَرِبْتُها متَلَعْثما
ورجعت أدراجي أصيدُ من المُنَى	حُلمًا أنامُ بأُفقِهِ متوهِّمَا!
أختاه! قد أزفَ النَّوى فتنعَّمِي	بَعْدِي، فإنَّ الحبَّ لن يتكلَّمَا
لا تحسبيني ساليًا، إنْ تَلمحي	في ناظِري هذا الذهولَ المُبْهَمَا
إنْ تهتكي سِرَّ السَّرابِ وَجَدْتِه	حُلمَ الرمالِ الهاجعات على الظَّما!

لا نعرف الأناقة المطبوعة في الشعر الحديث بلغت مبلغ الترف الزاهي في شاعرية أصيلة، بأجملَ مما ازدهت به في أشعار «عمر أبو ريشة» «وبدوي الجبل» «وإلياس فرحات» و«نزار القبَّاني»، وجميعهم من شعراء سوريَّة الموهوبين، الذين جعلونا نترنح إعجابًا بفنهم الحر البديع.

ولعل «عمر أبو ريشة» يتَصَدَّرُ الجميعَ في حلاوة رومانسيته وقوتها معًا، وقد رشَفتْ من جمال الطبيعة السورية ومن الوطنية السورية التي هي مضرب الأمثال وأتحفتنا بأناشيدَ عذبةٍ، هي من فرائد الشعر الغنائي المعاصر.

وقبل الانتقال إلى نماذجَ من شعر الوطنية الجميل، الذي تحتضنه هذه الرومانسية المحلقة؛ فتعطينا صورًا نابضة بالتزاوج الفني، بينها وبين الواقعية الرفيعة، نعرض طُرقًا أخرى من وجدانيات هذا الشاعر الهفهافة، وإن ران على معظمها — رغم تألقه — القلقُ واللوعة واللهف!

كان شاعرنا يسير في الليل وحيدًا كئيبًا يفكر في أبيه وأحبابه الموتى، فسمع كأن صوتًا من بعيد يناديه، فالتفت مضطربًا، فلم يلمح سوى نجمة واحدة تسطع في الأفق:

مَـنْ يُـنـاديـنـي وقـد أنـكـرنـي — في دُروبِ العُمْرِ مَنْ يَعْرفني؟
أغـرِيـبٌ مَـلَّ فـي غـربـتـهِ — عَبَثَ الـوهـمِ، ولـهـوَ الـزَّمـنِ؟
أم شَـقِـيٌّ نـسـي الـكـبـر عـلـى — شَـفَـتَـيْـهِ بـسـمـاتِ الـمـؤْمِـنِ؟

* * *

مَنْ يُـناديني وأعراسُ الصِّبا — لم تَدَعْ في الكأْسِ ما يُسْكرني؟
أَبَـتَـولٌ سَـلَّـهـا مِـنْ خِـدْرِهـا — شوقُها المخضوبُ بالحُلْمِ الهني؟
أمْ هَـلـوكٌ، أَلِـفَـتْ روضـتُـهـا — شفةَ السَّاقي وكفَّ المجتني؟

* * *

مَنْ يُـناديـنـي وسُمَّارُ الدُّجَى — كُحِّلَتْ أجـفـانـهـم بـالـوَسَـنِ؟
أحـبـيـبٌ؟ أيُّ أحـبـابـي تُـرَى — مِنْ كُوَى الخُلْدِ سَرَى يؤنسني؟
مـا لأصـداء الـمـنـادِي خَـفَـتَـتْ — وتـلاشَـى وَقْـعُـهـا فـي أُذنـي؟
نجمةٌ ضاءتْ على البعدِ، فيا — ذيلَـها الوضَّـاءَ، كنْ لي كفني!

ويحيي موسم الورد فإذا بالرومانسية تتعطر بأريجه، وتتبرج الزنابق — وقد تعوَّد الشاعر أن يقطف الزهر يهديه إلى أحبابه — فتوحي إليه:

ألفيتُها مخضلة في رَوْضها — والفجر بين ذيولهِ يَطْويها
حتى إذا انتفضتْ عليه تجمعت — أنفاسُه وتجمدَتْ في فِيهَا
وتمايلتْ تِيهًا بِعُرْسِ فُتونِها — وزَهَتْ وعُرْس فُتونها يُبكيها
والطيبُ مسفوحٌ على جَنَبَاتِها — يَهْمِي على رُوحي بما يُشجيها
فلويت في شبه الذُّهولِ أناملي — وقَطَفْتُها. لهفي! لمن أُهديها؟

لا ريب أنه انتهى إلى إهدائها إلى فنه، فهي بنت الفن السماوي، وإن نزلت إلى الأرض، ورضعت من تربتها، والفنان ذاته ابن السماء وإن استضافته الأرض، وَدَلَّلَتْه وزعمت أنها أمه الحنون، وقد تكون كذلك؛ لأنها بنت الشمس، فبينها وبين الملكوت الأعلى وشائج خالدة، فالأريج والنور والأطياف، والأشعة والظلال والذرات المتعانقة والسابحة،

والعواطف الراقصة، والذبيحة وكل ما يُرى ولا يُرى من عوالمَ كبيرةٍ وصغيرة؛ هي الكون، هي عالم الفنان، هي الفنان ذاته الذي تلمحه في هذه الرموز الخلابة، وما هي إلا لمحات خفيفة عابرة من نفسيته، التي قلما تكيف والتي لا تُحَدُّ.

وشاعرنا المحلق يصور لنا «مصرع الفنان» في إحدى معلَّقاته المؤثرة الفنانة، بحسبنا للتدليل على جمالها الرائع هذا الاستهلال:

نامَ عَن كأسِهِ وعن أَحبابه قبل أن يَنقضي نهار شَبَابِهْ
نام عن سكرةِ الحياة وقد جَفَّ شراب السلوانِ في أكوابهْ
نسماتُ الرِّضا على شفتيْهِ وشتاتُ الرُّؤَى على أهدابِهْ
وبَنات الغروبِ تَسكب في أُذنيه مَوَجاتِ عودهِ ورَبابِهْ
لابسات عمْرَ المآزر مَرَّتْ ريشةُ الأُفْقِ فوقَها بخضابِهْ
راقصات في حَلقة من عبابِ اللهوِ والرقصُ مَوْجةٌ مِن عُبابِهْ
رَقَصاتِ المطهَّماتِ من الخيلِ بِعرْسَ يَموجَ في تصخابِهْ
يا بنات الغروبِ قد نَفَضَ الليل على الكونِ حالكاتِ نِقابِهْ
احْمِلي الراحلَ الغريبَ وسِيري بالزغاريد سلوة لاغترابِهْ
وادخلي هيكل الفنونِ وأبقيه سراجًا يضيء في مِحْرابِهْ!

ولئن نظر في مرآته إلى آلام الفنان وإلى عذابه الأرضي، وصور كل ذلك في صور مشجية شتى؛ فإن شاعرنا لم يتجاهل المعنى الأسمى من شخصية الفنان، ومن حياته ورسالته، ولو كان في الظاهر ضحيتها.

ولنسمع الآن ما يقوله — في دور الشاعر الوصَّاف — عن جناز الفنان:

لستُ أَنْسَى الناقوسَ لمَّا نعاه والمصلَّى يَموجُ في أحبارِهْ
ورءوسُ الرجالِ مطرقةٌ والحزنُ ساجٍ مسربَلٌ بوقارِهْ
والمناديلُ في أكفِّ الغواني تَشْرَبُ الدَّمْعَ مِنْ مَقَرِّ انفجارِهْ
حَمَلُوهُ في نَعْشِهِ الأبيضِ اللونِ وساروا كتائِهٍ في قِفارِهْ
وَحَدَوْهُ بكلِّ لحن شَجِيّ سَرَقَتْهُ الآذانُ مِنْ أَسرارِهْ
إيهِ ألحانَهُ وأنتِ حنينٌ سالَ مِنْ رُوحِهِ على أوتارِهْ

رافقيهِ في أُفقهِ فهو ظمآنُ بَعيدُ العُهودِ عن قِيثارِهْ
رُبَّ ورقاءَ في الفضا الرَّحْبِ لمَّا زَقْزَقَ الفَرْخُ شاكيًا من أُوارِهْ
أَطْبَقَتْ فوقَ صدرها مِنْ جَنَاحَيْها وأَهْوَتْ كالنَّجم عند انهيارِهْ
وأكبَّتْ عليهِ تَمْنَحُهُ العطفَ ومِنقارُها على مِنقارِهْ!

وتأبى الرومانسية التي رضعت في طفولتها من أفاويق «الفن للفن» إلا أن تشرب والواقعيةَ من مناهل الحياة، قالت الحياة:

ما أنا إلا أنت أيتها الرومانسية الزاهية المتبرجة! لا تباعديني، فإن في ظلماتي أضواء، وفي جمودي عواطف، وفي سكوني ثورات، وفي مآسيَّ مباهج مستورة. كم من جمال لي يستره القبح العابر! وكم عبودية أفرضها توحي بالتحرر! وكم آفاق صغيرة هي منافذ لأوسع الآفاق! فاختاري ما شئت من نماذجي المعروضة، وتأملي فيها وتجاوبي معها تشعري حينئذ بفيض ألحاني ومثالياتي.

لكِ أن تتناولي الوطن أو الإنسان أو غيرهما من النماذج العظيمة أو الدقيقة التي أنتظمها وأن تتشربي روحها وتعبري عنه بآياتك فستجديها جميعًا منك وإليك.

وأخذ شاعرُنا مِعْزَفَهُ بين اليقظة والحلم، وراح يستجيب لواقعية الحياة منشدًا:

يا شعبُ، لا تَشكُ الأذاةَ ولا تُطِلْ فيها نواحكْ
لو لم تكن بيديك مجروحًا لَضمَّدْنا جِراحكْ!
أنتَ انتقيتَ رجالَ أَمْرِكَ وارتقبْتَ بهم صَلَاحَكْ
فإذا بهم يُرخُونَ فوقَ خسيسِ دنياهم وشاحَكْ
كم مَرَّةٍ خفروا عُهُودَكَ واستَقَوْا برضاكَ راحَكْ
أيسيلُ صَدرُكَ مِنْ جراحتِهم وتعطيهم سِلَاحَكْ؟!
لو كنتَ تجَهْلَهُم، لراحَ الغُدْرُ يَسْتَجْدِي سماحَكْ!

* * *

لهفى عليكَ! أهكذا تَطْوِي على ذُلٍّ جَناحَكْ
لو لم تُبِحْ لِهَواكَ علياءَ الحياةِ لما استباحَكْ!

ثم ينشدنا من قصيدته الوطنية الرائعة «هذه أمتي!» التي أنشدها في حلب سنة ١٩٤٥:

يا بلادي، ناجاكِ مَنْ وَقَفَ الخُلْدُ وأَصْغَى إلى صَدَى تَحْنانِه
كادَ أن يُرْخِصَ المَدامعَ في الأرزاءِ لولا الحياءُ مِنْ إيمانِهْ
ما الجبانُ الذي حَنَوْتَ عليهِ وسكبتَ العزاءَ مِلْءَ جَنانِهْ
عَرَفَتْهُ الهيجاءُ أنذلَ مَنْ فَرَّ وأَشْقَى مَنْ جَرَّ ذيلَ هَوَانِه
قامَ في فيئِكِ الكريم حَيِيًّا ودُمُوعُ المتابِ في أجفانِهْ
يَشتمُ الغَفْلَةَ التي ذُقتِ منها ما يَذُوقُ القطيعُ من ذؤبانِهْ
ليس يَدري الجزَّارُ ما الخنجرُ المسنونُ إلَّا إنْ حَزَّ في شريانِه
فَتَبَسَّمْتِ والإباءُ بعينيكِ تذوبُ الأحقادُ في غُفرانِه
وتهاديتِ في انتظارِ صباحٍ يَستحمُّ الوجودُ في إحسانِهْ
ما لِذاكَ اللَّهيبِ تَطْفُو المروءاتُ عليهِ وتَرْتَمي في دُخَانِهْ!

وهكذا علَّمنا «عمر أبو ريشة» أن الفن يواكب الحياة فيستوعبها وتستوعبه، وحين تعود الرومانسية به إلى «نداء الحب»، فما هي بمبعدته في التخصيص عن التعميم، فالحب هو الوطن، هو الإنسان، هو البشرية، هو الله، فلننشق الآن هذا العطر الأخير من جنان هذا الشاعر الرومانسي المبدع، الذي لا تُمَلُّ صحبة أريجه وألوانه:

لنا الحُبُّ والكأسُ والمِزْهَرُ ... وللناسِ مِنَّا الصَّدَى المسْكِرُ
مَشيْنا معًا وجَناح الرِّضَا ... يواكبنا ظِلُّهُ الخَيِّرُ
وخلفَ مَلاعبنا أنجمٌ ... على شوقِ أَوْبَتِنا تَسْهَرُ
غدًا يَنقلُ الكونُ ألحانَنَا ... ويَسْمُرُ في ذِكْرِنا السُّمَّرُ
فَميلي نَغِبْ في شَذَا ضَمَّةٍ ... يَرُفُّ عليها المَدَى المُقْفِرُ
أخاف انفلاتَ الرُّؤَى الباسماتِ ... إذا خَلَجَ الجَفْنُ والمحْجَرُ

فـأحـلامُـنـا يـقـظـاتُ الـحـيـاةِ ووحـيُ النفوسِ التي تَشْعُرُ
ونـحـن مـن الأزلِ الـمـطـمـئنِّ تُـبَـشِّـرُ فـي يَـومِـنـا الأعْـصُـرُ!

وإذا كان للحياة أن تزدهي بألحانها الوفية المعبرة، فما أولى الأمم بأن تعتز بشعرائها المحسنين! وما أغنى سورية بمثل هذا الشاعر العبقري الذي ينافسها في التعلق به العالم الجديد!

زكي مبارك الشاعر

لما أنشد «نعمة الحاج» منذ بضع سنوات قصيدته الطريفة «أوراق الخريف المتناثرة»[1] هلل لها وكبر كثيرون، وبينهم أدباء ليسوا على مذهبه الشعري من الواقعية والوصف المباشر، فما السر في ذلك؟ استمع أولًا إلى هذه المناجاة الوصفية:

أَرِي العـالـمينَ جمالَ الرَّدَى ... وأنَّ انـتـهـاءً لـكـلِّ ابـتـدَا

كسَاكِ الـخريفُ رَدًى مُعْلَمًا ... فما كانَ أجملَ ذاك الرَّدَى!

فمن أحمرٍ دَبَّ فيه اسمرارٌ ... إلى أَخْضَرٍ مازجَ العَسْجَدَا

وذا الوَشْيُ يُشْبِهُ وَخْطَ المَشِيبِ ... بنـا لِـكلـيـنـا نـذيـرُ الـرَّدَى

كـأنَّ الـغُـصـونَ جُـفـونٌ إذا ... تهاوَيْتِ منها هَمَتْ بالنَّدَى!

* * *

غَدًا إذْ تَهُبُّ عليكِ الرِّياحُ ... سَيُمسي الحضيضُ لك المَقْعَدَا

فتَنْتَثِرِينَ انتثارَ الدَّنانيـ ... ـرِ مِنْ كَفِّ ذِي شُهرةٍ بالجَدَا

ونمعنُ في الرَّوْضِ بعدَ الكِساءِ ... فـنُـبـصـرهُ عـاريًـا أَجْـرَدَا

كـأنَّ شُـجـيـراتـهِ الـعـاريـاتِ ... شَـمـاعدُ قد مَـلأتْ مَـعْـبَدَا!

* * *

[1] جريدة «السائح» النيويوركية في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٩م.

تُنـادي الـحـياةُ وَحـتْمٌ عـلـى   مَـجالـي الـحـياةِ تـلَـبِّـي الـنِّـدَا
فما أَصْدرَتْنا سُدًى للوجودِ   ومـا أَوْرَدتْـنَـا إلـيـهـا سُـدًى
نِـظـامٌ تَـسَـاوَى بـه مـا خَـفـى   عن العَيْنِ في الكونِ أو ما بَدَا
تَـوَحَّـدَ فـي مَـوْرِدٍ — مَـصْـدَرًا   يَـعُـودُ — وفـي مَـصْـدَرٍ مَـوْرِدَا
تَـبـاركَ فـي خـالـقِ الـكـائـنـاتِ   يَـظَـلُّ بـهـا خـالـدًا سَـرْمَـدَا
غَـدٌ فـيه أمـسِ، ومـا يَـنْـطَـوِي   بـه أَمْـس يُـنْـشَـرُ فـيـهِ غـدَا!

* * *

وقـولـي لـمـن دَأْبُـهُ أن يَـرَى   مِـنَ الـعَـيـشِ جـانِـبَـهُ الأسْـوَدَا
إذا نَـعَـبَ الـبُـومُ فـي رَوْضَـةٍ   فـكـم بُـلْـبُـلٍ فـوقَـهـا غَـرَّدا!
ومـا الـعُـمْـرُ إلا بـمـا فـيـهِ مِـنْ   مُـفيد، ولـيس بِـطولِ الـمدَى
أَحِبَّ الـجـميلَ وصُـنْـعَ الـجـميلِ   لِـتُـحْـمَـدَ فـي الـعـيْـشِ أو تَـخْـلُـدَا

ففي هذه القصيدة روح التصوف الفلسفي، الذي يفيض من قلب هذا الشاعر الحساس، المتعبد في محراب الطبيعة، والذي يتأمل الروض المتجرد في الخريف فيحس:

كأنَّ شُجيراتهِ العارياتِ   شَمَاعِدُ قد مَلأَتْ مَعْبَدَا!

ويحس بوحدة كل ما حوله خافيًا كان أم باديًا، قائمًا أم فانيًا:

نظَـامٌ تَـسَـاوى بـه مـا خَـفـى   عن العَيْنِ في الكَوْنِ أو ما بَدَا
غَـدٌ فـيـه أَمْـسِ، ومـا يَـنْـطَـوِي   بـه أَمْـسِ يـنْـشَـر فـيـه غَـدَا!

وفيها أوصاف جميلة أصيلة، وفيها إيمان مشرق بما في الوجود من خير وسعادة، وربما رأينا فنيًّا الاستغناء عن بعض أبياتها — اكتفاءً وتركيزًا، وتغليبًا لروح الشاعر على المعلم الواعظ — كالبيتين الثالث والرابع، وكالبيتين الأخيرين منها، وقد يلاحَظ أن طائفة من معانيها مسبوق إليها، كما سبقت صلوات عديدة لكثيرين، ولكنها مع ذلك تتسم في جملتها بالأصالة وبأنها فيض قلب الشاعر الحر، وهذه الحرية الفطرية والبعد عن الافتعال — علمنا أم لم نعلم — ذات تأثير وجداني ساحر.

ومثل هذه الوقفة نقفها أمام شاعر آخر، بل أمام جملة من الشعراء في العالم العربي، بعصرنا الحاضر، حيثما للشعر الوجداني التصوفي القدْح المعلَّى.

أما هذا الشاعر الذي نعنيه في هذه المناسبة فهو الدكتور «زكي مبارك» صاحب ديوان «ألحان الخلود» هو — كما نعته — «أقباس وجدانية في الحب والجمال»؛ فقد نقد شعره كثيرون، على رأسهم الناقد اللبناني المعروف «مارون عبُّود»، ومع ذلك لا يزال شعر «زكي مبارك» يُتَغَنَّى به في المحافل المستنيرة، وأصبحت أسرته تطالَب بإصدار شعره كاملًا، بعد أن خسر عالم الأدب صاحبه الموهوب، الذي شق طريقه في الحياة وسط صعوبات جمة، وأتحف المكتبة العربية بسلسلة من المؤلفات القيمة الحية، في النقد الأدبي والتاريخ الأدبي خاصة، وأشهرها كتابه الجليل «النثر الفني في القرن الرابع»، وقد تعددت تواليفه وبحوثه تَعُدُّدَ درجاته الجامعية الرفيعة، واشتهرت مصاولاته الأدبية اشتهار جَلَدِه وعزمه وإقدامه، واشتهار محنته في بيئاتٍ ضيَّعتْه!

إن شعر الدكتور زكي مبارك — كنثره الفني — يتميز بالكلاسيكية الوجدانية الرفيعة التي يشع منها الذكاء الخارق والعاطفة المشبوبة، ومن حسن حظ الأدب أنه مهد لديوانه في طبعة سنة ألف وتسعمائة وسبع وأربعين بمقدمة مسهبة، ترجم فيها لنفسه ترجمة وافية بديعة تساعد القارئ بلا ريب على تفهم شعره وتقدير مراميه الفنية وخصائصه التي ذكر منها خمسًا رئيسية:

الأولى: أن أشعاره تكاد تكون مقصورةً على فن واحد هو فن الغزل والتشبيب.

والثانية: الاهتمام بتشريح المعاني، بحيث قد ينظم في المعنى الواحد عشراتٍ من الأبيات، وهذا راجع إلى فطرته الفلسفية.

والثالثة: هي النزعة الصوفية؛ إذ إن أكثر القصائد في التشبيب لم تكن لها موحيات من الجمال الإنساني، وإنما كانت موحياتها من الجمال الرباني.

والرابعة: هي تدوينُ عواطفَ عزيزةٍ عليه، وهي عواطفُ سجَّل بها وفاءه لأصدقائه.

والخامسة: هي دقة الأسلوب المدرسي.

أما نماذج هذا الشعر الوجداني الفحل، الذي لم يُخْفِ صاحبُه اعتزازَه به، فعديدة تجابه القارئ من أول صفحة في الديوان في قصيدته «مصر الجديدة»:

تناسيتكم عمدًا كأنِّي سلوتكُم   وَبَعْضُ التناسي العَمْدِ مِنْ صُور الودِّ
إذا اشتدَّ إظلامُ العقوق تبلَّجَتْ   مآثِرُ تُذْكي نارَ معروفكم عِنْدِي
أمثليَ يَنْسَى؟! آه ممَّا اجترحتمو   على الهائم الحيران في حَوْمَةِ الوِرْدِ
أَإنْ خِفْتُ عُذَّالِي فأخفيتُ لوْعَتي   تظنُّونني صبًّا أَفاقَ مِن الوجدِ؟
غرامي بكُمْ لم يُبْقِ قلبًا بلا جَوًى   وحُبي بكم لم يُبْقِ عَيْنًا بلا سُهْدِ
خَلَعْتُ عليكم مِنْ هُيامِي وصبْوتي   غلائلَ لم تُخْلَعْ على ساكني الخُلْدِ!

ومع اعتداد شاعرنا بهذه القصيدة الفريدة، كاعتداده بأخواتٍ كثيراتٍ لها، فإنه يقول: «إن هذا الزَّهْوَ لم يخطر في البال وأنا أنظم هذا القصيد؛ فقد أوحته روحانية لا تسيطر على النفس إلا في أندر الأحايين، فجاء أقباسًا من الأشواق العواصف بالقلب والوجدان!»

وعلى الرغم من اعتداده وزهوه، أبت طبيعة الوفاء التي تحلى بها شاعرنا إلا أن ينوِّه تنويهًا خاصًّا في مقدمة الديوان بمن نبهه إلى مزايا شاعريته وشجعه على استغلال مواهبه ونشْر نفحاتها، بعد أن كان حاصرًا عبقريته في دائرة النثر الفني والبحث الأدبي، وهذه صفة نادرة في بيئاتٍ تَغَلَّبَ فيها مُركَّب النقص، وتَفَشَّى الجحود والعقوق، وبات يُفتخر بهما!

إن شعر «زكي مبارك» ليتسم بالحيوية والقوة والموسيقى الكلاسيكية؛ فهو طراز مستقل بذاته، وإن كانت عليه ملامح الشعر المدرسي في أحسن عصوره، وهو بحق ثروة لأدبنا الحديث، وإن فيه لشواهدَ لا تحصى على براعة التصرف البياني، والطلاقة الجميلة، الناطقة بطواعية اللغة في يد محبها، المتمكن منها، إذا ما كان مبدعًا موهوبًا.

والقارئ لألحان الخلود لينعم بموسيقى وخيال وعاطفة وتصوف وجمال في صور شتى؛ وقد يسكب عبراته في مواقفَ شجيةٍ مؤثرةٍ، وسيذكر في لوعة «زكي مبارك»؛ كما ذكر هو ملتاعًا راثيًا في نهاية الديوان راويته الأديب «أحمد رشدي»:

أخبروني أنَّ رشدي لَن يَعود   جثمَ الصخرُ عليه والحديدْ
كلُّ ما لم تره العينُ جديدْ   يا غريبَ الرُّوحِ في دارِ الخلُودْ
ما شَجا أهلَك صُبْحًا ما شجاني   حين صار النوحُ بابًا من بياني
إنَّ رُزئي فيك يا حُلْوَ المداني   هو كَأس الغدْرِ من خمر زماني!

إبراهيم ناجي

إذا ما ذُكرت ليالي القاهرة الأدبية اتجهت الخواطر إلى الشاعر المصري الموهوب، الدكتور «إبراهيم ناجي» الذي أحياها بشعره الجميل في ديوانه الشائق الذي يحمل هذا الاسم، وقد احتفى به الأدباء في أقطار العروبة جمعاء!

وما من أديب عربيٍ زار مصر إلا وتمنى لقاء هذا الأديب اللامع الجم المرَح، النادر الطراز في ذكائه وألمعيته وظرفه المتناهي، وفي ثقافته المنوَّعة التي شَمِلَتْ — بين ما جمعته — الطب وعلم النفس وعلم الاجتماع والنقد الأدبي والقَصص.

كان القدر قاسيًا في الخامس والعشرين من آذار «مارس» سنة ١٩٥٣م، حينما اختطف الموت «ناجي» فجأة بالسكتة القلبية في عيادته بين مرضاه، فذهبت بذهابه شخصية أدبية فذة، وانطفأت شاعرية أصيلة عزيزة المثال؛ إذ كان في طليعة الشعراء العاطفيين الغنائيين المجددين، وكان وكيلًا ثانيًا «لجمعية أبوللو» الشعرية بمصر، إبَّانَ رئاسة «خليل مطران» لها، بعد وفاة رئيسها الأول «أحمد شوقي»، وكان «ناجي» شاعرًا مطبوعًا يحترم النغم، ولكنه لا يحترم التَّعَمُّلَ، فأثمر وأنتج شعرًا شهيًّا من الطراز الأول، يتميز بجمال الطبع ويتعالى على القيود والصنعة.

وفي مقدمة المجلات التي اهتمت بأدب «ناجي» مجلة «الحديث» الحلبية الشهيرة، وفي عددها الصادر بتاريخ كانون الثاني سنة ١٩٥٣ «وهو العدد الأول من سنتها السابعة والعشرين» نُخَبٌ بديعة من «رباعيات ناجي» نذكر منها قوله:

أرْثِي لِخَطِّ الأُفْقِ وهو الذي ... يَرْمُقُني بالمقلةِ السَّاخِرَهْ
وتَهْرُبُ الأنْجُمُ هَذي وذِي ... ويَجْثُمُ الليْلُ على «القاهرة»!

* * *

وَيَزْحَفُ الكونُ على خاطري كأنَّه في مُقلةِ الساهِرِ
مَدٌّ من الحزن بلا آخر يعب عب الأبَدِ الزَّاخرِ

وكأنما يحس بدنو أجله حين قال:

الآن قدْ مَزَّقَ عني القِناعْ مَوْتُ الأَباطيلِ وزَحْفُ السَّنَاءْ
وبدَّدَ الوهمَ وفَضَّ الخلاءْ بَرْدُ المنايا وشُحوبُ الفناءْ!

هذا الشاعر النابغة الذي ندخر له دراسة بين شعراء العرب المعاصرين، لا تملك الآن إلا رثاءه بهذه الدمعة الحارة:

اسْأَلُوا الشَّاحِبَ القَمَرْ واسأَلوا الدَّامعَ الزَّهَرْ
واسْألوا النَّجمَ حائرًا واسألوا الشَّمْسَ في حَذَرْ
واسْألوا النُّورَ باهتًا خائفًا ما لَهُ مَقَرّْ
واسْألوا النَّهْرَ واجمًا كلُّ مَوْجٍ له عَثَرْ
واسْألوا الحُبَّ بعدَ ما فاتَهُ القوسُ والوَتَرْ
واسْألوا الحُسْنَ خاشِعًا بعد ما تاهَ أو أَمَرْ
اسْألوهمْ عن الذي أَرْعَشَ الرُّوحَ والحَجَرْ
كيف قد غالَهُ الرَّدَى فجأةً غادرًا وفَرّْ؟
أَتُرى كُلُّ ذَنْبِهِ أنَّه شاعرٌ شَعَرْ؟
أنَّه شَعَّ أُنْسَهُ في مَجَالِسِ السَّمَرْ؟
أنَّه نَغَّمَ الأَسَى أنَّه طاردَ الضَّجَرْ؟
أنَّه أَبْدَعَ المُنَى مِثْلَمَا أَبْدَعَ الصُّوَرْ؟
أنَّه دَاعَبَ الهَوَى والهَوَى كلُّهُ خَطَرْ؟
أنَّه أَنْقَذَ الوَرَى مِنْ شُرورٍ ومِنْ شَرَرْ؟
أنَّه أَسْكَرَ النُّهَى وهو مِنْ هَمِّهِ سَكَرْ؟
أنَّه أَنْضَرَ الرُّبَى حينما صَوَّحَ الشَّجَرْ؟

أنَّـه أَنْـتَـجَ الـجَـنَـى في دُنَى النَّحلِ والبَشَرْ؟
أنَّـه صَـاغَ شِـعْـرَهُ مِنْ دُمُوعٍ ومِنْ فِكَرْ؟
أنَّـهُ زَفَّ مُـطْـرِبًـا ما تَسَامَى وما نَدَرْ؟
أنَّـهُ كـانَ طِـبُّـهُ فَوْقَ طِبٍّ ومُخْتَبَرْ؟
أنَّـهُ عـاشَ دائـمًـا ضاحكًا يَهْزِمُ الكَدَرْ؟
أنَّـهُ كـان شُـعْـلَـةً مِنْ ذَكاءٍ، وكم بَهَرْ؟
لـم تَـفُـتْـه أَصَـالَـةٌ إنْ يكنْ فَاتَهُ الوَطَرْ؟

* * *

يا صَديقي، وكم زَهَا مِنْ وفائي! وكم فَخَرْ!
نَعْيُكَ المُرُّ وَقْعُهُ وَقْعُ طَوْدٍ إذا انْفَجَرْ
أيُّ ثَـأْرٍ لـعـاشِـقٍ فاتَه الحُبُّ إنْ ثَأَرْ؟
ليس سُخْطِي ولَوْعَتي ليس دَمْعِي الذي انهمَرْ
ليس زُهدِي بحاضري بعدَ فُقدانِ ما عَبَرْ
ليس سُخْرِي بِعَالَمٍ في غَبَاوَاتِه انْتَصَرْ
لـيـس هـذا وغـيـرُه مِنْ حُطامي الذي انْتَثَرْ
مِنْ فؤادِي الذي هَوَى في جَحِيمٍ مِن الغِيَرْ
مِنْ تَباريحِ ثَوْرَتِي حينما خاطري اسْتَعَرْ
بالذي يُرجِعُ المُنَى وَاثِباتٍ مِن الحُفَرْ
ليتني — إيهِ صاحبي! لم يُطِلْ غرْبَتي الحَذَرْ
ليتني كنتُ سابقًا ليتكَ الخالدُ الأَبَرّْ
راثيًا أنتَ، لا أَنَا، حَظُّنَا في يَدِ القَدَرْ
نحنُ في عالَمٍ بِهِ أَسْعَدُ النَّاسِ مَنْ غَفَرْ
كُـلُّـنـا دُونَ ذَرَّةٍ مِنْ هَبَاءٍ وَمِنْ مَطَرْ
لم نُخَيَّرْ، وإنما نَدَّعي الخُبْرَ والخَبَرْ
ليس لي غَيْرُ خَمْرَةٍ مِنْ جِراحٍ ومِنْ عِبَرْ!

محمود أبو الوفا

حينما تهتم أمة بتنظيم حياتها وتوفير أسباب نهضتها، فإنها لا تهمل أيًّا من العوامل المؤثِّرة في تنشئتها، سواء أكانت هذه العوامل مباشرة أم غير مباشرة، خطيرة أم هينة.

ولا ريب أن الآداب والفنون ليست بأهونِ هذه العواملِ، كما لا ريب في أن حسن استغلالها يعاون معاونة قيمة في تربية الأمة وإعدادها لخير ما تتمنى، ولا قيمة لهذه الآداب والفنون إذا لم تكن حرة منسجمة مع المبادئ الإنسانية العالية، وإلا بقيت لهوًا وتسلية واستحقت نعتًا آخر، وكانت مهربًا فحسب من مواجهة حقائق الحياة.

ولا يطالَب أي فنان بأكثر مما يستطيع جهده، أي بأفضلَ مما تسمح به طاقته أو ميوله، ولكن إذا كان في وسعه — غير مُتصنِّع — أن يكيف نفسه، بحيث يستوعب المثل الإنسانية والمبادئ التقدمية في شعره مثلًا؛ كان بذلك مُسْدِيًا خدمة أجل للبشرية!

نسوق هذه المقدمة، ونحن جَذِلُون؛ إذ نهتم بالكتابة عن ملحمة «عنوان النشيد» للشاعر المصري المطبوع «محمود أبو الوفا» الذي يقول:

اسـتمعْ لـي: إنَّ مِنْ حَقِّ الـحيـاهْ
لِـلْـفَـتَـى؛ إمَّـا يَـعِـشْ عَـيْـشَ إلـهْ
أو يَمُتْ كالصَّوْتِ لم يُسْمَعْ صَدَاهْ!

ففي هذه الملحمة التي بلغ عد أبياتها واحدًا وخمسين وثلاثمائة، وقد أخرجتها مطبعة مصر بالقاهرة في ثوب أنيقٍ، زادت في رونقه الصور الخلفية الملونة التي رسمتها ريشة الفنان «لويس فلسطين»؛ نجد شاعرنا يطوع مواهبه للنداء الإنساني الذي ينطوي على الإصلاح التقدمي، فيغنم الأدب الإنساني؛ كما تغنم العربية من هذا المجهود الجديد

الموفق، وليس هذا بغريب عن «محمود أبو الوفا» فإن البذور الأولى لتفكيره هذا ملموسة في ديوانيه السابقين «أنفاس محترقة» و«الأعشاب»، وهي بذور السخط على الفساد، وعلى الظلم الاجتماعي وغير الاجتماعي، وهي بذور الحرية و«حق تقرير المصير»، وهي بذور التسامي عن الدنايا؛ كيفما كانت بواعثها وألوانها!

«وأبو الوفا» أحد اثنين من شعراء القاهرة المترسِّلين، اللذيْنِ يكاد يكون شعرهما نثرًا، ولكنه نثر مصري الروح والسمات، وكلاهما شاعر مطبوع. أما الآخر فالأديب «محمد رضوان أحمد» عضو نقابة الصحفيين المصريين، ومؤلف الكتاب الروائي الشعري النفحات «في جنة الفردوس مع سبعةٍ من زعماء الشرق»، ولكن حينما يُعْنَى «أبو الوفا» بالديباجة المصرية البحتة صاعدًا بعاميتها إلى الفصحى، أو على الأقل إلى ما تقبله قواعدها، نجد «رضوان أحمد» يزاوج بين العربية الجزلة، والسلاسة المصرية المترسلة فيقول:

ومَتَى سُئِلْتَ عن البلا — دِ فَقُلْ: تَقَارَفَ كلُّ حُوبِ
تشكو من الظلمِ الغريـ — ـبِ وما الظَّلُومُ سِوَى القريبِ
عاثتْ بها الجرذانُ واجـ — ـترأتْ على الأسَدِ الرَّهيبِ
حُرَّاسُها سُرَّاقُها — وحُمَاتُها عَوْنُ الغريبِ
لا يُحْسِنوَن سِوَى الخنُو — ع وفي الخُنوعِ ردَى الشعوبِ
بُهْمٌ بِمِلْءِ بُطونِها — غَفَلَتْ عن الخَطَرِ القَريبِ
مِنْ نَبْأَةٍ تَذَرُ الدِّيا — رَ إلى المَخابئِ والدُّروبِ
لا يَحْفِلُونَ مِن الحيا — ةِ بغيرِ كأسٍ أو لَعُوبِ!

ولولا ديباجة «أبو الوفا» المصرية البحتة لخلنا هذه الأبيات الوطنية من نظمه. أليس «أبو الوفا» هو القائل عن روحه الهادي في «عُنوان النشيد»:

وبَدَا في الرُّوحِ روحُ الهَيمَانْ
فهو لا يَنزلُ في أيِّ مَكانْ
دونَ أن يَسْأَمَ مِنْ هذا المكان
ما لَهُ — يا ليتَ شِعري — لِمَ طارْ؟

هل تَراه إذْ رَأَى الظُّلْمَ استطارْ؟
وكـأنَّ الـدَّهـرَ بـالـنـاسِ اسـتـدارْ
فـأمورُ الـخَـلْقِ فـي أيْدِي الصِّـغـارْ
وكـأنْ لـم يَـبْـقَ فـي الـدُّنيـا كِـبَـارْ
قـال: لا، لـم يَـبْـقَ لـي إلَّا الـفِـرارْ!

وهو الذي يُناجي ذلك الروحَ النازحَ الساخط على المجتمع بقوله:

أيُّهذا الروحَ هل لي مِنْ جَوَابْ؟
هل أَظلُّ العُمْرَ أدعو لا أُجابْ؟
أي غـابٍ أنـا فـيـه، أيَّ غـابْ؟
فتني يا رُوحُ مِنْ غَيرِ صِحابْ
للنُّمورِ الحُرْدِ، للأُسْدِ الغِضَابْ!
لِلْأفاعي الزُّرْقِ، أو زُرْقِ النِّيابْ
والعجيبُ الآنَ في غابِ العُجابْ
أنَّ هذا الغابَ يُحْمَى بالكلابْ
الكِلابِ السُّودِ أشباهِ الذِّئابْ!

يدور هذا النشيد أو الملحمة حول تمجيد الفضيلة القوية، وهي وحدها القوة التي يحترمها الشاعر الذي يعتبر الضعف «فُضولًا» في هذه الأرض، ويرى أن «قانون البقاء»:

وهو ما في النَّاسِ يُدْعَى بالقَضاءْ
قـد رأى فـي هـؤلاء الـضُّـعـفـاءْ
أنـهـم فـي الـنـاسِ جـاءوا دُخَـلاءْ
كالطُّفَيْليَّاتِ في الزرعِ سواءْ!

وهو بروحه الشعرية يعتبر أن «آدم» نزل إلى الأرض مختارًا، وأنه سأل الله أن يهبه «حق تقرير المصير»، فاستجاب الله إلى دعوته، وهو ينعي على الإنسان ضعفه وتردده، وجهله بتثمير اقتداره ومواهبه؛ كما أنه يمجد أمنا الأرض إلى آخر بيتٍ في ملحمته؛ إذ يناجي روحه الهادي أو روح السماء، الذي فر من الأرض سخطًا على ما فيها من آثامٍ ومظالمَ، وراح شاعرنا يبحث عنه قارعًا باب ذي العرش المجيد، في بحثه ونشدانه الحق، ولا يفوته غير مرة أن يسخر من محتكري النفوذ ومن بهلوانيتهم في التغرير بالجماهير، فيقول على لسان ذلك الروح السماوي الساخر:

وقُصارَى القَوْلِ، في أيِّ مَكَانْ!
كنتَ فيه كنتَ أنتَ البهلوانْ!
هو ذا يا صاح فنُّ الافتتانْ!
وهو في العِلْيَةِ فَنُّ اللمعانْ!
وهو ذا أعظمُ فَنٍّ في الزَّمانْ!

ومع أن في هذه الملحمة القيمة مقاطيعَ أو أبياتًا كان يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها بمنزلة تكرار أو إشباع أو توكيد لا موجبَ له، ومع أن بعضها ضعيف النسج مثل مقطوعته عن تساؤل «آدم» ص١٠-١١ إلا أن فيها فرائدَ ممتازةً جديرةً بالتنويهِ بها، سواء أكانت مبتدعة أم مردَّدة؛ فمن هذه الأمثلة الجميلة قوله:

وتَغَنَّى الرُّوحُ لَحنًا فأجادَهْ
قالَ: إنَّ الضَّعْفَ والقوَّةَ عادهْ
مَنْ يُوجِّهْ وُجْهَةَ الأمر اعتيادَهْ
يُصْبِح الأمرُ له رَهْنَ الإرادَهْ
إنَّ فِي الإنسانِ طاقاتِ اقْتدارْ
آهِ لو يَعْرِفُها كيف تدارْ!
آهِ لو يَقْوَى اعتدادًا وإرادَه!
لاستقلَّ الأرضَ أُفْقًا للسِّيادَه
أنتَ يا إنسانُ للأرضِ الملِكْ

كيف لا تحكمُ فيما تمتلكْ
بينما الدُّنيا جميعًا هي لَكْ؟!
(آدَمٌ) قبلكَ بالأرضِ افتتنْ
فاشتراها بائعًا فيها (عَدَنْ)
يا ضعيفَ الرأي إياكَ تَظُن
أنه أَسْرَفَ في هذا الثَّمن!
إنَّه عن قوةِ الطَّبْعِ نَزَعْ
وللاستقلالِ بالملكِ ابتدَعْ
لم يكنْ (آدمُ) مسلوبَ الجنانْ
يومَ لم يُذْعِنْ بسلطانِ الجنانْ
ليسَ يرْضَى رجلٌ حُرُّ الفُؤادْ
عن حياةٍ ما لهُ فيها جِهادْ
خيرُ ما في النفس هذا الاعتدادْ

إنْ «آدم» في عرف المؤلف الشعري قد اشتاق حريَّته بأيِّ ثمنٍ، فابتهلَ إلى اللهِ قائلًا:

رَبِّ هَبْ لي حَقَّ تقريرِ المصِيرْ!
هذه أُولَى وأُخْرَى طِلْبَتي
أَعْطِني حَقِّيَ في حُرِّيَّتي
ثمَّ خُذْ ما شِئْتَه من جَنَّتِي
ولتكنْ مهما تكنْ لي قِسْمَتِي!
هكذا «آدم» مِنْ فوق الجنان
هبط الأرض على رأس الزمان
وكذا الإنسانُ قد أرضَى اعتدادَهْ
وعلى مُلْكِ الثَّرَى شادَ عَتَادَهْ!

ولكن شاعرنا لا يرضيه أن ينسى نسلُ «آدم» تقاليد جدهم الأول، الذي شُغِفَ بهذه الأرض، كما حسب الشاعر، ولذلك قال عن الإنسان:

ليتَه وجَّهَ للأرْضِ الدُّعاءْ!
مِثْلما وَجَّهَهُ نحوَ السَّماءْ!
غيرَ أنَّ النفسَ لمَّا استرخَصَتْ
طِينَها لم تُعْطِهِ حقَّ العِبادَهْ!
ولهذا فَقَدَتْ حقَّ السِّيادَهْ
دُونَ أن تَشْعُرَ، والأشياءُ عادَهْ
بينما الإنسانُ لو شاءَ استعادَهْ!

ومن أجمل مقطوعاته هذه التي يوحي فيها إلى الإنسان الثقة بذاته والعمل لمجده فقال:

آه لو آمَنَ إنسانٌ بِذَاتِهْ
لأتَى في الأرضِ كُبرى مُعجِزاتِهْ
ربَّما كان إلهًا في صِفاتِهْ
حَلَّ منه الرُّوحُ في كلِّ جهاتِهْ
ليس للإنسان إلَّا ما سَلَكْ
فهو إنْ شاءَ تَرَوَّى فَهَلَكْ
وهو إنْ شاء إلهٌ أو مَلَكْ!

ومن خير شعره الاجتماعي في هذه الملحمة قوله:

أيُّها النَّاسُ! ألَا مَنْ يَختَرِعْ
اختراعًا واحدًا يَشْفِي الطَّمَعْ
ويُداوي الناسَ مِنْ داءِ الجَشَعْ؟!
اضْمَنُوا لي الآنَ هذا الاخْتراعْ
وأنا أضْمَنُ إشباعَ الجِياعْ!

لیتَ مَنْ نادَى بتحرير البِقاعْ
كانَ قد نادَى بتحرير الطباعْ!

ومع ذلك تمنى في ختام ملحمته لو أن لقاءه بروحه الهادي روح السماء كان على هذه الأرض، وإذا كان ثمة رجاء فليكن في الأرض تحقيق الرجاء:

لا تَقُلْ لي في غدٍ عندَ السَّماءْ   سوف تَلْقى الروحَ أو تَلْقَى الصَّفاءْ
ولماذا لم يكُن هذا اللقاءْ   ها هنا في الأرضِ إنْ كان لقاءْ؟!

وهكذا نجد «محمود أبو الوفا» في هذه الملحمة يسمو إلى منزلة الشاعر الوطني المصلح الرائد، بل الشاعر الإنساني الذي يحس فِطْرِيًّا بأنه وفَنَّه وفكرَه وَقْفٌ على خير البشرية، وأن الإنسان في ذاته أعظم ملحمة شعريةٍ على هذه الكرة الأرضية، وأن الحياة ليست مجرد أكل وشرب ولهو، بل هي تجارب شاملة منها وإليها، لا دربًا واحدًا ولا تجربة محدودة، وأن الشاعر ليس دون سواه من أقطاب الأمة في الرياد والإلهام نحو مثل أعلى، وعلى الأخص في البيئات التي أورثتها أزمنة الانحطاط السابقة روح التواكل والقدرية الخاطئة والتعلق بالأوهام وحب الاختباء في الكهوف، بدل الاندماج في موكب الحضارة والانتفاع بنور العلم، وهو في كل هذا لا يأتينا بحِكَمِ «زهَيْر بن أبي سُلمَى» ولا بإنسانيَّات «بوب»، وإنما يأتينا بما توحيه إليه بيئته المصرية وروح العصر الحاضر، ولذلك نَعُدُّ ملحمته هذه لبنة صالحة في بناء الشعر القومي الشريف الإنساني الصبغة.

شاعرة من مصر

حينما دعتني صديقتي الأديبة الفاضلة السيدة «مارجريت عبد الأحد» إلى الاشتراك في نقد ديوان «الأغنية الخالدة» «لصفية أبو شادي»، تذكرت على الفور نقدي جدها «محمد أبو شادي» «بك» منذ أربعين سنة في جريدة «المؤيد» الإسلامية، التي كان يرأس هو تحريرَها حينذاك، بين شواغله الوطنية والمهنية المتعددة، وكما كان ذلك النقد صريحًا، تُمليه حماسة الشباب سيكون هذا النقد نظيره في الصراحة تمليه حماستي للأدب الرفيع الذي أتحيَّز له وحده. وكما كان الجد عزيزًا لدي، فكذلك حفيدته، وإنها لعليمة بذلك.

إن ما أعرفه عن هذا الديوان هو أنه كان يدعى قبل طبعه «أوتار قلبي»، ولكن «رابطة الأدب الحديث» بالقاهرة، التي تولت رعاية نشره، آثرت التسمية التي اختارها له الأستاذ العلامة «محمد عبد المنعم خفاجي» أحد أقطابها، ولولا حماسته الأدبية لما رأى هذا الديوان النور؛ لأن صاحبته — وهي في العقد الثالث من عمرها — مجردة عن غرور الشباب، وقانعة بالتعبير عن عواطفها فحسب، وهذا الزهد الكامل في النشر يكاد لا يصدق، وها هو ذا ديوانها العاطفي بالإنجليزية لم يَرَ النورَ بعدُ!

وإذا استثنينا الشاعرة المصرية المطبوعة السيدة «جميلة العلايلي»، فلا ريب أن صفية أول شاعرة رائدة صريحة أنجبتها «مصر» وطنها الأول الشديد تعلُّقُها به، وهي مولعة بالشعر المنثور وُلوعها بالحرية؛ فكأنما ابتعادها عن النظم هو سلوك نفساني يمثل هذا الولوع ويتمشى مع صراحتها المتناهية المنسجمة مع شخصيتها القوية، التي يعرفها زملاؤها في جامعة الإسكندرية سابقًا وجامعة «جورج وشنطن» حالًا، ومع أنها تخصصت في علم النفس وتزداد تخصصًا فيه، إلا أنها أكثر تعلقًا بالثقافة الأدبية بمعناها الأشملِ.

وما يجب أن يعنينا من أمرها هو مبلغ الأصالة في سلوكها وفي آثارها، فأما سلوكها فقد أشرت إليه في صراحتها المثالية حتى في أحلك الظروف التي حاقت بمصر، وأما آثارها التي يعتبر هذا الديوان باكورتها فتتميز بأصالة واضحة، وهذا غنم للأدب الحديث؛ إذ لا فائدة لنا من التكرار ولا من نهب الآثار السابقة أو المعاصرة، فإن التكرار أو المحاكاة أو السرقة لا نتيجة لها إلا الهبوط بأدبنا، حينما يضاف إليه كل جديد يزيده رفعة. ولصفية أن تكون هانئة الضمير لإسهامها في رفعة الشعر المنثور، بأصالتها وصراحتها الفطرية التي تكاد تقارب السذاجة.

وشاعرتنا لا تعرف أن تسجل سوى تجاريبها الخاصة، وعواطفها الخاصة، وتأملاتها الخاصة؛ وهذا أساس شاعريتها. وعبثًا حاولنا أن نطالبَها بالتعبير عن وطنيتها المتأججة وإنسانيتها الشاملة وخيالها الخصب في ألوان أخرى من الشعر؛ إذ كانت تدفع هذا الطلب بقولها: «إن نفسها وحدها صاحبة الحق في اختيار أساليب التعبير عن ذاتها وعن زمانه ومكانه، ولها وحدها أن يكون تعبيرها في أسلوب شعري أو في سواه حسب ذوقها.» وصفية شاعرة رومانسية رمزية محبة للطبيعة التي تقدسها في الأزهار والجداول والطيور، بل وفي ملكوت الله بأسره، فإذا فاتتها الطبيعة التمستها في الموسيقى، التي شُغِفَتْ بها منذ صغرها، ومن العجيب أنها لم تتأثر بأي شاعر أو شاعرة، لا من أسرتها ولا من غير أسرتها، وإن قرأت لكثيرات وكثيرين وأحبت في الإنجليزية خاصة «كيتس» و«شيلي» و«وردزورث» كما أحبت في الفرنسية «ألفريد دي موسيه» و«لامارتين» و«فيرلين».

أما عن نماذج شعرها المثالية: ففي طليعتها: «مملكة في السماء» و«حديث الشجر» و«الزورق الصغير» و«الأغنية الخالدة»، وجميعها وثابة الخيال، عليها تألق الشغف بالشعر ذاته؛ كأنما هو استجابة لقصيدة وجهها إليها زميلها الشاعر محمد مصطفى بدوي في عيد ميلادها سنة ١٩٤٢، وقد جاء في أحد أبياتها بعد تنويهه بأدبها واختياره الشعر هديةً لها:

فاعْشَقِي الشِّعْرَ، فهو دُنْيا سَمَاءٍ كُلُّ ما قَدْ حَوَتْ رفيعُ السَّنَاءِ

وقد عَشِقَت الشعر بجميع جوارحها، وإن كانت مقلة في تدوينه بالنسبة لقدرتها البيانية الشفوية. أما المسحة الدينية أو التصوفية فملحوظة في جميع شعرها، وهي دليل إيمانها العميق.

وبعد، فهذا الديوان وجداني شخصي في أغلب مظاهره، وكنت أتمنى لو كانت صاحبته التي أعرف وطنيتها وإنسانيتها قد عنيت برسم عواطفها العامة تلك شِعْرًا من هذا الطراز الجذاب، أو خدمت به الحركة النسائية التي تتحمس لها أي تحمس، ولكن وحي الشعر يأبى أن يسلك معها هذه المسالك، وهي لا تعرف التصنع الذي يلجأ إليه كثيرون، وتجد الغنى كل الغنى في الصدق وحده، ولا تَعتبر المحدودة من آفاقه ضيقة ولو حسبناها نحن كذلك.

الشاعر عزيز عبد السلام

«إيه يا «عزيز»! ... إن للميت نفسًا لا يبلغها الإحصاء ولا ينالها الحصر ولا يحدها المكان؛ فهي كثيرة على أنها واحدة، وهي تنزل في قلوب كثيرة في وقت واحد وعلى اختلاف الأوقات والأطوار والشئون. إني لأتحدث إليك، وإن قومًا غيري كثيرين ليتحدثون إليك ويسمعون منك في هذه الساعة، وإن شيخًا وقورًا كريمًا قد أقام في قرية من قرى الريف؛ ليتحدث إليك ويسمع منك في ساعات النهار كلها، وفي ساعات الليل كلها، لا يمنعه من ذلك أن يمس طائف النوم جفنه أو يلم به الزائرون، أو أن يقيم عنده الضيف فيطيل المقام، إنه ليأنس بك يا بُنَيَّ أنسًا حُلْوًا يملؤه الحب وتملؤه الوحشة، ويملأ نفسه هو أسى ولوعة وجزعًا.

إنك لتفهم عني هذا الحديث يا بني، فأنت شاعر تفهم كيف يكون الأنسُ مُوحِشًا، وكيف تكون الوحشة مؤنسة ... معذرة يا بني! ... إن الشعراء حين يستأثر الموت بأجسامهم، معرَّضون لكثير من المحن؛ شأنهم في ذلك شأن الكتَّاب والفلاسفة؛ حياتهم ليست ملكًا لهم، وإنما هي ملك للناس جميعًا، فشعرهم مهما يكن موضوعه خليق أن ينشر ويذاع؛ لأن للناس جميعًا حقًّا فيه.»

هذه نتف من مقدمة الكاتب المصري الحر الأستاذ الدكتور «طه حسين» لديوان «عزيز»، وهو مجموعة قصائد الشاعر المصري الشهيد الدكتور «عزيز فهمي»، وواضح من هذه المقدمة أن الدكتور «طه» كتبها بروح العطف الذي تفيض به براعة الأستاذ على تلميذه النجيب، وبإحساس الوطني الحر نحو مريد عامل حر، افتقده الأدب كما افتقده الوطن!

أما إذا نظرنا إلى خطر هذا الديوان من نواحي قيمه الفنية والإنسانية والفكرية، فإننا لا نجده كبيرًا، وقد نحمِّل الدكتور «طه» مسئولية تقليد الشاعر الفقيد للقدامى،

مذ شغله بالانغماس في القراءة لهم؛ «ليستقيم له مذهبهم ومنهاجهم» بدل أن يحثه على الاطلاع فحسب، ثم إرسال نفسه على سجيتها، وهي النصيحة الوحيدة التي تحترم مواهب الشعراء الأصليين، وتؤدي إلى إنصافها في نهاية الأمر، ومثل هذا الخطأ التوجيهي وقع فيه من قبل «مصطفى صادق الرافعي» و«أحمد حسن الزيات» و«محمد صادق عنبر»، ولكن صدوره عن الدكتور «طه» أمر عجيب!

واعتقادنا أن هذا التوجيه الشائع في مصر قد أدى إلى تدهور الشعر المصري، بالنسبة إلى الشعر اللبناني أو العراقي أو الفلسطيني، بله الشعر المهجري.

وإنه ليحزننا أن نجد كثيرًا من الشعر المصري أصبح مجرد عرض جميل الصياغة لخواطر ومعان سبق إليها وترددت تكرارًا، في حين ينكر الابتداع.

ولا ريب أن الدكتور «طه» اجتذبته إلى التنويه بالديوان وصاحبه، وطنيةُ شاعرنا الفقيد، والأواصر المختلفة التي تربطه به، ولكن كم كنا نود لو أن الدكتور «طه» عُنِيَ مثلًا بالشاعر الوطني المصري الشاب «كمال عبد الرحيم» صاحب ديوان «إصرار»، الذي أبت وطنيته إلا أن ينشره في أحرج الظروف التي تتطلب الشجاعة وحسن القدوة، فتعرض ديوانه للمصادرة، ولكنه نال احترامنا كشاعر حرٍّ، حينما جَبُنَ سواه أو شُغِلَ بالانتهازية أو بممالأة الحاكمين بأمرهم، وليس بنافع أن يتقلب أولئك الآن، وأن يتلوَّنوا تلوُّنَ الحرباء.

فالشعراء الجديرون بهذه التسمية في أية أمةٍ من الأمم هم أولئك الذين يستلهمون الشعب، ويستلهمون الإنسانية، ويستلهمون مثالية رفيعة في آن واحد، ثم يصنعون من كل هذا سبيكة نورانية خالدة، وأما الشعر المتصنع — كيفما تبرَّجَ — فلن يعيشَ ولن يُحترمَ على مر الأجيال، وأما الشعر الأناني وإن ارتفع بخياله أو اختال بأبراده فلن ينال الإعزاز الشامل، الذي يناله مثل هذا الشعر من ديوان «إصرار»:

عيدُ ميلادي الذي أذكرهُ ... يومَ كافحتُ وأحببتُ الكفاحْ
وتحسَّسْتُ جراحي، وأنا ... في قيودي، فتحمَّلتُ الجراحْ!

وقد سبق لنا أن تناولنا بالنقد ديوان «إصرار» ذاكرين ما له وما عليه، وما له ليس بالقليل؛ لأنه يمثل روح الثورة الإصلاحية إبَّانَ الاضطهاد في أمة ران عليها الذل، وخفتت بينها أصوات الأحرار على ضآلة عددهم، وارتفع صخب الوصولية وتدهوَر الشعر أيما تدهور؛ إذ تردى في حَمْأَةِ النفاق النفعية، وشُغِلَ على أحسن تقدير بالعرَض البراق،

وبطنطنة الألفاظ، وبالعزف الموسيقي؛ كأنما هو موكَّلٌ بِسِرْكٍ[1] للرياضة والتسلية، ولو على حساب الأخلاق والمبادئ ومصلحة الشعب الغبين المستعبَد العاني؛ ولذلك تدهور الشعر والأدب عامة في تلك البيئات، حتى جاز أن يُحكم عليه بالموت، وبناء على ذلك تدهورت المثالية العربية النزيهة، بل تزايلت في أقطار عِدَّةٍ.

فإذا ما قَدَّمَ صاحبُ «المعذبون في الأرض» لديوان «عزيز» وجب علينا، بحكم تداعي الخواطر، ألا نُغْفِلَ هذه النظرة إلى الشعر الوطني الحر الذي فاض عن إيمان قوي وشاعرية حية في أحلك الظروف، ولم يرهب صاحبُه عُقْبَى الصدق والصراحة في أداء رسالته، بل دفع عن طيب خاطر ثمن ذلك من سجن ومصادرة، ولكننا لا نهتم بهذا الشعر لمثاليته فحسب، بل لطاقته الشعرية وروحه التجديدية أيضًا، فكلها تؤلف في نظرنا وحدة فنية جميلة خليقة بالإعزاز.

فما الذي نجده في ديوان «عزيز» من كل هذا، وقد عُنِيَ به الدكتور «طه» حينما لم يُعْنَ أقلَّ عنايةٍ بدواوينَ أخرى، وبكتب أدبية أخرى، أجلَّ قدرًا؛ سواء في طاقتها الشعرية أو في رفعتها، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال ديوان «الجواهري» لشاعر العراق «محمد مهدي الجواهري» و«الفكر العربي الحديث» «لرئيف خوري» الأديب اللبناني الإنساني!

إننا لا نجد في ديوان «عزيز»، ذلك التجديد الجريء الفخم الذي يُسْعدنا في شعر «مطران» مثلًا، والذي شُغل به نقادُ العربية في جميع الأقطار،[2] ولا نجد عبقرية كلاسيكية غنائية أصيلة كما نجدها في الممتاز من شعر «شوقي»، ولا نجد الوطنيات الرائعة التي تطل علينا من شعر «القروي» و«حافظ» و«محرم»؛ وإنما نجد محاكاة ورنينًا ولَمْلَمَةً معادة الصياغة، كما نجد في شعر «الأسمر» و«علي محمود طه» وكثيرين ممن تُسْتَعْذَبُ أشعارهم لصياغتها الحلوة المستوعبة لطرائفَ شتى، دون أن تُلْمَسَ فيها غالبًا أية أصالة قوية أَخَّاذة.

[1] تعريب Circus.

[2] من أمتع البحوث في هذا الموضوع مقال تجديد خليل مطران للشعر العربي، بقلم الأب «روفائيل نخلة» اليسوعي، المنشور في المجلد السادس والأربعين من «مجلة الشرق» التي تصدرها عن «بيروت» جامعة «القديس يوسف».

ومع ذلك لا نقلِّب ديوان «عزيز» إلا وفي عيننا دمعة، وفي فؤادنا حرقة؛ إذ نجد الوطنية والإخلاص، تحاولان النهوض بشاعريته المحدودة، وبطبعه التقليدي، فتتحفاننا بما نحترمه ونحبه، وإن لم يكن أخَّاذًا بفنه، ولعل من أحسن شعره الوجداني المطبوع قصيدته «يا قارئ الكف» التي يقول فيها:

يا قارئَ الكفِّ، ماذا أَضْمَرَ القدَر؟ ... ولا عليك إذا لم يصْدق الخَبَرُ

وما اهتمامُكَ باسمي؟ هَبْهُ «عنترة» ... وهَبْهُ «زيدًا» وجَدِّي «عَمْرو» أو «عُمَرُ»

عليكَ بالكفِّ فاقرأْ بين أسطُرِها ... ماذا يدلُّ عليه الخطُّ والأثَرُ

أَطالِعُ اليُمْنِ أَنَّ الخَطَّ مُتَّصِلٌ ... وآيةُ النَّحْسِ أنَّ الحَدَّ مُنْبَتِرُ؟

وما الشِّيَاتُ على جَنْبَيْ ثمانيةٍ ... تَبْدُو كَوَشْمٍ وتَخفى حَوْلَها غُرَرُ؟

خَبِّر عن الفألِ، لا تجفلْ، فسانحةٌ ... عندي كبارحةٍ، والشرُّ ينتظرُ

هلْ أنْسَأَ اللهُ في عُمْري إلى أَجَلٍ ... يُلِحُّ فيه عليَّ الهَمُّ والكِبرُ؟

وهل أُبَلَّغُ آمالي؟ وأَبْعَدُهَا ... عندي كأقربها، ناءٍ ومُحْتَضرُ

هَبْنِي ظَفِرْتُ بآمالي على ظمأٍ ... إذا ارْتَوَيْتُ فماذا يَعْقُبُ الظَّفَرُ؟

ومهما يكن من شيء فهذا ديوان يقرؤه الدارس باحترام؛ لأنه خواطر إنسان شريف، سواء أتألَّقتْ فيها العاطفة والخيال فاستحالت شعرًا فنيًّا، أم بقيت على سذاجتها الغنائية بهجة للأسماع فحسب.

الربيع المحتضر

للشاعر العراقي صالح جواد الطعمة

حينما نرجع بالذاكرة إلى خمسة وأربعين عامًا أو تزيد، ونحن نقرأ مع الأستاذ «محمد كرد علي» قصائد «الرصافي» و«الزهاوي»، التي كانا يوافيان بها مجلته «المقتبس» نماذجَ للتجديد الجريء في ذلك العهد، ثم نقابل بين تلك النماذج وحفيداتها التي يَطْلُعُ علينا بها شعراء الشباب في هذا العهد من بلاد الرافدين، تتملكنا الغِبطة — ولا نقول العجب — للتطور التقدمي البديع في الشعر العراقي.

وعهد بيننا وبين أنفسنا — كما أنه من حق الأدب والأدباء علينا — أن نتناول بالدرس نماذجَ ذلك الشعر جميعه، الذي تسعدنا الظروف بالحصول عليه، ولئن حال المجال دُونَ التوسُّعِ، فلن يحول استقلالُنا دون التقدير النزيه، والإنصاف، بل إنه لكفيل بهما.

أمامنا اليوم ديوان «الربيع المحتضِر» للشاعر العراقي «صالح جواد الطعمة»، وإنه ليسترعي انتباهَنا من بدايته بظاهرتين: أولاهما ثقة الشاعر الشاب برسالته فنًّا وموضوعًا، وهذه تتجلى في انطلاقه، ومزجه الأوزان، ومعالجته موضوعات فكرية، ووجدانية رفيعة. وثانيتهما: طاقته الشعرية المتأرجحة تأرجحًا بينًا، فهو يعلو حينما يتناول موضوعات

الحرية والكرامة البشرية، مجاريًا ومنافسًا الشعراء الأحرار من بني قومه وغيرهم، وهو يهبط حينما يُضْطَرُّ إلى شعر المناسبات المألوف، وحينئذ لا نسمع منه إلا نظمًا هو أقرب الأشياء إلى الخطب السياسية، ولكنه في هذا وذاك على السواء متأثر بالحركة التحررية العصرية في التعبير، وعلى الأخص بطابعها العراقي الجديد الجميل.

خذ مثلًا قصيدته الأولى الممتازة «ضلال الفنان»:

أيها المُطْرِقُ الكئيبُ إلى اللوحةِ تلهو بالريشة الحمراءِ!
تَبعثُ الفَجرَ والينابيعَ والزَّهر وسحرَ الظلالِ والأشذاءِ
وتُشيعُ الحياةَ في المَيتِ الرُّوحِ، وتحنو عليه بالأنداءِ
فتلوحُ الرسومُ مشرقَة الألوان تزهو بذائبِ الأضواءِ
مِنْ سَنَى مُقلتيكَ — يا ضيعةَ العُمْرِ! وتمتصُّ منك زَهْوَ الدِّماءِ!
يا لَهَذَا الضلالِ! كم تُحْرِقُ الرُّوحَ وتُذْوِي للفَنِّ زهْرَ شبابكْ!
أترَى غيرَ سُخرياتٍ من الناس وغيرَ الإنكارِ من أصحابِكْ؟
فلمنْ تَهجرُ الحياةَ وسَلواها وتَبقى تلتاعُ في مِحْرابكْ؟

وقد ختمها بقوله:

ليس يَهْنيكَ غيرُ أن تُترعَ الكاسَ لصادٍ تُلهيه خفقةُ آلِ!
وتُسلِّي المجروحَ بالنَّغم الآسي وتُوحِي للناسِ بالآمالِ
لستَ كالناسِ تَرْتَجي لك إكْرامًا وتغريكَ خِدْعةُ الإجلالِ
فابْقَ في الهيكل المعطَّر بالفَنِّ تُشيعُ الحياةَ في لوحاتِكْ
وتُغنِّي للأرضِ، للملأ المُضْنَى فيَلْقَى السُّلوانَ في أُغنياتِكْ
أنتَ كالزَّهْرِ، أنتَ تأرجُ بالعطرِ وحُلوُ الرَّحيقِ في زهراتِكْ
ينْتشي الناسُ من شذاه، فتذوي وتَدُوسُ الأقدامُ زَهْرَ حياتكْ
حسبُكَ المجدُ أن تكونَ لهم زهْرًا وتُوحِي السُّرورَ من مَأساتِكْ!

وفي هذه القصيدة فكرة لا نقول إنها جديدة، ولكنه عبر عنها بعاطفة حارة، وقد يعاب عليها عدم التركيز وبعض الركاكة في قليل من التعابير، ولكنها في جملتها تتسم بالإخلاص والوحدة الفنية والموسيقى المقبولة!

وعلى الرغم من سمات الكآبة والوَجْدِ — في كثير من شعره — نرى أن شاعرنا لا يعيش لنفسه، وأن له لزفرات حارة من أجل المجتمع الإنساني، ومن أجل قوميته العربية.

ولعل يتيمة هذا الديوان قصيدته «أغنية زنجية»:

على الأفقِ طال انتظارُ العبيد إلى النور، في الأُفقِ الأَجهمِ
وأغنيةٌ من وراءِ الظَّلامِ تُغنِّي: تَقَدَّمْ ولا تُحجِمِ
أمانيك كم داسَها السيِّدُ المُذِلُّ عتوًّا ولم تَأثَمِ
وكم يُترعُ الكأسَ ممَّا سَفَحْتَ! وما لكَ منه سوى العلقم
تَقَدَّمْ! لقد مَلَّنا الغُلُّ ملءَ الرضا والخضوع، ألم تسْأَمِ؟
أَعَدْلًا تُفدِّيهمو بالحياة، ومالك في الأرضِ من مَغْنَمِ؟
وظُلْمًا إذا تَتأبَّى الهوانَ لتهنا — من العُمرِ — بالأَنْعُمِ!
تَقَدَّم — فديتكَ — لا يَرْهَبنكَ بَطْشُ الطُّغاةِ وسَفْكُ الدَّمِ
متى نَهلَ المجدُ غيرَ الدِّماءِ وطابتْ حياةٌ بلا مَغْرَمِ؟
على الأُفْقِ طال انتظارُ العبيدِ؛ تقدمْ إليهم ولا تُحْجِمِ!
سنُطلِقُ في أوْجُهِ الآثمينَ زئيرًا من المَعْقلِ المظلمِ
فَتندكُّ أسوارُه البالياتُ وتنهارُ من ثورةِ النُّوَّمِ
سيكتسحُ العاصفُ المستثارُ مَغارسَ سيدك الأعظَمِ!
فَنَبْعثُها أُغْنياتِ ابتهاج ونَلْقى السِّتارَ على المأْتَمِ
فلا سيدٌ يَسْتَذلُّ قواكَ ويَرْوِي خَمائلَه مِنْ دمي!

ثم يختمها بهذه الأبيات المتجهمة، وقد تعثرت موسيقاها:

حرامٌ! متى كان يا عبدُ أن تغمرَ الأشقياءَ رُؤَى البَلْسَمِ؟
لتأسو جِراحَ الأرقاءِ مِنْ غُلِّهم كم طواهم بلا مَأْثَمِ؟
وأغنيةٌ من وراء الظَّلامِ تحنُّ إلى النُّور أو لِلدَّمِ
يُردِّدُها، لا يَزالُ العبيدُ زئيرًا من المَعْقِل المُظلمِ!

فهذه القصيدة القوية الأصيلة في مجملها كان يمكن أن تشرف على الكمال لو أن شاعرنا عُنِي عنايةً أوفى بصقلها اللفظي والموسيقي، ولكننا نلحظ أنه أكثر إجادة في ديباجته حينما يكون أكثر انطلاقًا، كما نرى في قصيدته «العائد» التي تعد من عيون شعره ومن بدائع الشعر الرمزي الحديث:

لا زلت أذكر كيف عاد بي الطريق:
قَلِقَ الملامحِ، واجمَ اللحظاتِ يعبثُ بي الذُّهولْ
وبَراعمُ الأحلامِ ينثرُها على الأرضِ الذُّبولْ
وتكاد أنفاسي تضيقْ
والذكرياتُ تُطِلُّ في ذُعرٍ من الماضي تُفيقْ
ماذا أثار الذكرياتْ؟
السُّحْبُ والأغصانُ عاريةٌ أم الحقلُ المَواتْ؟
أم مشْهَدُ الأكواخِ تُهْجَرُ خوفَ عاصفةِ الشتاء؟
والدَّوحةُ الزهراءُ أوحشَها الخريفُ فلا يَرِنُّ بها عفاء!

* * *

لا زلتُ أذكرُ يومَ عادَ بيَ الطريقْ
وأنا أَحِنُّ إليكِ، للسُّلوانِ، للقلب الرفيقْ
شَفتايَ دبَّ عليهما الصَّمْتُ الثَّقيلْ
وتنهداتُ الصدرِ تسأل عن حَنانْ
وفؤاديَ المذعورُ يَخْفِقُ، كان يَخْفُقُ كالجبانْ
لكنْ وجدتُكِ تَجهلينَ السِّرَّ، يَغْمُركِ الذُّهولْ
مذعورةً مثلي، وفي وَلَهٍ عليَّ تردِّدينْ:
ماذا دَهَاكْ؟
«لِمَ عُدْتَ واهي الصَّدْرَ، ما سِرُّ الأَنينْ؟»
وبقيتِ في إشفاقةٍ تتساءلينْ:
«لِمَ عُدْتَ؟ ماذا قد دَهاكْ؟»

* * *

وشِفاهيَ الْوَلْهَى تَضِنُّ عليكِ بالسرِّ الحزينْ
لكنْ سمعتُ تنهُّدات الصَّدْرِ تَصْرَخُ في جُنونْ:
«لِمَ يَهجُرُ الكُوخَ الرُّعَاهْ؟»
وخمائلُ الرَّوْضِ المُظَلِّلِ، كيف تَقْفِرُ مِنْ حَيَاهْ؟
والطيرُ؟ ماذا يُخْرِسُ الطيرَ المغردَ في مِرَاحْ؟
فيطيرُ عن وَكَنٍ يَعزُّ عليه مبتلَّ الجَناحْ
والريحُ تنْحِبُ في جُنونْ!
كانت تَضِنُّ عليكِ بالبَوْحِ الشِّفاهْ
لكنْ سمعتِ السِّرَّ من صَدْرِي ومن أَلَقِ العيونْ
فتألَّقَتْ عيناكِ بالدَّمعِ المضاعْ
تبكينَ زهرًا لا يُروِّيهِ بكاءٌ والتياعْ
فلقد مَضَى عنه الربيعُ
والناهلُ الأشذاءِ ولَّى، لم يَعُدْ زهري يَضوعْ!

إن الشاعر «صالح جواد الطعمة» من الأدباء الشرقيين القليلين الذين يحترمون النقد الأدبي بل وينشدونه، وممن يحترمون خاصة مقاييس النقد الأدبي الصارمة في الغرب، وهي التي تقضي على النفايات وعلى التقليد الأعمى، وتشجع الابتكار وتُجِلُّ المواهب الأصيلة؛ ولذلك نرجو خيرًا لمستقبل هذا الشاعر الوجداني الوثاب، كما نهنئه بما قد أحرزه من توفيقٍ.

وبينما يُشغل بعض الكتاب باختيار النماذج المهلهلة أو الغنائية التي كلُّ مَيزتها — إن كانت تلك مَيْزةً — دلالة صَدْرها على عجُزها، وسهولة تعابيرها إلى درجة الابتذال، دون الالتفات إلى مبلغ أصالتها؛ اكتفاءً بما تجمَّعَ فيها من تعابيرَ حُلوة وأخيلة مُزَوَّقة منهوبة، لا يسعنا إلا التنويه بما هو أبقى من تلك، أي بما هو أكثر أصالة وألمعية، وبما هو أجدر بالتنويه به، سواء أكان صاحبه مشهورًا أم مغمورًا، ولدينا في ديوان «الربيع المحتضر» نموذج صالح لذلك.

من الشعر الغنائي العراقي

يلاحظ النقاد المستعربون أنه بينما لا تتجاوز منزلة الشعر في الأقطار الأوربية والأمريكية المستوى الفني الاسطيقي الذي يقترن بالصقل والتهذيب والترفيه في عصرنا الحاضر — شأنه شأن الفنون الأخرى — نجده لا يزال في الشرق ذا نفوذ متغلغل بتأثيره الاجتماعي والسياسي، وقد سبق كما لازم النهضات الوطنية والفكرية والاجتماعية.

ومن أحدث الأمثلة على ذلك شعر «محمد حافظ إبراهيم» وأثره في النهضة الوطنية المصرية!

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن الشعر هو التعبير الكلامي الموسيقي عن الحياة بطريقة فنية أخَّاذة، وفي الحياة أشياء كثيرة تبدو للناقد السطحي تافهة أو عابرة، ولكنها ليست كذلك للشاعر إذا ما تأثر بها فِعلًا، فعبر عن عاطفته نحوها بحرارة وتَعَمُّق، فليس كلُّ معنى يخطر بالبال جديرًا بالحفاوة أو حَرِيًّا بالإهمال؛ بل الحكم في ذلك يرجع إلى مبلغ تأثر الشاعر بذلك الخاطر، وإلى درجة قدرته على التعبير الفني عنه بأصالة وطلاقة.

كذلك مِنْ تحصيل الحاصل أن ننبه إلى أن الروح الإقليمية في الشعر إذا جاءت فطرية فلا غبار عليها، وقد تكون من حسناته بالنسبة إلى خلق ألوان مُنَوَّعَةٍ منه، ولكنها قد تصبح من عيوبه إذا ما أدت إلى حصر آفاقه، أو أدت إلى خلق عصبيات، لا تمتُّ إلى روح الأدب السليم بصلة.

ومن تحصيل الحاصل أيضًا أن نقرر أن أسمى الشعر الذي يرتفع إلى مقام الخلود، ليس ما يحوم عاجزًا حول العابر المألوف، بل هو ما يحلق بموضوعه — ولو كان في ظاهره تافهًا — تحليقًا ينتظم الحقائق الأزلية في عَرْض فني ساحرٍ، لا تَذْهَبُ برونقه

العصور ولا تطغى بضوضائها على حلاوة موسيقاه، وافتنان أخيلته، ووثيق اتصاله بالإنسانية جمعاء، لا بوسط أو بإقليم معين.

ولا يعني هذا بأي حال إصغارَ الشعر الليريكي العاطفي المحض؛ إذ له منزلته الفنية الخاصة، وقد يصعد بنفسه إلى طبقة أرقى من المستوى الشخصي؛ كما نرى في عاطفيات «ناجي» و«الصيرفي».

وأخيرًا نرى من البداهة بمكان أن نقول إن مبلغ الإنتاج الشعري لا علاقة له بالأصالة ولا بالطاقة الشعرية، وإنما الأمر يتعلق بالمواهب وحدها؛ فرُبَّ شاعرٍ مقلٍّ يكون مُسِفًّا، ورب شاعر مكثر يكون مُجيدًا، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ومن الشعراء المكثرين اللامعين قديمًا «مهيار الديلمي»، وحديثًا «عبد الرحمن شكري»، فضَرْبُ المثل بحوليات «زهير» لا يساند فكرة سليمة، وما كانت «حوليات زهير» على أي حال بالمعجزات، ولو أنها نالت الحفاوة بها في زمنها.

نذكر هذا التمهيد توطئةً للحديث عن بعض النماذج من الشعر الغنائي العراقي، مقتصرين في هذه المناسبة على الشاعر الليريكي «عبد القادر رشيد الناصري»؛ فهذا شاعر مكثر، مجيد، عذب الموسيقى، يسبق نضوجه سنه.

ولئن انتسب إلى مدينة الناصرية، وجرى في عروقه الدم الكردي، فإنه من أولئك الشعراء الذين ينتسبون في الواقع إلى كل قطر، وإلى الإنسانية جمعاء، وله قصائد كثيرة شائقة تضمنتها مجلات شتى ومجاميع شعره، وكلها تنبض بحرارة عاطفية وبعذوبة غنائية فريدة لا نجدها في الشعر العراقي التقليدي، أو الكلاسيكي؛ كشعر «الرصافي».

ولئن كانت لشاعرنا نفحات طيبة من الشعر الوطني أو من الشعر الإنساني منذ إصداره ديوانه الأول «ألحان الألم»، الذي قدمت له الشاعرة المصرية «جميلة العلايلي» في سنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين؛ فإن ما اشتهر به خاصة هو شعره الغنائي المأنوس، وقد ظهرت نماذج جميلة منه، وما تزال في «الأديب» و«الدنيا» و«الثقافة» و«الرسالة» وغيرها من المجلات الذائعة، وإنه ليشق علينا الاختيار من بين هذا الجيد الكثير، فبحسبنا أن ننظر في هذه القصيدة الغنائية القصصية الموسومة «شهرزاد مدريد»؛[١] لأنها جامعة بين قدرته التصويرية، وبراعته الليريكية، وسلاسته البيانية، التي لا تستطيع أن تنسبَها

[١] مجلة «الرسالة» المصرية بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٩٥١م.

إلى قطر معين، وإن كانت اشتهرت عن مصر أولًا، ولكنها الآن عامة تحملها إليك «رسالة المغرب» و«الأنيس» في «مرَّاكش»، كما تحملها «المنهل» و«الحج» في الحجاز، بل وكل مجلة وصحيفة راقية في جميع أقطار العالم العربي، وهذه الأغنية من ذكريات «عيد الحرية» في باريس لشاعرنا في سنة ١٩٥٠م، وقد أهداها إلى أديبة إسبانية حسناء كانت برفقته في أثناء ما كانت «الكرنفالات» قائمة في كل مكان، قال:

عَبَرَتْ بي وهي شقراءُ لها وجهٌ صَبُوحْ[٢]
في مَساءٍ تعبقُ الفتنةُ منه وتَفُوحْ
شاعريُّ الظِّلِّ مخضلٌّ له النُّورُ مُسُوحْ
قلتُ: يا ضاحكةَ العينيْن، ماذا لو أَبوحْ؟
أنا لو تدرينَ قلبٌ بِهوَى الغيدِ جريحْ
شاعرٌ طوَّفَ في الأرضِ فأَشقاه النُّزوحْ
سَئِمَ القيدَ «ببغدادَ» وأَدْمَتْهُ الجُرُوحْ
فأتى (باريسَ) في ظِلِّ الأماني يَسْتَرِيحْ
فرأَى حُلْمَ لياليهِ بِعينيكِ فهَامَا
وتَسَامَى نَغمًا يُشْرِقُ بالحُبِّ ضراما

* * *

وَوَقَفْنَا نَتَمَلَّى «السِّينَ» والليْلُ سُكونْ
الثَّرَى سِحْرٌ ونُورُ القَمَرِ الظَّامِي حنينْ
عُرُسٌ، فالوَرْدُ والأنْسَامُ رقصٌ ولحُونْ
وعَذَارَى الشُّهْبِ في حاشيةِ الأفْقِ عُيون
فَتعانقنا بِرُوحَيْنا وهزَّتنا الشُّجونْ
وَهَتَفْنَا: لمن الصَّهباءْ واللحْنُ الحَنُونْ
ها هُنا يحلو لِعُشَّاقِ اللَّذاذاتِ الجُنونْ

[٢] الصواب «صبيح» إلا إذا تجوزنا واستعملنا هذا الاسم في موضع الصفة بمعنى خمري.

فَـهَـلُـمِّـي نـتـعـاطـاهـا فـدُنـيـانـا فـتـونْ
مـا عـلـى مُـغْـتَـرِبـي دارٍ «بـبـاريـسَ» أقـامـا
إن أحـالا الـلـيـلَ جـامًـا والـمـسـراتِ مُـدامـا

* * *

وانْتَحَيْنَا حانةً تَحْكِي أساطيرَ الليالي
السَّنَى في جوِّها الصاخبِ شرقيُّ المثالِ
واندفعنا بين حَشْدٍ من نساء ورجالِ
يتساقوْنَ على نَخْبٍ ليالي «الكرنفال»
قلتُ: يا مُلهمتي الشعرَ ويا وحيَ خيالي
أترعيها مِنْ جَنَى «بوردو»[٣] ومِنْ تلك الدَّوالي
خمرةٌ تكشف للشاعرِ عن سِرِّ الجمالِ
ما علينا لو أذبنا الرُّوحَ في نارِ الوصالِ
أنتِ يا زهرةَ «مدريد» ويا زهوَ الدَّلالِ:
عيدُ أفراحي، وعِطرِي، ومُدَامي والنَّدَامى
قَرِّبي ثَغْرَكِ أسْكُبْ فوقَه رُوحي هُياما

* * *

قالتْ: اشْرَبْ! قلتُ: سِنْيورَا اشْربي نَخْبَ لِقانَا
لا تقولي قد خلا الحَانُ ولم يَبْقَ سِوَانَا
الهَوَى العاصفُ لا يَعرفُ للنَّجوى مَكانَا
نحن أغرودة حُبٍّ ردَّدَ الدهرُ صَدانا
ما علينا لو ختمنا بدمِ القلبِ هَوانَا
حَسْبُنا أنَّا احترقنا في جحيمٍ من أسانَا
قَدَرٌ نادَى، وقلبانِ أجابا مَنْ دَعَانَا
فعسى نبعث ذكرى (شهرزادٍ) والزَّمانا

[٣] «بوردو» مقاطعة فرنسية، غنية بأعنابها وكرومها، وإليها تنسب الخمرة المسماة باسمها.

وتلاقت شفتانا ساعةً كانت مَنامَا
أَمَرَ الحُبُّ فكنَّا في فَمِ الدنيا ابتساما!

ولكن الذي ينظم هذا الشعر لم يرتفع إلى مستواه، حينما تناول موضوعًا سياسيًّا وطنيًّا، كما نرى في قصيدته «ذكرى الشهداء»[٤] في حين أنه ما من قصيدة غنائية له إلا وهي تنبض بأجمل الأنغام والصُّوَر العصرية المحبوبة المأثورة.

ومن أمثلة ذلك — دُونَ اختيار — قصيدتاه «حنين»[٥] و«مِنْ أغاني الوداع».[٦]

وشاعرنا يطل الآن على شرفة الثلاثين من عمره. ويخيل إلينا، وهو ما يزال في الدور الاستيعابي للجمال الفني الذي يعاصره، أنه سينتقل يومًا إلى الدور الابتداعي القوي، غير مكتف بهذه السلاسة المأنوسة والمعاني السائرة المعشوقة التي تذكرنا بلطائف «علي محمود طه» التي تغنى بها الفنانون، ولكن لم يسجد لها الشعراء الأصيلون ولا النقاد الحصيفون.

بيد أن قصيدة «شهرزاد مدريد» ذات إطار أصيل من التجربة والسرد والمقارنة، فلها إذن طرافتها الخاصة الشائقة، ويعجبنا منها التسلسل القصصي المطبوع وليونة تعابيرها، وعذوبة جَرْسِها؛ بحيث إنها في أخيلتها وموسيقاها تنافس أغنية «الجندول» «لعلي محمود طه».

وبعد، فهذا مثالٌ لما تنجبه العربية القياسية والتبادل الثقافي والفني بين الأمم العربية من تجانس الشعر الغنائي الفصيح أسلوبًا وأخيلةً وصُوَرًا، إلى درجة انتفاء الصبغة الإقليمية في كثير من الأحايين وتجلي روح العصر عليها جميعًا، وإن وجدت نماذج قليلة لشعراء يتميزون بابتكارهم؛ وكأنما لا يعيشون في القرن الذي يحيون فيه، فهم جِدُّ غرباء عنه، وقد تعوزهم خصال وعناصر تحببهم إلى أهل زمانهم، فيلبثون في غربتهم هذه إلى أن يتبدل قراؤهم كما حدث «لمحمود حسن إسماعيل»، أو إلى أن يذهب الموت بما حولهم من حزازات وأحقاد كما حدث «لابن الرومي».

[٤] مجلة «الثقافة» المصرية بتاريخ السابع من يناير سنة ١٩٥٢.

[٥] مجلة «الدنيا» الدمشقية بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٥١.

[٦] مجلة «الدنيا» الدمشقية بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٥١.

من الشعر الأردني

بين الذكريات التي تحضرنا من أيام الصبا ولن تُنْسَى مذ كان لها أثر عميق في نفسنا؛ جلسة مع الأستاذ «خليل مطران»؛ إذ زاره أحد شعراء الشباب وعرض عليه قصيدة من نظمه معتذرًا عن قصوره الخيالي، قائلًا إن كل بضاعته تعبيره الصادق الحار عن عاطفته، وليس بوسعه أن يحلق في سماوات «مطران». فتأمل الأستاذ في شعر هذا الشاب، ثم قال له: «ولكن هذا هو الشعر! ... بحسبك هذا يا بُنيَّ! ...»

كان هذا منذ نيف وأربعين سنة، أيام كان الناس مفتونين بالرنين، وبمخارج الألفاظ، وبموسيقى يفرضونها فرضًا، أو يقدِّسون فيها التقاليد، دون استقلال يُجاري روح العصر أو يوائم بين فن الشعر والفنون الأخرى الإبداعية، وبذلك قضوا على نهضة الشعر العربي، لولا جهود «مطران» وبعض تلاميذه، كما قضوا على نهضة الموسيقى العربية ذاتها، ولم يفلت من قيودهم المصطنعة إلى حد ما سوى التصوير الفني بفضل «مدرسة وانلي» في «الإسكندرية». ولا نزال نجد — للأسف الشديد — طبعاتٍ عصريةً مزوقة لهذه القيود في مؤلفات ومقالات ودراسات لو أننا أخذنا بها لأخرجنا الشاعر المجيد «عيسى الناعوري» صاحب ديوان «أناشيد» من عداد الشعراء! كما حاول ذلك بعض الأدباء بيننا.

ولكننا لا نأخذ بهذه القيود المفتعلة وننظر نظرة واسعة يعززها شغفنا بفنون شتى واطلاعنا عليها وممارستنا عددًا من أهمها، وكل هذا يدعونا إلى أن نقف موقف الأسف، إزاء عجز المؤلفين والناقدين عن التخلص غالبًا من خزعبلات الأوهام القديمة، في الألفاظ والموسيقى، والموضوعات والملابسات، والأخيلة والتعبير العاطفي، في قيود دكتاتورية جدِّ منافيةٍ لروح الفن الحر، ولو طبقنا أحكامهم على الفن التصويري مثلًا

لأخرجنا «سيزان» و«ماتيس» و«رنوار» و«بيكاسو» والعديدين من الأعلام قديمًا وحديثًا من جنة الفن وألقينا بهم في الجحيم!

إن القاعدة الذهبية في تقدير الفن هي أنه تعبير خَلَّاقٌ، سواء أكان هذا التعبير رمزيًّا أم صريحًا، وليس تقدير الفن بذي صلة مطلقًا بإنتاج الفن الذي قد يندمج في ضروب شتى من الحياة لا أول لها ولا آخر، أو قد يقتصر على درب أو دروب قليلة منها، وقد يختار ألوانًا معينة أو ألحانًا بذاتها ويطوعها لموضوعاته، أو قد يزاوج بين الموضوعات والصبغات والألحان، فليست المواءمة المزعومة أمرًا معينًا حتميًّا وفاقًا لقواعدَ مفروضةٍ.

ونعود إلى التصوير؛ لأنه محسوس ومفهوم لدى الجمهرة الغالبة من المثقفين أكثر من الموسيقى مثلًا، فنستشهد بفن العبقري «بيكاسُّو» العظيم الإنتاج الكثير التنوع، ولو أخذنا بمقاييسِ أولئك النقاد لوجب أن نكافئ «بيكاسو» على خصوبة فنه كمية وتنويعًا؛ مكافأة العقاب، ولوجب أن نطرده من حظيرة الفن! وعندنا أنه ما لم يستبدل بتلك المقاييس العرجاء غيرها مما يقدرها عالم الفنون الحرة فسنبقى مسيئين إلى إمكانيات الشعر العربي — منظومًا كان أم منثورًا — في أبواب شتى، وسيبقى معظمه رهين القيود والقرون الماضية. كذلك لن تنصف المواهب، ولن يتبوأ الإبداع مكانتَه من الحفاوة والتقدير، إذا تجاهل الناقد المؤرخ مراحلَ الخلق الفني وخَدعته سلاسة الصانعين المقلدين الجامعين لمآثر غيرهم؛ إذ بذلك يضيع الماهدون المبدعون ويمجد المنتحلون الصانعون، وهو ما لا يزال راجحًا في عصرنا.

وعلى ضوء هذه المبادئ التي يحترمها الغرب، بل عالم الفن الحر، نحيي ديوان «أناشيدي» «للناعوري».

ولقد اشتهر صاحبه كأديب ناقد، وهو في رأينا جدير بأن يشتهر أيضًا كشاعر وجداني واقعي قوي العاطفة، يقول في مقدمته:

> «هذا ديواني» أسميته «أناشيدي»، وقسَّمته قسمين: يشتمل القسم الأول منهما على عدد من القصائد الفلسطينية، أو التي أوحَتْ بها نكبةُ فلسطين. ويحتوي القسم الثاني على عدد صغير من القصائد التي غَنَّيْتُ بها أشياء من نفسي لنفسي. أما قسم القصائد الفلسطينية فقد دعوته «أغاني الدماء»، وهي تسمية ستجدها منطبقة أحسن انطباق على تلك القصائد. وأما القسم الثاني فقد احتفظت له بالتسمية العامة للديوان؛ أي «أناشيدي». قد تبحث يا قارئي العزيز في هذه المجموعة الصغيرة عن شيء من شعر الحب الذي اعتدت أن

تجده في كل ديوان ولدى كل شاعر، فإذا كنت من عشاق هذا اللون من الشعر فاسمح لي بأن أعزيك عن فجيعتك سلفًا؛ فليس ناظم هذا الديوان من عشاق «الشعر الغرامي» ولا ممن يشجعون ظهوره في الصحف أو الكتب؛ لأنه شيء خاص بصاحبه، ولا حاجة للقراء إلى خصوصيات الكتَّاب والشعراء، وإنما القارئ في حاجة إلى الشاعر الذي يَهْمِسُ إليه بالحديث الذي يهمس به هو — القارئ — في نفسه، والشعور الذي يحسه في داخله ويتمنى أن يراه مُصَوَّرًا أمامَه. فإذا كنتَ يا قارئي العزيز من رأيي في هذا، فأنا سعيد بأنني استطعت أن أجد فيك المشجع الكريم، وبأن أكون في شعري قد دخلت إلى قدس أقداسك، وإلا فثقْ بأنني لن أغضب مهما تظن بي من سوء، فأنت حر في أن ترى ما تشاء، وتعجب بما تشاء، أو تستنكر ما تشاء، وأنت على الحالين مشكور.

وإذا كنا نؤمن بأنه:

لولا المحبَّةُ ما تحركَ شاعرٌ　　　ولَما غدا حَوْلَ السماكِ يَطيرُ

وبأن شعر الحب من أجمل ما تتغذى به العواطف الإنسانية، فلسنا بمن يستطيع موافقة شاعرنا الفاضل على ما ذهب إليه، ولكنه حر في اختياره. ومعاذ الله — ونحن ننشد الحرية للفن — أن نملي عليه أو على أي إنسان أي نوع من القيود. نحن نريد التنويع تبعًا للطبائع والميول الفنية، وهيهات أن نحكم على قدرِ أيِّ أثر بكميته، وإلا كنا كالتجار الخاضعين لقانون العرض والطلب، وهذا حال الجمهور غالبًا، ولكنه ليس حال الصفوة من ذوي الثقافة الواسعة، وعلى الأخص من تذوقوا الفن ومارسوه.

وكذلك الحكم على الأساليب والتناول الفني، فإن طرائقه شتى لا عدَّ لها، ومعاذ الله مرة أخرى أن نقول: هذه تصلح وتلك لا تصلح! كذلك ضروب الشعر عديدة، وغنى الأدب بهذا التعدُّد، ونحن في الواقع بحاجة إليها. ولكننا يمكننا أن نستغني، بل يجب أن نستغني عن شعراء التقليد والتصنع والانتحال، الذين لا يضيفون إلى ثروتنا جديدًا، وإن بهرجوا وزوَّقوا القديم المنهوب واستباحوا بعد ذلك وضْعَ الغار على رءوسهم، كأنما الأصالة الخلاقة والطاقة الشعرية القوية، والتفنن الجريء، والاندماج الشامل في الحياة؛ لا قيمة لها بجانب الروتين الذي يستهوي العامة.

إن فلسطين التي أنجبت من الشعراء الموهوبين أمثال «مصطفى وهبي التل» و«إبراهيم طوقان» و«عبد الرحيم محمود» و«وفَدْوَى طوقان» وغيرهم؛ قد نفحتنا كذلك

بشاعرنا «عيسى الناعوري»، الذي يَعدُّ نفسه خَطَأً ناقدًا أكثر منه شاعرًا، ولكن الواقع في رأينا عكس ذلك؛ لأنه في الوسط الذي يعيش فيه — على الرغم من قراءاته — لا يزال متأثِّرًا بمقاييس ذلك الوسط، حتى فيما ارتضاه من الشعر المهجري، ولكننا لا نجزم بأنه لن يتطور في آرائه وأحكامه على مر السنين، بل ربما رجَّحنا العكس، وقد نرى مستقبَلًا كتابًا له جدَّ مختلف عن كتابه «الجديد في الأدب العربي» الذي نوَّهنا به من قبل، وإن يكن كتابًا طريفًا شائقًا جديرًا بالإقبال عليه.

إن «عيسى الناعوري» شاعر حساس كلاسيكي الأسلوب غالبًا، وقصائده في نكبة موطنه الأصلي «فلسطين» من أروع الشعر الوطني الجياش بالعاطفة القوية، التي تهز القلوب وتغرورق لها العيون، وإننا لنتحاشى عمدًا الاقتباس منه في هذا المقام، ونكتفي — وربما لا يُغني الاكتفاء — بهذه الأبيات الساحرة من قصيدته «عند سرير طفلي» نموذجًا لمذهبه الشعري:

إغفاءةُ الوردةِ في مُقلتيكَ
وموكبُ النور في وجنتيكَ
ونَسمةُ الفجر على ثغركا
ونفحةُ الفردوسِ في طُهْرِكا
تخَفِّفُ الآلامَ عن والديكَ!

* * *

يا بَسمةً في أُفقي العابسِ
وكوكبًا في ليليَ الدامسِ
نَمْ يابنِ، يا أنشودتي الغاليهْ
نَمْ يا مُنَى رُوحي وآماليَهْ
وخلِّني أرعاكَ كالحارسِ!

رباعيات عمر الخيام

مترجمة عن الفارسية

القسم الأول: في «الخمرة» على البحر الذي استعمله الخيام نفسه

(١)

إنَّــمــا الــفُــلْــكُ[١] قَــصْــدُهُ كــلُّ سُــوءٍ
بِــكِــلَــيْــنَــا، مُــبَــدِّدًا رُوحَــيْــنــا
فــارقَــأ الــعُــشْــبَ واشــرَبِ الــخــمــرَ واغــنــمْ
قــبــلَ يــومٍ يَــنْــمُــو عــلــى تُــرْبَــيْــنــا

(٢)

تَــعْــدِلُ الــكَــأسُ ألــفَ قــلــبٍ ودِيــنِ
وتُــسَــاوِي جــمــيــعَ مُــلْــكِ الــصِّــيــنِ
لــيــس فــي الأرضِ أيُّ مُــرٍ يُــسَــامــي
ألــفَ حُــلْــوٍ سِــوَى الــشَّــرَابِ الــثَّــمــيــنِ!

[١] يريد بالفلك: الدهر.

(٣)

انْظُرِ الكأسَ فَهْيَ حُبْلَى بِرُوحٍ
تُشْبِهُ الياسَمينَ في حَمْلِ وَرْدِ
بل مِن اللطْفِ قد تَبَدَّتْ كماءٍ
ضَمَّ في نَفْسِه مُذَابًا لِوَقْدِ!

(٤)

سوف أضْفُو على المُحَيا الجميلِ
ما استطعتُ النَّعيمَ في قرْب نَهْرِ
حَيْثُ زَهْرٌ وخمرةٌ أحتسيها
مِثْلَ عَهْدٍ مَضَى وعَهْدٍ سَيَجْرِي

(٥)

عادتي أَشْرَبُ السُّلافَ فأَلْهُو
ثم دِيني نِسْيانُ كُفْر ودِينِ
وخَطَبْتُ الدُّنيا العَرُوس فقالتْ
«ما صَداقي إلَّا هَوَى المفتونِ!»

(٦)

طابَ رَهْني بالدَّنِّ ثَوْبَ صلاحِي
وتَيَمَّمْتُ مِنْ ثَرَى الحاناتِ
راجيًا أنْ أَرَى لَدَيْها بباب
ضائعًا في مَدَارِسٍ مِنْ حياتي!

(٧)

أنا لا أستطيعُ عَيْشًا بِعِبْء
هو جِسْمِي بغير راحٍ تَشِيعُ
ما أَلَذَّ الأوانَ إذْ يُقْبلُ السَّا
قي بِكَأْس أُخْرَى فلا أستطيعُ!

(٨)

إنَّما الأصْلَحُ السُّرورُ بكأْسٍ
مِنْ حُمَيَّا، لا ذِكْرُ ما قد يكونْ
أوْ بما كانَ، بل نُحَرِّرُ أروا
حًا مِن العَقْلِ في قُيودِ السُّجُونْ

(٩)

إنْ سكَبْتَ السُّلافَ فَوْقَ ثَرى الطَّوْ
دِ تَبَدَّى بِرَقْصِهِ بَسَّامَا
والذي ذَمَّها حقيرٌ، فهل تَدْ
عُو إلى الثَّوْبِ وهي تُسْمِي الأنامَا؟!

(١٠)

مُنذُ عَهْدِ السَّماءِ بالبَدْرِ والزُّهْـ
ـرَةِ لم نَلْقَ ما يَفوقُ العُقَارَا
عَجَبي مِمَّنْ يبيعونَها! ما
ذا سَيشْرُونَ ما يَرُدُّ الخَسَارَا؟!

(١١)

لا يَجوزُ الوُضُوءُ في الحانِ إلَّا
بِسُلافٍ، وما أُبالي بِسُمْعَهْ
اسْقِينَها فقد تَمَزَّقَ سَتْرٌ
لعفافي، فليس يَقْبَلُ رَقْعَهْ!

(١٢)

يا رفاقي هَبُوا من الخَمْرِ قُوتَا
وأَحيلُوا وَجْهِي بها ياقوتا
واغسِلُوني بها مَتَى مُتُّ بِرًّا
ومِن الكَرْمِ هيِّئُوا التَّابُوتا!

(١٣)

اشْـرَب الـرَّاحَ! إنَّ مـنـهـا بَـقَـاءً
سَـرْمَـدِيًّـا، وصَـفْـو ذُخْـرِ الـشَّـبـابِ
هـو عَـهْـدٌ لِـلْـوَرْدِ والـصَّـحْـبِ فـي سُـكْـ
ـرٍ، فَـطِـبْ بـالـحـيـاةِ وَقْـتَ الـشَّـرابِ

(١٤)

فـي مَـدَى الـيَـوْمِ وهـو عَـهْـدُ شـبـابـي
أَشْـرَبُ الـخَـمْـرَ نـاهِـلًا لَـذَّاتـي
لا تَـعـيـبـوا الـمـحـمودَ من طَـعـمِـها الـمُـ
ـرِّ فـهـذي مَـرارةٌ مِـنْ حـيـاتـي

(١٥)

طـالـمـا كـنـتُ صـاحـيًـا لـيـس عِـنـدي
طَـرَبٌ، والـشَّـرابُ نَـقْـصٌ لِـفِـكْـري
غـيـرَ أنـي أَرَى الـتـوسُّـطَ حـالًا
بَـيْـنَ صَـحْـوٍ وسَـكْـرةٍ أُنْـسَ عُـمْـري

(١٦)

نـالَ سَـمْـعـي فـي الـحـانِ فَـجْـرًا مُـنـادٍ:
«يـا ظـريـفًـا بـنـا الـمـدلَّـهَ أَمْـسَـى
قُـمْ وبـادرْ لِـلْـكَـأْسِ مَـلْآى فَـتَـحْـظَـى
قـبْـلَ مَـنْ يَـصْـنَـعُـون طِـيـنَـكَ كَـأْسـا!»

(١٧)

لـيـس لـي الـفُـلْـكُ بـالـمـطـيـع إذا لـم
أُسْـقَ مِـنْ راحـةِ الـحَـبـيـبِ شـرابـي

قِـيـلَ: «تُـبْ لـلإِلـهِ! قـد حـانَ تَـوْبٌ!»
قُـلْـتُ: «لـكـنْ لـم يُـوحِ ربِّـي مَـتـابـي!»

(١٨)

قَـبْـلَ أن تُـمْـسِـيَ الـهُـمـومُ فَـنَـاءً
لـكَ مُـرْهُـمْ أَنْ يُـتْـحِـفـوكَ بِـخَـمْـرِ
أنْـتَ لَـسْـتَ الإِبـريـزَ يـا أيُّـهـا الـجـا
هِـلُ حـتَّـى تُـعـادَ مِـنْ بَـعْـدِ قَـبْـرِ!

(١٩)

قـيـلَ لـي: «الـطَّـيـبـانِ حُـورٌ وخُـلْـدٌ»
قـلـتُ: «بـل طـيـبُ سـائـلِ الـعُـنـقـودِ
ذاكَ مـالٌ فـخُـذْهُ، واتـرك وعُـودًا
حيث أَشْـهى الطُّبولِ صوتُ البعيدِ!»

(٢٠)

اغْـنَـم الـوقـتَ حـيـث سـوفَ تُـوَلِّـي
لـك رُوحٌ خـلـفَ الـسـتـارِ الإلـهـي
واشـرب الـخـمْـرَ حـيـنـمـا لـسـتَ تَـدْري
لـكَ مَـبْـدًا ولا مَـآلَ الـتـنـاهـي

(٢١)

إنْ تـكـن حـاذقًـا فـنـفـسَـكَ حـاسِـبْ
عَـنْ مَـدَى مـا جَـلـبْـتَ أو مـا أَخَـذْتـا
قـلـتَ: «لا أَحْـتـسـي فـعـقـبـايَ مـوتٌ!»
سـوف تـمضِـي شَـرِبْـتَ أم قـد عَـفـفْـتَـا!

(٢٢)

إن تـكـن مَـنْ أَبَـى مُـعـاقَـرَة الـخـمْـ
ـرِ، فـجـانـبْ طَـعْـنًـا عـلـى شـاربـيـهـا

وَفَّـقَ الـلـهُ لـي الـمـتـابَ، ولـكـنْ
أنـتَ جـاوزتَ حَـدَّ إثْـمِ ذويـهـا!

(٢٣)

أيُّـهـا الـقَـلْـبُ لـسـتَ كـالأذكـيـاءِ
لِـمُـعَـمَّـى الألـغـاز تُـدْركُ سِـرًّا
فـاجـعـل الأرضَ جَـنَّـةَ الـخـمـرِ والـكـا
سِ فـلـسـتَ الـضَّـمـينَ مَـيْـلًا لأُخْـرَى

(٢٤)

يـا ابـنَ دُنـيـا، ويـا ابـنَ سَـبْـعِ سـمـاوا
تٍ إلَامَ الـتَّـفـكُّـرُ الـمـرُّ فـيـهـا؟
اشْـرَبِ الـخـمـرَ! كـم نَـصَـحْـتُـكَ أن تـعـْ
ـلَـمَ أنْ لا مَـعـادَ سـوفَ يَـلـيـهـا!

(٢٥)

لـيـتَ شِـعْـري! مـتـى أَفُـضُّ اكـتـئـابـي
بـسـؤالـي عـن ائـتـنـاسِـي وذُخْـري؟
امـلأ الـكـأْسَ! إنَّـنـي لـسـتُ أَدري
أتـنـالُ الـحـيـاةُ زفـرةَ صَـدْرِي!

(٢٦)

جـاءَ فـي ألـحـانِ لـيـلَ أمـسِ حـبـيـبـي
كـجـزاء لـصـدْقِ عـهـدي وحُـبـي
قـال: «خُـذْهـا واشـربْ!» فـقـلـتُ: «حـرامٌ!»
قال: «فاشربْ — عُدِيتَ — من أَجْلِ قلبي!»

(٢٧)

لا تُـضِـعْ فـي الـمـحَـالِ رأْسَـكَ واشْـربْ
مُـتْـرَعـاتِ الـكـئـوس طـولَ الـلـيـالـي

عِـشْ بِـرَغـدٍ مـع ابـنـةِ الـكَـرْمِ إثْـمًـا
فـهـي خـيـرٌ مـن أُمِّـهـا فـي حَـلَالِ!

(٢٨)

أَتُـقَـضِّـي الـحـيـاة كـالـعـابـدِ الـنَّـفـ
ـسَ، وفـي الـفِـكْـر فـي شَـئـونِ الـحـيـاةِ
اشْـرَب الـخـمْـرَ فـالـحـيـاةُ إلـى الـمـو
تِ فَـدَعْـهـا فـي الـسُّـكـرِ أو فـي الـسُّـبـاتِ!

(٢٩)

يـا رفـاقـي! مـتـى اجـتـمـعـتـم بِـأُنـسِ
فـاذكـروا لـلـصـديـقِ قِـسْـمَـةَ أُنْـسِـي
وإذا مـا حـسـرتـم الـخَـمْـرَ حـتَّـى
نَـوْبَـتـي فـاقْـبِـلـوا هُـنـالـكَ كَـأسِـي!

(٣٠)

أَشْـرَبُ الـخَـمْـرَ فـي جَـدَارةِ حـاسٍ
لا يَـرَى أنَّـه عـلـى الـشُّـرْبِ زلا
كـان ربِّـي يَـدْري قـديـمًـا بـحـالـي
فـإذا لـم يـكـنْ فـقـد شَـامَ جَـهْـلَا

(٣١)

أَشْـرَبُ الـخـمـر – لا أَمـدُّ يـمـيـنـي
لِـسِـوَى الـكـأسِ – فـي كـرامـة حِـسِّـي
أفـتَـدْرِي لِـمَـا عَـبَـدْتُ سَـنَـاهَـا؟
ذاك كـيْـلَا أَصـيـرَ عـابـدَ نـفـسـي!

(٣٢)

إنْ أبَـى الـنـاسُ لـي الـسَّـلامَ فـمـا لـي
غـيـرُ حَـرْبٍ، وإنْ تَـنَـلْ مِـنْ فَـخَـارِي

هـا هــي الــخــمــرُ أرجــوانــيَّــة الــكــأْ
سِ، وراسُ الــعــفــيــفِ لــلأَحــجــارِ!

(٣٣)

نـحـن أَتْـقَـى مـنـكَ يـا أيُّـهـا الـمُـفـْ
ـتِي وأَصحَـى بـرغـم سُـكْـرِ الـشَّـرَابِ!
شـارِبٌ أنـت مِـنْ دَمِ الـنـاسِ، لـكـنْ
مِـنْ دَمِ الـكَـرْمِ شُـرْبُـنـا دُونَ عـاب

(٣٤)

عادت السُّحْبُ في بكاءٍ على العُشْـ
ـبِ، وفـي الـخَـمْـرِ مـا يَـرُدُّ شَـجَـانـا
ذاكَ مَـرْأًى لـنـا، فـيـا لـيـتَ شِـعْـرِي
حـيـنـمـا نـفـتـديـه مَـنْ ذا يَـرَانـا؟!

(٣٥)

كُـنْـتُ فـي حـانَـةٍ سـألـتُ عـن الـمـا
ضِـينَ شـيـخًـا مُـسـتـغـرقًـا فـي الـشـرابِ
قـال: «دَعْـهُـمْ واشْـربْ! فـكـم مـن أُنـاسٍ
مـثـلـنـا قـد مَـضَـوْا لـغـيـرِ مـآبِ!»

(٣٦)

هُـمْ يـقـولـون ثَـمَّ جَـنَّـةُ حُـورٍ
شَـهْـدُهـا كَـوْثـرٌ بِـخَـمْـرٍ مَـرِيـئَـه
عـاطِـنـيـهـا عـلـى ادِّكـارٍ، فـكـاسٌ
هـي عِـنْـدِي تـفـوقُ ألـفَ نـسِـيـئَـه[٢]

[٢] النسيئة: عكس النقد: أي الدفع المؤخر.

(٣٧)

إنَّ خَـيْـرًا مـنْ جَـنَّـةٍ ووُعـودٍ   كأسُ خَمْرٍ في رَوْضَةٍ جَنْبَ ساقِ
فاجْتَنِبْ ذِكْرَها![3]فَمَنْ ذا الذي جَا   ءَ مِنَ الخُلْدِ أو مَضَى لاحتراقِ؟!

(٣٨)

أَيهذا الحبيبُ خُذْ لك إبْرِيـ   ـقًا وكأسًا، وطُفْ بروضٍ ونَهْرِ
فكثيرًا ما حَوَّلَ الفُلْكُ مِنْ قَـ   ـدٍّ جميلٍ كأسًا وإبريقَ خَمْرِ!

(٣٩)

بِكَ أوْلَى نَبْذُ المعارفِ طُرًّا   فَتَمَثَّلْ بِشَعْرِ حَسْنَاء أُنْسَكْ
وامْلأ الكأسَ مِنْ دِمَاءِ الأباريـ   ـقِ قُبَيْلَ الزَّمَان يُهْرِقُ نَفْسَكْ!

(٤٠)

مُنْذُ مَيَّزْتُ راحتي عن رحيلي   غَلَّ لي الفُلْكُ راحتي فَشَقِيتُ
لَهْفَ نفسي بلا رحيقٍ وحُبٍّ   حين يُحْصَى هذا كَعُمْرٍ حَيِيتُ!

(٤١)

أَسْعِد النَّفْسَ أيُّهذا الحبيب   واشْرَب الخمرَ في ضياءِ البَدْرِ
ليس مِنْ ضامن غدًا، وكثيرًا   سَوفَ يَبْدُو،[4] لكنْ بنا ليس يَدْرِي

(٤٢)

ذاكَ سَيْرُ الحياةِ — قافلةُ العُمْـ   ـرِ — عجيبٌ، فاغنمْ حُبورًا بأَرْضِ
يا نَديمي! ماذا تخافُ مِنَ البَعْـ   ـثِ؟ ألَا هاتِها! فَذَا الليْلُ يَمْضِي

(٤٣)

بَعَثَتْ بالصَّباحِ شمسٌ وأَوْفَى   مَلِكٌ للنَّهارِ في الجامِ صَبَّا
فاشرب الرَّاحَ! ذاكَ صوتُ المنادِي   داويًا، ناصحٌ إلى الدَّهْرِ شُرْبا

---

[3] أي الوعود والجنة.

[4] أي البدر.

(٤٤)

حَـرَّمُـوا الـخـمـرَ عـاجـلـيـنَ لأنَّـا سـنُـلاقـى شـهْـرَ الـصـيـامِ الـدَّانـي
قـلـتُ: «أمَّـا أنـا فـسُـكْـرِي بـشـعـبـا نَ، فأصحُوا في العيدِ، لا رَمضانِ!»

(٤٥)

خُذْ نصيبًا مِنْ مُتْعةِ الدهرِ واطرَبْ بـحُـمَـيَّـا فـي الـكَـأْسِ بـيـن يَـدَيْـكـا
غَـنِـيَ الـلـهُ عـن خُـضـوعٍ وذَنْـبٍ أَفَـتَـنْـسَـى إذَنْ نـعـيـمًـا لَـدَيْـكـا؟!

القسم الثاني: في «الكوز»

(٤٦)

قُمْ إلينا: تَعَالَ! واصْدَعْ بِحُسْنٍ لكَ ما نَشْتَكِي مِن المُشكِلاتِ
أعْطِني الكُوزَ مِنْ سُلَافٍ فأُرْوَى قبلما يَصْنَعُونَهُ[٥] مِنْ رُفَاتي!

(٤٧)

ذلك الكُوزُ أكان مِثْلِي مُضْنًى عـاشـقًـا فَـرْعَ غـادةٍ حـسـنـاءِ
حينما العُرْوَة[٦] التي هيَ فيهِ يَـدُهُ فَـوْقَ هـذهِ الـجَـيْـدَاءِ!

(٤٨)

هُـوَ جَـامٌ أَحَـبَّـهُ الـعَـقْـلُ حَـتـى لَـثَـمَ الـرأسَ مِـنْـهُ مـائـةَ مَـرَّهْ
بعدَ هذا الاتْقانِ يَرْمِي به الكَوَّا زُ على الأرْضِ حيثُ يُحْدِثُ كَسْرَهْ!

(٤٩)

كُنْتُ بالأمْسِ عند مَصْنَعِ كَوَّا زٍ وقد لُحْنَ في جُمُوعِ كِثَار
ولِكُلٍّ سؤالُ صَمْتٍ ونُطْقٍ: «أينَ ربِّي، وبائعي، والشَّاري!؟»

[٥] أي الكوز.

[٦] الإبريق مقبضه: أي أذنه.

القسم الثالث: في «التذمر»

(٥٠)

أيـهـا الـفـلـكُ إنـمـا الـبـؤسُ آثـا ـرُ لـحـقـدٍ مـؤَصَّـلٍ مـثـلِ غـدرِكْ
حـيـنـمـا أنـتِ أيـهـا الأرضُ تـحـويـ ـنَ — إذا ما فُتحتِ — كنزًا بصدركْ

(٥١)

عـلـم اللـهُ عندما جعل الطينـ ـة خلـقًا ما سوف يصدر منَّا
مـا ذنـوبـي إذن بـغـيـر رضـاه! فـلـمـاذا أُسَـامُ حَـرْقًـا وغـبـنـا؟

(٥٢)

كم دماءٍ قد أهرقَ الدهرُ عسفًا وأزاهـيـرَ بُـعـثـرتْ بـعـدَ نَـشْـرِ
لا يـغـرَّنـكَ الـصِّـبـا وجـمـالٌ كـم بـراعـيـمَ قـبـلَ نـشـرٍ لِـنَـثْـرِ

(٥٣)

حـيـنـمـا ركَّبَ الإلـهُ الـطِّـبـاعَـا كيف لم يَجْعَل الكمالَ مَدَاهَا؟
إنْ يـكـن خـصَّـهـا بـه فـلـمـاذا هَدَّها؟ أوْ هَوَتْ، فمن ذا بَوَاهَا؟

(٥٤)

جئتُ في مَبْدَئي رفيقَ اضطرابٍ وحـيـاتـي زادتْ كـذاك احـتـيـاري
قـد ذهـبـنـا كـالـمـكـرَهـيـن ولا نَـدْ رِي مـعـانـي الـمـجـيءِ والإدبـار!

(٥٥)

أسَـفًـا! قـد مَـضَـتْ ذخـيـرةُ مـالٍ بـيـدِ الـمـوتِ مُـدْمِـي الأكْـبَـادِ
لـم يَعُدْ راحلٌ من الخُلْدِ كي يَخـ ـبرَ عَمَّنْ مَضَوْا لـغـيـرِ مَعَادِ!

(٥٦)

قد ذَهَبْنَا والدهرُ يَعجبُ، لكنْ مـا ثَـقَـبْـنَـا مـن مـائـةٍ غـيـرَ دُرَّهْ
فـتـبـقَّـى مـن الـدِّقـاقِ الـمَـعَـانـي كلُّ ألفٍ تَخْشَى لَدَى الحمْقِ ذِكْرَهْ

(٥٧)

لـم يَزِدْ نَفْعُ ذلك الفُلْكِ مِنْ عَيـْ ـشِي، ولا ازداد جاهُه مِنْ ذَهَابي

حـيـن أُذنـايَ لـم تَـنـالَا جـوابًـا مُـعْـلِـنًـا سـرَّ مَـقْـدَمِـي وإيـابـي

(٥٨)

لـيتَ شِـعـري إلامَ أَعـرضُ جَـهْـلـي؟ ضـاقَ قـلـبـي مِـنْ كلِّ هـذا الـسَّـقـامِ
لـيتـنـي كـالـمـجـوسِ صـاحـبُ زُنَّـا رٍ فـمِـلْـئـي الـحَـيَـاةُ مـن إسـلامـي

(٥٩)

بـيـن سُـكْـرٍ مـن خَـمْـرَةٍ لـلْـمَـجُـوسِ واتِّـهـام بـالـكُـفْـرِ والـوَثَـنِـيَّـهْ
كـثـرتْ حـولـي الـظـنـونُ، ولـكـنْ أنـا حُـرٌّ ومِـلْـكُ نَـفْـسِـي الأبـيَّـهْ

(٦٠)

لـو حـكمـتُ الأفـلاكَ فـي قُـوَّةِ الـلـهِ لَـهَـدَّمْـتُـهـا، وأنـشـأتُ أُخْـرَى
كـي يـنـال الإنـسـانُ فـيـهـا الـذي را مَ قـريـرًا ومـا تـمـنَّـاهُ دَهْـرَا

(٦١)

لـن يـنـال الإنـسـانُ فـي هـذه الـدُّنــ ـيـا سِـوَى الـهَـمِّ والـعـذابِ وُجُـودَا
فـهـنـيـئًـا لـمـن يُـعـجِّـلُ عـنـهـا فـي رحـيـلٍ أم لـم يَـجِـئ مَـوْلُـودَا

(٦٢)

مِـثْـلَ خَـدِّ الـحسْـنَـاءِ أشرقتَ يا ور دُ، ويـا خـمـرُ طـبـتِ لـي يـاقـوتـا
حينما أنتَ أيُّـهـا الـحظُّ لـي خَـصـْ ـمٌ وإنْ تَـدَّعِ الـوَفـا مَـمْـقُـوتـا

(٦٣)

أيُّـهـا الـفُـلْـكُ لـسـتُ مـن دَوَرَاتِـكْ مُنعمًا، فانطلقْ — ودعْني — لِحَالِكْ
لـسـتُ أهـلًا لـلـقـيـدِ، لـكـن إذا كـنــ ـتَ تُـحِـبُّ الـحَـمْـقَـى فـحـالِـي كذلِكْ

(٦٤)

عـلـمَ الـلـهُ لـسـت بـالـفـلـسـفـيِّ ذاك زَعْـمٌ لِـلْـخَـصْـمِ غـيـرُ مُـوَاتِ
هـل كـثـيـرٌ إذا وُجِـدْتُ بـدنـيـا مِـحْـنَـةٍ فـاجـتـهـدتُ أعـرفُ ذاتـي؟

(٦٥)

رغـمَ مـا لـي مـن حُـسْـنِ لَـوْنٍ وعَـرْف مُـسْـتَـطَـابٍ ومـن مُـحـيَّـا «الـشَّـقِـيـقِ»

وقـوامٍ كـالـسَّـرْوِ، مـا زلـتُ لا أَدْ　　ري مَـرَامَ الـنـقَّـاشِ مـن تَـزويـقـي!

(٦٦)

لـيتَ مَـثْوًى لـنـا نَـرَى عـنـده الـرا　　حـةَ أو غـايـةَ الـطـريـقِ الـبـعـيـدِ
لـيـتـنـا نـأمـلُ الـمَـعـادَ كـعُـشْـبٍ　　نـابـتٍ بـعـد ألـفِ قـرنٍ جـديـدِ!

(٦٧)

إنَّ هـذي الأفـلاكَ فـي وضـعِـنَـا تُـعـْـ　　ـطِـي لـنـا الـهَـمَّ بعدَ نـهـبٍ جـرىءْ
ولـوَ انَّ الـذيـنَ لـم يَـقْـدُمـوا بَـعـْـ　　ـدُ دَرَوْا بُـؤْسَـنَـا لـعـافـوا الـمـجـيء

(٦٨)

هَـمَـسَ الـوردُ: «لـيس وجـهٌ كـوجـهـي　　فـي جـمـالٍ فـاسـتـقـطـرُوه بِـظـلْـمِـي»
فـأجـابَ الـهَـزارُ: «مَـنْ ذا الـذي فـا　　تَ بـكـاءَ الـشـهـورِ من ضَـحْـكِ يَـوْمِ؟»

(٦٩)

لـهـفـي! قـد طـوى مَـهـاد الـشَّـبـابِ　　وربـيـعُ الـسُّـرورِ أَمْـسَـى شِـتـاءَ
لـسـتُ أدري مـتـى مَـضَـى ذلـك الـطـا　　ئرُ — طـيرُ الـشـبـابِ — أو حِـينَ جـاءَ؟!

(٧٠)

انْظُر القصرَ — حيث (جمشيدُ) بالأمـ　　ـسِ قـريـرٌ بـكـأسـه — صـار قَـفْـرَا
بـل مـآلُ الـوحـوشِ، وانـظـرْ «لِـبَـهْـرَا　　مَ» الـذي صـادَهَـا فـقـد صِـيـدَ قَـبْـرَا!

(٧١)

مـا أصـابَ الإنـسـانُ فـي هـذه الـدنـ　　ـيـا ذاتِ الـبـابـيْـن إلا الـمُـصـابـا
فـهـنـيـئًـا لـمـن قَـضَـى — لـم يَـعِـشْ سـا　　عَـة عُـمْـرٍ، أو لـم تَـلِـدهْ — فـغـابـا

(٧٢)

قـد أتـيـنـا إلـى الـوجـودِ أخـيـرًا　　وانْـحَـطَـطْـنـا عـن رُتـبـةِ الإنـسـانِ
قـد سَـئِـمْـنـا عُـمْـرًا بـغـيـرِ هـوانـا　　لـيـتَـه يَـنْـقَـضِـي بـغـيـرِ تـوانِ

(٧٣)

أيُّ نـفـعٍ مـن الـمـجـيءِ وَعَـوْدٍ؟　　ما سُدَى خَيْط عُمْرِنا في الزَّمانِ؟

كم تَـلَـظَّـتْ بـلا دُخـانٍ عـزيـزا   تُ رءوسٍ، وَأَرْجُـلٍ لـلـحِـسَـانِ!

(٧٤)

أيُّـها الـفُـلْـكُ أنـتَ فـي كُـلِّ وقْـتٍ   هـاتـكٌ لِـلـسُّـرورِ بـي جِـلـبـابـا
كم جَـعَـلْـتَ الـنَّـسيـمَ نـارًا لـقـلـبي   وجـعـلـتَ الـنـمـيـرَ عِـنْـدِي تُـرابـا!

القسم الرابع: في «العظمة والأخلاق»

(٧٥)

كـان قـبـلـي وقـبـلـك الـلـيـلُ والـنـو   رُ ولِلْفُلكِ كان في الجري مَرْمَى
خـفِّـف الـوطءَ! إنَّ مـا أنـتَ تـمـشـي   فـوقَـه كـان عـيـنَ حـسـنـاء قِـدْمَـا!

(٧٦)

تـركـتْـنـي أيـامُ عـمـري الـقِـصـارُ   مـثـلَ مـاءِ الـوادي وريـحِ الـفَـلاةِ
لست أُعْنَى باثنيْن يوم تَقَضَّـى   وأخـوه الـذي قـريـبًـا سَـيَـاتِـي

(٧٧)

الـغـريـبُ الـوفـيُّ عـنـدي قـريـبٌ   والقريبُ النَّفورُ عنديَ خَصْمِي
وإذا الـسُّـمُّ راقـنـي كـان دِريـا   قًا، وكان الدرياقُ في الكُرْهِ سُمِّي!

(٧٨)

إنـمـا الـحـسنُ أن تُـعـامِـلَ بـالـحُـسْـ   ـنَـى سـواءً مُـجَـانِـبًـا ورَفِـيـقـا
إنْ خـذلـتَ الـصـديـقَ صـار عَـدُوًّا   أو خَـدَمْـتَ الـعَـدُوَّ صـار صَـدِيـقـا

(٧٩)

أيها القلبُ هبْ جميعَ مُنَى الدُّنْـ   ـيـا تـوالَـتْ لـديـكَ فـي أفـراحِ
أنـت كـالـطلِّ فـوقَ عُـشْـبٍ نـضـيـرٍ   فارقَ العُشْبَ في انبلاجِ الصَّبَاحِ

(٨٠)

لا تَسَلْ عن شئون عهدٍ سيأتي   لا، ولا عـن مُـصـابِـه فـهـو فـانِ

فاغنم الساعةَ التي أنتَ فيها واترك الفكرَ في بعيدٍ ودانِ

(٨١)

فوقَ بُسْطِ النُّوابِ أبْصِرُ أقوا مًا رُقودًا وتحتَه مُخْتَفِينا
وأرَى — كلَّما تأمَّلْتُ صحرا ءَ الغناءِ — الغادينَ والرَّائحينا

(٨٢)

لا تَضَع في الفؤادِ أحزانَ دُنيا لزوالٍ، وطِبْ بصفوٍ لدَيْكا
إنْ يكن طبعُها الوفاءَ لَما با نتْ عن الآخرينَ نقلًا إليكا

(٨٣)

أَفَلَسْتَ الخَجُولَ من ذلك الطَّيْـ ـشِ ومِنْ نَبْذِ كُلِّ أمرٍ لخَيْرِكْ
هَبْ ملكتَ الدنيا العريضةَ جَمْعًا هل مآلٌ سوى افتراقٍ كغيرِكْ؟!

(٨٤)

هَبْ جميعَ الدنيا جَرَتْ مثلما تَهـْ ـوَى، فما بعدُ؟ ثم ما بَعْدَ عُمْرِكْ؟
هَبْ حياةً تَعيشُها طُولَ قرنٍ في نعيمٍ، فما الذي بَعْدَ يُسْرِكْ؟

(٨٥)

كُلُّ ما ظُنَّ ذَرَّةً مِنْ تُرابٍ كان جُزْءًا من وجهِ حسناءَ رُودِ
فَبِرِفْقٍ إذَنْ أَزِلْ ما تَرَاهُ مِنْ غُبار بوجهِ حُسْنٍ جديدِ!

(٨٦)

انظر الوردَ مَزَّقَتْ ذيلَه الرِّيـ ـحُ وغَنَّى الهَزَار صَفْوًا بِحُسْنِهْ
وبظلٍّ له تَمَتَّعْ فكم فا رقَ هذا الثرَى وعادَ لِدَفْنِهْ!

(٨٧)

القُدَامَى والمُحْدَثونَ سواءٌ كلُّ آتٍ له بدور ذَهابُ
لن تَدُومَ الدُّنيا لِفَرْدٍ، فكم جا ءُوا وغابوا، وبَعْدُ جاءوا وغابُوا!

(٨٨)

كم إلى العطْرِ أنْتَ تصبو وللوْ نِ، وخلفَ القبيحِ والحُسْنِ تَعْدُو!

سوف تَمْضِي في باطنِ الأرضِ حتى   إن تــكــنْ لــلــحــيــاةِ مــاءً يُــوَدُّ

(٨٩)

يـا فـؤادي قـد غَمَّكَ الـدهـرُ بيـنـا   هـذه الـرُّوحُ سـوفَ تَـمْـضِـي لِـرَبِّـكْ
فـارقـا الـعُـشْـبَ نـاعـمًا بعـضَ أيـا   م علـيـه مِـنْ قَـبْـلِ نَـبْـتٍ بِـتـوْبـكْ!

(٩٠)

قـد يُـسَـاوِي مـحـقِّـقٌ بيـن حُـسْـنٍ   وسِـــواهُ وبـــيـــن خُـــلْـــدٍ ونـــارِ
مِـثْـلَ مَـيْـتٍ سَـاوَى ثمـيـنًا بِـبَـخْـسٍ   ومُـحِـبٍّ غـافٍ عـلـى الأحـجـارِ!

(٩١)

لا تَـضُـرَّنَّ مـا اسـتـطـعـتَ بـإنـسـا   نٍ، ولا تُـجْـلِـس امـرءًا فـوقَ نـارِكْ
وإذا شـئـتَ دائـمَ الـسَّـلْـمِ فَـلْـتَـقـْ   ـبَـلْ أَذَى الـنـاسِ لا أذاةً لـجـارِكْ

(٩٢)

ليس فيما أَحْـرَزْتَ شـيءٌ، ولا نَـقْـ   ـصٌ ولا صَـدْعَ فـي مَـدَى المفقـودِ
لـكَ أن تَـفْـرِضَ الـوجـودَ فـنـاءً   وكـذاكَ الـمـعـدومُ كـالـمـوجـودِ

(٩٣)

أو تَـدري لـمـا يَـنـوحُ لـك الـديـ   ـك دءوبًا في فـجـرِ كلِّ صبـاحِ؟
هـو يُـنْـبِـيـك أنَّ لـيـلـةَ عـمـر   لك ولَّـتْ ولستَ في وَعْـيٍ صـاحـي

(٩٤)

كـان قـبـلًا دمًـا لأهـلِ عُـرُوشٍ   نَـثْـرُ هـذا «الـشـقيقِ» في الـصَّـحْـرَاءِ
وكـذا تـتـقـي «بـنـفـسـجـةُ» الـرَّوْ   ضِ لـخـالٍ فـي وجـنـةِ الـحَـسْـنَـاءِ

(٩٥)

كـنْ حِـمـارًا مـعَ الـذيـن لـجـهـلٍ   يـدَّعـون انـفِـرَادَهُـمْ بـالـعـلـومِ
كلُّ مَـنْ لم يكـنْ حِـمـارًا عظيـمًا   مِـثْـلَـهـم حـمَّـلـوه كُـفْـرَ الأثـيـمِ!

(٩٦)

قَـسَّـمَ الـرزقَ عـادلًا خـالـقُ الـنـا   س إلـــى ذرَّةٍ بِـــدَقَّـــةِ وَازِنْ

فاسْتَرِحْ من جميع ما هو فَانٍ وتحرَّرْ من كلِّ ما هو كائنْ!

(٩٧)

بعد موتٍ يَبْنُون آجُرَّتَيْنِ كانَتَا مِثْلَنَا لِقَبْرِي وقَبْرِكْ
ثم يَغْدُو ترَابُنا آجرًا آ خرَ يُبْنَى لقبرِ غيرِي وغيرِكْ!

القسم الخامس: في «الحكمة والشك»

(٩٨)

لا تَقُلْ في السَّماءِ أَصْلٌ لخيْر ولِشَرٍّ، وأَصْلُ بِشَرٍّ وحَسْرَهْ
إنَّ هذا القضاءَ أعجزُ حَقًّا مِن قُصُورٍ خَبرتَهُ ألفَ مَرَّهْ!

(٩٩)

لو دَرَى المرءُ سِرَّ هذي الحياةِ لغدا عارفًا بما بَعْدَ فَوْتِ
فإذا كنتَ رَغْمَ صُحْبَتِكَ النَّفْـ ـس جَهُولًا بها فكيفَ بِموْتِ؟!

(١٠٠)

هؤلاء الذين عُدُّوا بعرفا نٍ مَصابيحَ لِلهُدَى قد هَامُوا
ما استطاعوا الخُرُوجَ مِنْ بُهْمَةِ الليْـ ـلِ فَفَضُّوا حديثَهم ثُمَّ نَامُوا!

(١٠١)

إنَّما العَقْلُ صاحبُ الرُّشْدِ لِلْخَيْـ ـرِ يُنادي في اليومِ مائةَ مرَّهْ
فاغنم الوقْتَ، ليس مِثْلُكَ كالسكُوْ راثِ ينمو برغمِ حصد لِنَفْرَهْ

(١٠٢)

كم تَمادَوْا لِعْبًا بهذا التُّرابِ وأخيرًا قد أَنجزوا تَصْوِيرِي
أنا لن أستحيلَ أفضلَ مِنِّي حيث أُفْرِغْتُ هكذا مِنْ كُورِي!

(١٠٣)

بين دينٍ ومَذْهَب فِكْرُ قَوْمٍ حينما غَيْرُهمْ حَيَارَى فَضَلُّوا

وإذا صــائــحٌ تَــجــلَّــى يُــنــادِي   يا حيارَى! كِلا الطَّرِيقَينِ جُهلُ!

(١٠٤)

أنتَ مِثْلي في الجهل بالأزلِ المَخْـ   ـفـيِّ عنِّـي وعنـكَ سـرًّا ولُـغْـزا
ما قرأناه، بلى ولو رُفِعَ السَّتْـ   ـر لَغِبْنا ولم نُصِبْ منه مَغْزَى

(١٠٥)

نحنُ مَنْ نَشْتَرِي كِلا الخَمرَتيْنِ   وبِبَعْضِ الشَّعِيرِ بِعنا الخُلُودْ!
عن ذَهابي مِنْ بَعْدِ مَوْتِي سَأَلتَ   هاتِ لي الخَمْرَ وامْضِ حيث تُرِيدْ!

(١٠٦)

لا ابـتـداءٌ ولا انـتـهـاءٌ لِـذِي الـدا   ئـرة الـكُـبْـرَى جَـيـئـنـا والـذَّهَـابْ
مـا أصـابـتْ أُذنـايَ من أحدٍ ذِكـْـ   ــرًا لِـمَـبْـدًا لـنـا ولا لـلإِيـابْ

(١٠٧)

مـا عَـرَفْـنـا مَـبْدًا لِدَوْرَةِ هـذا الــ   ـكوْنِ بالعقلِ وهو عَوْن القيَاسْ
لا ولا غـايـة الـخَـرَابِ الـمُـوافِـي   لِـبـنَـاءٍ لـه مـتـيـنِ الأسـاسْ

(١٠٨)

إنَّ تلكَ النُّجومَ مَنْ زانت الفلــ   ـك مـرارًا أتَـتْ وراحَـتْ وبـاءَتْ
وبِذَيْلِ السَّماءِ في جَيْبِ ذي الأَرْ   ضِ شعوبٌ كذاكَ ماتَتْ وجاءتْ!

(١٠٩)

إنَّ مـن أحـسـنوا الـتَّفَـهُّـمَ قـالـوا   فــي جَـلالِ الإلــهِ قــولًا كـثـيـرَا
مــا دَرَى واحـدٌ حـقـيـقـةَ سِـرٍّ   لَـغَـطُـوا أوَّلًا وأغـفـوْا أخـيـرا!

(١١٠)

هـم يـقـولـون ثَـمَّ جَـنَّـة خَـمْـرٍ   وشــهــادٍ ودار حُــورٍ عَـجـيـبَـهْ
فَـدَعُـونـا إذَنْ لِـنـعْـبـد جَـهْـرًا   دُونَ لَـوْمٍ خَـمْـرًا لـنـا وحَـبـيـبَـهْ

(١١١)

قَـدْ دَعَـا لِـلْـقـرارِ مـمـا سَـبَـانـي   يَـزْجُـرُ الـنفسَ حينما يَـغْـوِيـهـا

كان مِثْلَ الذي يقول: اقلب الكأ　　سَ وحاذرْ سَكْبَ الذي هو فِيها!

(١١٢)

كُنْتَ عن ذلكَ المجازِ بِنَقْشٍ　　تَسْأَلُ الشَّرْحَ حين ذاكَ يطولُ
إنما كان مِثلَ فُقَّاعَةٍ تَبـْ　　ـدُو بوجهٍ لِلْبَحْرِ ثمَّ تَحُولُ!

القسم السادس: في «العشق»

(١١٣)

هو عُنوانُ دَفْتَرٍ للمعاني　　لشبابٍ وبيتُ شِعْرٍ حَكاه
أَيُّها الجاهلُ الذي ما دَرَى العِشْـ　　ـقَ تعلَّمْ فما الحياةُ سِوَاهُ!

(١١٤)

في مَشِيبي قد صادَني عِشْقُكَ السا　　حرُ حَتَّى أخذتُ كأسَ المُدَامِ!
يا حبيبي سَلبتَ توبةَ عقلي　　مثلَ صَبْوٍ أَبْلَتْ يدُ الأيَّامِ

(١١٥)

خَبَرٌ إن سَمَحْتَ قلتُ، وإنِّي　　أُوجزُ القولَ عنه في لَفْظَتَيْنِ
سوف أمضي إلى الترابِ وعِشْقِي　　وإذا ما بُعِثْتَ عادَ وكَوْني!

القسم السابع: «فيما خاطب به الله»

(١١٦)

أنا دومًا والنفسُ في حربِ آلا　　مي وحزني الدفين من أعمالي
هَبْك كُنْتَ الكريمَ عَفْوًا، فَهَمِّي　　بحيائي مما رأيتَ حيالي

(١١٧)

قلت لا بُدَّ من عذابكَ! لكنْ　　لم تَزِدْ خَشيتي ولا تَنْبِيهي
ما مكانٌ حَلَلْتَ فيه عذابٌ　　ثم أين المكانُ لم تَحْيَ فيهِ؟!

(١١٨)

أنا ذاك العبْدُ العَصِيُّ فأين الصـَّ ـفْحُ؟ قلبي الدَّاجي فأين الضِّياءُ؟
إنْ تَهَبْنا بالطَّاعةِ الخُلْدَ كالبيْـ ـعِ فأين النَّدَى وأينَ العطاءُ؟

(١١٩)

أَنتَ كوَّنْتَني من الماءِ والطِّيـ ـنِ كما قد غَزَلْتَ صُوفَةَ عَقْلِي
وكتبتَ الذي علينا من الحَظ فماذا يكون تأثيرُ فِعْلِي؟

(١٢٠)

أين ذاكَ الذي تُرَى عاشَ مَعْصو مًا من الذنب لا يُدنِّسُ كونَكْ؟
إنْ تكن من يُكافئُ السُّوءَ بالسو ءِ فما الفرقُ ثَمَّ بَيْنِي وبَيْنَكْ؟!

(١٢١)

كم وَضَعْتَ الأَشْوَاكَ مِلْءَ طريقي ثم أعلنتَ في مَسيرِي هلاكي
أنتَ ملءُ الوجودِ ذو جبروتٍ قاهرٍ ثم تَدَّعي إشراكي

(١٢٢)

إنَّ إثباتَكَ المُحَال لِعَقْلِي فالمُناجاةُ مُنْتَهَى إثباتِكْ
لستُ أدري ما كُنْهُ ذاتِكَ حَقًّا ليس إلَّاكَ عارفٌ كُنْه ذاتِكْ

(١٢٣)

إنْ أكن ذلك المُقَصِّرَ في الطَّا عَةِ والوَجْهِ في غُبارِ التَّدَنِّي
فأنا مِنْ نَداكَ لستُ بيأسٍ حينما الفَرْدُ لم أَصِفْه اثنيْنِ

(١٢٤)

ذاكَ صَدْرِي فارحَمْهُ من أَلَمٍ فا ضَ، وقلبي الموثوقَ هَمًّا بنفسي
ثم رِجْلي التي تَمَشَّتْ إلى الحا نِ، وأيضًا يدًا تغالتْ بكأسِ

(١٢٥)

لاجتلاءِ الذي وراءَ السِّتارِ كم نُفوسٍ ذابتْ وكم من قُلوبِ!
إيه يا مَنْ يَطِيشُ عقلي لديه أنتَ في الكَوْنِ ثَمَّ شِبْهُ جَنِيبِ

(١٢٦)

أنـا ذاك الـذي ظَـهَـرْتُ اقـتـدارًا مِـنكَ حَـقًّـا وفـي نَـعـيـمِـكَ دُلِّـلـتْ
سَـوْفَ أَقْضِي قرنًا بذنبي وأغلُو لِأَرَى مـا الأَجَـلُّ ذَنْـبـي أم أَنْـتْ!

القسم الثامن: في «مطالبَ شتى»

(١٢٧)

لا تـظـنـن أنَّـني مَـنْ يَـخـافُ الـنـ ـاسَ أو قـسـوةَ الـمـنـيـةِ أَخْـشَـى
لستُ أخشى حقيقةَ الموتِ، لكنْ أنـا أخـشـى أنـي أَسـأْتُ الـعَـيْـشَـا

(١٢٨)

«أنتِ دَوْمًا سَـكْرَى وفـي كُلِّ آنٍ لكِ خِلٌّ» — أهـابَ شَـيخٌ بِمُومِسْ
فأجابت: «حقًّا كمـا قُلْتَ حـالـي كيف حالٌ لديكَ للنَّاسِ والنَّفْسْ؟»

(١٢٩)

إنَّ هذي السماءَ كالطاسِ في العَكْـ ـسِ فَـيَـلْـقَـى الـمَـذَلَّـةَ الأذكـيـاء
انـظـروا الـودَّ بـيـن كـأسٍ وإبـريـ ـقٍ فبينَ الشـفـاهِ تـجـري الدِّمـاء

(١٣٠)

خَـبَـرٌ مـنْ حـيـاتِـنـا ذلـكَ الـفُـلْـ ـكُ، و(جَيحونُ) مِنْ نَدِيِّ العُيونِ
وشَـرارٌ مـن جُـهْـدِنـا تِـلْـكُـم الـنَّـا رُ وما الخُلْدُ غيرُ بعضِ السكونِ!

رابندرانات تاجور[١]

ما استمتعت مرة بقراءة «خطبة الجبل» للسيد المسيح عليه السلام، وهي في رأيي لب تعاليمه النورانية؛ إلا تخيلت صورة جميلة لطلعته، وصوته، ونفسيته الحلوة؛ وكأني سعدت برؤيتها عيانًا سنة ألف وتسعمائة وست وعشرين، حينما كلفت رسميًّا بصحبة الشاعر العالمي «رابندرانات تاجور» في أثناء زيارته بمدينة «بورسعيد»، التي اجتذبت إليها من قبل شعراء مهتدين، على رأسهم شاعر النيل «محمد حافظ إبراهيم»، فإن نفسيته الحلوة وصوته الحنون، ووجهه المشرق، انطبعت في ذهني وفي قلبي انطباعًا قويًّا حبيبًا، لا يمكنني أن أنساه ما حييت، وقد نشرت مجلة «الزهراء» منذ ربع قرن آثار ذلك الانطباع، كما نُشِرَتْ في الجزء الأول من كتابي «مسرح الأدب».

ومنذ عشر سنوات انطفأ ذلك الكوكب الوهاج، بعد أن ملأت أشعته الكون وطافت وما تزال تطوف بأرجائه، فهي غير مشهودة في شخصه، ولكنها محسوسة في جميع آثاره القائمة على الحب والسلام والجمال.

والآن حينما تتحدى القوة الغاشمة حرية الناس باسم الحرية ذاتها، وحينما يتشح الذئب بثوب الحمل، لا تجوز أن تفوتنا ذكرى ذلك الإنسان العظيم، الذي قال: «حيثما كان الذهن عديم الخوف، والرأس مرفوعًا، والمعرفة عامة، وحيثما كانت الكلمات تأتي من عمق الحقيقة … ففي هذه السماء دع بلادي تستيقظ!» والذي قال أيضًا: «إن التحرر من قيود الهجوع هو الحرية التي أطلبها لك يا وطني؛ التحرر من فوضى القدر، الذي

[١] Rabindranath Tagare.

تخضع أشرعته عاجزة لأجنحة عمياء ... التحرر من رحمة الإقامة في عالم للدمى ... فحيثما كان الذهن حرًّا، والرأس مرتفعًا في سماء الحرية، دع بلادي تستيقظ!»

وكما كان «بوذان» «والمسيح» «ومحمد» بين الأنبياء والرسل، ماهدين للإخاء البشري؛ جاء «تاجور»؛ كما جاء «غاندي» «وولز» برسالة قرينة لروح أولئك الأنبياء والرسل الكرام!

إن مثل «تاجور» لم يكن رجل «البنغال»، أو رجل «الهند» فحسب؛ بل رجل البشرية عامة، وما مدرسته التي أسسها منذ نصف قرن، حينما كان في الأربعين من عمره، في أحضان الطبيعة، والتي تحولت إلى جامعة في سنة ١٩٢١م، وبادرت حكومة «الهند» المستقلة إلى الحفاوة بها — شأن كل حكومة تحترم نفسها نحو نوابغها وآثارهم؛ وما هذه المدرسة — كما دل اسمها الأول عند تأسيسها — إلا هيكلًا للسلام وحب الطبيعة والجمال والتآخي الإنساني، وقد رمي من ورائها إلى ثلاثة أهداف:

أولها: محاولة التوحيد بين الثقافات الشرقية.

وثانيها: درس الثقافات الغربية، وعلى الأخص ما كان منها ذا صلةٍ بالثقافات الشرقية.

وثالثها: تحقيق الانسجام العلمي والثقافي بين الشرق والغرب، والعمل على خلق الوحدة الفكرية الروحية بين الناس. فهي بصورتها هذه أرقى من «الأكاديمية» التي أنشأها «أفلاطون» في حديقة «أكاديموس»، ومن «مدرسة المشائين» التي أنشأها «أرسطو».

كان «تاجور» المتصوف المؤمن بوحدة الوجود يؤمن ضمنًا بوحدة البشرية، وقد أجاد نقل مبادئه ورسالته الروحانية إلى اللغة الإنجليزية نثرًا ونظمًا، مستمدًّا من أجمل ما أوحت به البرهمية، وشاعريته الصوفية ونزعته القصصية الفائقة التي لا تهمل شيئًا من صور الحياة مهما تكن ساذجة، ووطنيته النقية المنسجمة مع إيمانه بالتعاون العالمي الكامل.

وما تزال مدرسته التي دشنت في سنة ألف وتسعمائة وواحد، باسم «مهبط الأمان»، كعبة يحج إليها عشاق هذا الشاعر المتصوف الفيلسوف في قرية «بلبور»، فيستوحون منها كما يستوحون من مؤلفاته العديدة كل معاني الجمال والسلام والرفق والإخاء، وهي القيم الوحيدة الباقية لنا من هذا الوجود وتجاريبه.

وإن ننس لا نَنْسَ اهتمام «تاجور» بالعرب وآدابهم وبالثقافة الإسلامية، وكيف عُنِي بالدعوة إلى إنشاء كرسيٍّ لها في جامعته، فلم يجد مجيبًا من بين أغنيائنا. ولا ننس أنه كشاعرٍ تمنى حياة أقوى للشعر العربي المعاصر، حيثما اطلع على مترجمات شهيرة منه. ولئن جاملَ بتلبية زيارات، فصراحته في مذهبه الفني، لم تكن تعرف المجاملة إطلاقًا، وكذلك تقديره للحرية الإنسانية، وأظهرُ تقديرِه للشعراء الشيوخ العرب اتجه إلى «خليل مطران»، بعد أن وقف على مترجمات من شعره الرومانطيقي الإنساني، التي زخر بها الجزء الأول من ديوان «الخليل»، وهو وحده الذي كان مطبوعًا في ذلك الحين، ولئن رحل «تاجور» الآدمي عنا، فما تزال جامعته الحرة الإنسانية التعاليم قائمة، وما تزال ترحب بكل ما يستطاع إهداؤه إليها من آثار الأدب العربي قديمه وحديثه، وبتدريس الأدب العربي فيها.

ولئن شُغِفَ «تاجور» بالشعر الوجداني الغنائي، وكان أحب أعلامه لديه «شيللي» «وكنتيس» في الإنجليزية، فإن أجمل ما نضح قلمه في آثاره العديدة، هو روحه الإنسانية الفذة، وقد سمعته يقول:

> إننا في الواقع اعتمدنا على الطبيعة للتغلب عليها بوسائلها ذاتها في الماديات، وقد كسبت الإنسانية من وراء ذلك، فلماذا لا نبلغ نظيرة هذه المرتبة في الروحيات.
>
> لماذا لا نكبح جماح الشهوات ما دمنا نعلم أن الاسترسال في الشهوات يسيء إلى الإنسانية؟

كما سمعته يقول:

> إن مفسدة العالم في الأنانية الاستقلالية؛ إذ لو أدرك كل إنسان أنه في الواقع أعظم من أن يحد بجسده، وأنه متصل بإخوانه في الإنسانية؛ لَعَطَفَ عليهم العطفَ كله، وأحس بإحساسهم، ولنفى البغضاء والتحاسد، والميل إلى النزاع والمشاحنة من نفسه.[٢]

[٢] كتاب «مسرح الأدب» ج١ ص١٤.

وخير ما نختم به هذا الحديث في الذكرى العاشرة لوفاته قوله المأثور دفاعًا عن حرية الشعوب المضطهدة:

في العالم قانون أدبي يطبق على الجماعات كما يطبق على الأفراد، وليس لكم أن تهاجموا هذا القانون بصفتكم شعوبًا، وأن تجنوا ثمراته بصفتكم أفرادًا!

صورة من الشعر القديم

في طليعة الشخصيات الشامخة في الشعر العربي شخصية «الشريف الرضي»، وإنها لبرهان آخر على أن الأدب الأصيل الصادق العظيم، لا يمكن فصله عن الشخصية العظيمة اللامعة فهما شيء واحد، يترجم عن كِيانه بتعابيرَ شتى ما بين أعمالٍ وأفكارٍ وعواطفَ.

كان «الشريف الرضي» في سلوكه مثالًا لعزة النفس وشرفها، وكان جد حريصٍ على العدل، واشتهر كذلك برجاحة عقله وبتأملاته في فلسفة الأخلاق، وبنظراته الاجتماعية الدقيقة، كما نبغ في الشعر منذ طفولته وجاء هذا الشعر صادقًا مطبوعًا، كامل التصوير لنفسيته؛ كأنه لوحات فنية عظيمة، ثم جاء نثره البليغ الجزل آية في الفخامة، حتى نُسب إليه تأليفًا — لا جمعًا فحسب — كتاب «نهج البلاغة» المحتوي كلام «علي بن أبي طالب» أو معظمه، وتميزت له تصانيف جليلة في مجازات القرآن ومعانيه، تمت عن تضلعه في علوم اللغة، وفوق هذا وذاك كانت له — كما جاء في «عمدة الطالب» — «هيبة وجلالة، وفيه ورع وعفة وتقشف، ومراعاة للأهل والعشيرة … كان أحد علماء عصره، قرأ على أجلَّاء أفاضل»؛ كما كان معلِّمًا جليلًا أحبه طلبته وأعزوه، والتفوا حوله في مدرسته التي أسماها «دار العلم»، وكان يتبرع لهم بعلمه وبحاجاتهم. كل هذه الشمائل الأدبية والخلقية التي انصهرت في سبيكة واحدة هي التي ترتكز عليها شهرة «الشريف الرضي»!

يصف «الثعالبي» «الشريف الرضي» بأنه «أشعر الطالبِيِّين؛ مَنْ مضى منهم ومن غَبر، على كثرة شعرائهم المفلقين»، ثم لا يتردد في أن يذكر: «ولو قلت: إنه أشعر قريش، لم أبعد عن الصدق.» كما يذكر: «ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفًا في المراثي منه.»

وكما كان مترسلًا في النثر يصح أن يعد نظمه من الطراز ذاته، حتى إنه ليقارن بنظم «البحتري» في الصياغة المطبوعة السمحة، ولكن شعر «الشريف الرضي» يمتاز بتعبيره الفخم النبيل عن نفسٍ نبيلةٍ، وبالترفع عن كل ما يَشين، وأبت نفسه الشامخة إلا أن يخاطب الخليفة القادر بالله، بقوله:

عطفًا أميرَ المؤمنينَ! فإنَّنا   في دَوْحَةِ العَلْيَاءِ لا نتفرَّقُ
ما بيننا يومَ الفخار تَفَاوتٌ   أبدًا، كِلانا في المعالي مُعْرِقُ
إلَّا الخلافةَ مَيَّزَتْكَ، فإنَّني   أنا عاطِلٌ منها، وأنتَ مُطَوَّقُ!

قد يشتهر شاعر بقصيدةٍ واحدةٍ سكب فيها عصارة قلبه، فليس من الضروري إذن أن يكون الشاعر المجيد مكثرًا، كما أنه ليس من الواقع أن كل شاعر مقلٍّ مجيد، ولكن بين فحول الشعراء مَنْ جمع بين الإكثار والإجادة في آنٍ واحد؛ لأن ذلك طابع عبقريته، وهؤلاء قلة نذكر منهم في العربية على سبيل المثال «مهيار الديلمي» و«ابن الرومي» و«ابن حمديس» و«الشريف الرضي».

وإذ نحن بصدد «الشريف الرضي»، فلنا أن نقول إنه برع في جميع فنون الشعر العربي التي كانت معروفةً في زمنه، ولو كان أدب الملاحم الإغريقية وسواها معروفًا عند العرب حينئذ لكان «للشريف الرضي» — لا ريب — جولات موفقة فيها، ولكن غلته تقاليد بيئة المحافظة وجهلها بالشعر الإغريقي أو صدوفها عنه؛ لتوهمها إياه خطرًا على التوحيد.

ونقرأ عن شاعرنا وأديبنا الجهير أنه «لم يقبل من أحد صلة ولا جائزةً، حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جاريًا على أبيه من صلات الملوك والأمراء! واجتهد «بنو بويه» أن يحملوه على قبول صلاتهم فما استطاعوا … وقد أكبر الناس رثاءه «لأبي إسحق الصابي»؛[١] لأن المرثيَّ كان «صابئيًّا»، ونقرأ أنه «في أواخر عمره تغير عليه الخليفة القادر بالله؛ لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين، فصرفه عن الأعمال التي اعتادها، فعاش «الشريف الرضي» عيشَ القانع العفيف حتى وافته منيته». وكل هذا خلق هالة نورانية حول اسمه وسيرته.

[١] حينما لامه بعض المتطرفين في الدين لرثائه من عدوه كافرًا، قال: «إنما رثيت فضله!»

علينا بعد هذا أن نأتي ببعض الشواهد الدالة على فخامة شعره وعبقريته، وإننا بالفعل لنجد أنفسنا في حيرةٍ حول ما نختار منها وما نترك. ولأمرٍ ما — ولعله طابع الوفاء المؤثِّر — تجتذبنا مراثيه، وإنها لفي الذروة من حرارة العاطفة، ومن ذا الذي يمكن أن ينسى مرثيته «لأبي إسحق الصابي» التي يقول فيها:

أعلمتَ من حَمَلُوا على الأعوادِ؟	أرأيتَ كيف خَبَا ضِياءُ النَّادي؟
جَبَلٌ هَوَى، لو خَرَّ في البحر اغتدَى	مِنْ وقْعِهِ مُتتابِعَ الإزبادِ
ما كنتُ أَعْلَمُ قبلَ حَطِّكَ في الثَّرى	أنَّ الثَّرى يَعلُو على الأَطوادِ!
بُعْدًا ليومِكَ في الزَّمانِ فإنَّه	أقْذَى العيونَ وفَتَّ في الأعضادِ
لا يَنفدُ الدمعُ الذي يُبْكَى بِه	إنَّ القلوبَ له من الإمدادِ

ومنها:

إنَّ الدموعَ عليكَ غيرُ بخيلةٍ	والقلبُ بالسلوانِ غيرُ جوادِ
سوَّدتَ ما بين الفَضاء وناظري	وغَسَلْتَ مِنْ عينيَّ كلَّ سوادِ
يا ليتَ أنِّي ما اقتنيتُكَ صاحبًا	كم قنْيَةٍ جلبتْ أسى لفؤادي!
ليس الفجائعُ بالذخائر مِثْلَها	بأماجدِ الأعيانِ والأفرادِ
ضاقتْ عليَّ الأرضُ بَعْدَكَ كُلُّها	وتركْتَ أضيقَها عليَّ بلادي!

ولا تَقِلُّ روعةً عن هذه القصيدة مراثيه الأخرى؛ مثال ذلك رثاؤه لوالدته الذي يقول في مستهله:

أبكيكِ لو نقعَ الغليلَ بُكائي	وأقولُ لو ذهبَ المقالُ بدائي
وأعوذُ بالصَّبر الجميل تَعزِّيًا	لو كان بالصبرِ الجميلِ عزائي
طورًا تُكاثِرني الدُّموعُ، وتارةً	آوِي إلى أكرومتي وحيائي!

ومنه:

كيف السُّلُوُّ، وكلُّ مَوقع لحظةٍ … أَثَرٌ لِفضلِك خالدٌ بإزائي؟!
رُزآن يزدادانِ طُولَ تَجَدُّدٍ … أَبَدَ الزَّمانِ: فَناؤُها وبقائي
ذَخَرَتْ لنا الذكرَ الجميلَ إذا انقضى … ما يَذْخَرُ الآباءُ للأَبْناء
كم آمرٍ لي بالتَّصَبُّر هاج لي … داءً، وقدَّر أَنَّ ذاكِ دوائي
آوي إلى بَرْدِ الظلالِ كَأَنَّني … لِتَحَرُّقي آوِي إلى الرَّمضاءِ
وأَهبُّ مِنْ طِيبِ المنامِ تَفَزُّعًا … فَزَعَ اللَّديغ نَبَا عن الإغفاءِ
لو كان يُبلغكِ الصَّفيحُ رسائلي … أو كان يُسْمِعُكِ التُّرابُ ندائي
لسمعتِ طولَ تأوُّهي وتَفَجُّعي … وعلمتِ حُسْنَ رعايتي ووفائي!

ومثله رثاؤه المؤثر لوالده الذي يقول فيه:

قد كنتُ أَعْذُلُ قبلَ موتِكَ مَنْ بَكَى … فاليومَ لي عَجَبٌ من المتبسِّمِ
وأذودُ دمعي أن يَبُلَّ مَحاجري … فاليومَ أُعلمهُ بما لم يَعلمِ
لا قُلتُ بعدكَ للمدامعِ كفكفي … مِنْ عَبرةٍ ولوَ انَّ دَمعي مِنْ دَمي
هَتفَ الحِمامُ به فكانَ وَصاتَه … بَذْلُ الرغائبِ واحتمالُ المغرمِ
هل يُورثُ الرجلُ الكريمُ إذا مَضَى … إلَّا بَوَاقِيَ مِنْ عُلًا وتكرُّمِ
يَأْبَى النَّدَى تركَ الثراءِ على الفَتَى … ويَقلُّ ميراثُ الجوادِ المُنْعِمِ
مَلَأَتْ فضائلكَ البلادَ ونَقبتْ … في الأرضِ يَقْذِفُها الخبيرُ إلى العَمِي
فكأَنَّ مَجْدَكَ بارقٌ في مُزْنَةٍ … قِبَلَ العُيونِ وغرَّةٌ في أَدْهَمِ
أنعاكَ للخيل المُغيرةِ شُزَّبًا … خَبطَ المَغَارُ بهنَّ مَنْ لم يُجْرِمِ
كالسِّرْبِ أَوْجَسَ نَبأَةٍ من قانصٍ … فمضَى يَلُفُّ مُؤَخَّرًا بِمُقدَّمِ!

ومثله رثاؤه البليغ «للصاحب بن عباد»، وفيه يقول:

يا آمرَ الأقدار كيف أطَعْتَها؟! … أوَمَا وَقاكَ جلالُكَ الآجالا؟!
ألَّا أقالَتْكَ الليالي عَثْرَةً … يا مَنْ إذا عَثَرَ الزمانُ أقالَا؟!
واهًا على الأقلامِ بعدكَ، إنَّها … لم تَرْضَ غيرَ بَنَاتِ كَفِّكَ آلَا

دَفعَ الزمانُ لكَ النوائبَ دَفْعَةً وتَصَوَّبَ الوادي إليكَ فسالَا!

ومثله رثاؤه الوفي للخليفة «الطائع بالله»، وقد توفي في مجلسه وهو مخلوع، وكان في خلافته شديد الميل إليه؛ وفي هذا الرثاء يقول:

وكـذا الأيـامُ مَـنْ قـارعَـهـا تـركـتْ فـيـه عـلامـاتِ الـنِّـزالِ
نَتَجُوا في المجدِ ما أَلْقَحْتَهُ رُبَّما أوقدَ نارًا غيرُ صَالي
وإذا أَغْلَـى الـوَرَى أكـرومـة وَجَدُوا عندكَ أثمانَ الغوالي
كـلُّ مـأسـورٍ يُـرَجَّـى فـكُّـه غَيْرَ مَنْ أصبحَ في قَيْدِ الليالي!

وأقرب إلى الرثاء تفجعه لخلع ذلك الخليفة في قصيدتين من عيون شعره!

فإذا انتقلنا من الرثاء وجدنا أبوابًا أخرى عديدة تستهوينا دواعيها وفرائدها؛ سواء في الشعر الوصفي التصويري، أو في الزهد، أو في النسيب، أو في الإخوانيات، أو في الفخر، أو في شكوى الزمان، أو في غير ذلك من أبواب الشعر الكلاسيكية، دع عنك حجازياته المشهورة.

ومن أوصافه الرائعة: وصف «إيوان كسرى»، ووصف «بيوت النار بيوم الشعانين»، و«وصف الليل»، و«وصف الحيرة»، و«وصف الأسد»، و«وصف القلم». وديوانه الضخم الواقع في نيفٍ وتسعمائة صفحةٍ من القطع المتوسط، والحاوي آلافَ الأبيات السِّرِّيَّةِ؛ هو ثروة كلاسيكية للأدب العربي لا تقدَّر بثمن؛ وإذ كنا نزور حديثًا مجموعة لوحات «رامبرانت» في متحف «المتروبوليتان» للفن بنيويورك، اتفق أن كان بصحبتنا ديوان «الشريف الرضي»، فكان إحساسنا قويًّا بالشبه بين ما بيدنا وبين ما رأينا، ومهما يكن التطور في الأذواق والأساليب في الشعر أو التصوير أو في غيرهما من الفنون الجميلة؛ فما تزال للشعر الكلاسيكي عظمته، وما تزال لشعر «الشريف الرضي» عظمة خاصة.

ولم يقل ناقد منصف إن خصوبة فنه أو سرعة إنتاجه انتقصته بأي حال؛ فإنتاج «المعري» الهائل لم يكن مظهر إفلاسه، كذلك لم تكن آثار «شيكسبير» العديدة ولا آثار «هومير»، كذلك لم تكن سرعة «روسِّيني» مثلًا الذي وضع «حلاق إشبيلية» في أقلَّ من ثلاثة أسابيع، أو سرعة خاطر «أبي نواس» المتألق في شعره الصافي.

ولكن الناس عادة عبيد الحسد، قلما يعرفون قيمة الرجل العبقري إلا بعد وفاته، وهم على خير تقدير عبيد المألوف، وخصوم المتميز:

لا يعرف القومُ الفتى إلا متى   ولَّى فيعطَى حقه تحت الثرى!

وهذا كان حال «الشريف الرضي» على ما أوضحه فقيد الأدب الدكتور «زكي مبارك» في كتابه الممتاز «عبقرية الشريف الرضي».

ولسوء حظ الأدب لم يعمَّر «الشريف الرضي» أكثر من سبع وأربعين سنة هجرية؛ فقد ولد في «بغداد» سنة ٣٥٩هـ، وتوفي «بالكرخ» سنة ٤٠٦هـ؛ حيث دفن بداره أولًا؛ ثم نقل إلى مشهد «الحسين» «بكربلا»، فدفن عند أبيه. ومع ذلك أعطى الأدب العربي في هذا العمر المحدود كنزًا عظيمًا من الشعر والحكمة والنقد الاجتماعي والمثاليات الأخلاقية العليا.

ويقول لنا المؤرخون إنه نشأ في حجر والده ودرس العلم في طفولته، فبرع في الفقه والأدب واللغة والنحو، وبدأ يقرض الشعر في سن العاشرة، وألَّف وعلَّم، وضرب المثل للشعراء والأدباء في الترفع بآثارهم، وفي ابتداع مثاليات لهم، متنزهًا عن العبث والمجون، كما تنزه عن قبول صلةٍ أو جائزةٍ من أحدٍ، وكان آية الصدق والحزم والأمانة في عمله، وكل هذا نراه متجليًا في مرآة أدبه. كان يقيم في مدينة «سُرَّ مَنْ رَأَى» معظم حياته العملية، وبعد ما تولى نقابة الأشراف الطالبيين أخذ يتولى أيضًا النظر في المظالم والحج بالناس كما كان يفعل والده، إلى أن انصرف عنه الخليفة «القادر بالله». وآثار كل هذه الحياة الشريفة نحسها في ديوانه بلغة الفكر والعاطفة والفن، يحسها ويفْتَن من يُعنى بنشدانها؛ لأنها أرفع من مستوى الدهماء، على حد قوله:

أنا النُّضَار الذي يُضَنُّ به   لو قلبتني يمين منتقد!

يصف الدكتور «زكي مبارك» الشريف الرضي بأنه «الجندي المجهول»؛ وذلك لأن جلَّ شعره غيرُ مدروس، ويكاد لا يردد إلا شعره السياسي؛ لأن شاعرنا كان ضالعًا

— فيما يقال — مع الفاطميين ضد العباسيين، ومن أجل ذلك اشتهرت قصيدته اليائية التي يُعرض فيها بحكومة الخليفة «القادر بالله»؛ كما اشتهرت قافيته التي يقول فيها:

عَطْفًا أميرَ المؤمنينَ فإننا   في دَوْحَةِ العَلْيَاءِ لا نتفرَّقُ!

ولولا ذلك الاعتبار السياسي لما تحدث عنهما أحد. كذلك لولا الثورة على كتاب «نهج البلاغة» والشك في صحة نسبته إلى «الإمام علي»؛ لما تردد اسم «الشريف الرضي» مرة أخرى؛ ذلك لأن شعره الخالد العظيم هو شعر فكرٍ ومثالية وعاطفة في آن واحد، فهو شعر من النسق العالي الفذ؛ وذلك لأنه لم يتكسَّبْ بشعره، ولم ينزل به إلى مصاف الدهماء وإلى منزلة المجون والعبث والتسلية الجوفاء؛ وذلك لأنه شعر المثقفين الواعين، وليس شعر الجهلاء وأنصاف الجهلاء السطحيين، وقد أدت النهضة الفكرية العربية أخيرًا إلى الحفاوة الكاملة بشعر «الشريف الرضي»، فأعزَّته جميعَه، ولم تهمل منه شيئًا، كما أهملت نظمًا كثيرًا للشعراء الوصوليين المذبذبين المتصنعين، ولو كانوا من المشهورين.

وخير ما نختم به هذا الحديثَ العامَّ عن أدب «الشريف الرضي» هذه اللآلئ من شعره، نقدمها دون تعمُّد الاختيار، وإنها لمرآة لشاعريته ولحكمته ولعاطفته مجتمعةً.

يَغُرُّ الفَتَى ما طال منْ حبْلِ عُمْرِهِ   وترْخي المنايا بُرهَةً ثم تَجْذِبُ

* * *

كلُّ حَبْسٍ يَهُونُ عند الليالي   بَعْدَ حَبْسِ الأرواح فِي الأجسادِ

* * *

يَنالُ الفَتَى مِنْ دَهْرِهِ قدرَ نفسهِ   وتَأْتِي على قَدْر الرجالِ المكايدُ

* * *

يُعَرِّفكَ الإخوانُ كلٌّ بنفسهِ   وخيرُ أخٍ مَنْ عَرَّفَتكَ الشدائدُ

* * *

ليس الغريبُ الذي تنأَى الدِّيارُ بهِ   إنَّ الغريبَ قريبٌ غيرُ مودَودِ!

* * *

ما الفقرُ عارٌ وإن كَشَّفْتَ عَوْرتَهُ   وإنَّما العارُ مالٌ غيرُ محمودِ

* * *

إذا الشَّمْس غاضَتْ كلَّ عينٍ صحيحةٍ   فكيف بها في هذه المُقَلِ الرُّمْدِ؟

* * *

قالوا على قَدْرِ الرَّجاء وإنما   يُرْوَى على قَدْرِ الأوامِ الصَّادِي

* * *

إذَا قَيَّدَ اللَيْلُ خَطْوَ المُنَى   مَشَى النَّوْمُ في مُقْلَةِ السَّاهِر

* * *

لَحَا اللهُ دَهْرًا كثيرَ العَدُ   وِّ حتى الظَلامُ يُعادِي النَّهارَا

* * *

ما كلُّ نَسْلِ الفَتَى تزْكُو مَغَارِسُهُ   قد يفجَعُ العود بالأوراقِ والثَّمَرِ

* * *

إذا تَناءَتْ بنا قلوبٌ   فلا تَدَانَتْ بنا ديار

* * *

وليسَ كلُّ ظَلامٍ دامَ غَيْهَبهُ   يَسرُّ خابطَهَ أن يَطْلعَ القَمَر

* * *

بالجدِّ لا بالمساعي يُبْلَغ الشرفُ   تمْشي الجدود بأقوامٍ وإنْ وَقَفُوا

* * *

وضَيوفُ الهُمومِ مُذْ كُنَّ لا يَنـْ   ـزِلْنَ إلَّا على العظيمِ الشريفِ!

* * *

أراكَ تَجْزَعُ للقومِ الذين مَضَوْا   فهل أَمِنْتَ على القَوْمِ الذين بَقُوا؟!

* * *

وإذا الحليمُ رَمَى بِسِرِّ صديقهِ   عَمْدًا فأَوْلَى بالوِدَادِ الأَحمقُ!

* * *

ولا تَزْرَعُوا شَوْكَ القَتَادِ فإنكم جديرون أن تُدْمَوْا به وتشَاكوا

* * *

وليسَ يَأْتَلِفُ الإحسانُ في مَلِكٍ حتى يؤلِّفَ بينَ القولِ والعمَلِ

* * *

وأَوَّلُ لُؤْمِ المرء لؤمُ أصولِه وأولُ غَدْرِ المرءِ غَدْرُ خليلِ

* * *

النَّفسُ أدْنَى عَدُوٍّ أنتَ حاذرُهُ والقلبُ أعظمُ ما يُبْلَى به الرَّجُلُ

* * *

ومَوْتُ الفَتَى خَيْرٌ له مِنْ حياتِهِ إذا جاورَ الأيامَ وهو ذليلُ

* * *

ومَنْ مات لَم يعْلَم وقد عانقَ الثَّرى بَكاهُ خليلٌ أم سَلاهُ خليلُ

* * *

وما شَرَرٌ تَطاوحَ عن زِنادٍ بمُنْتَقَدٍ إذا بَقَيَ الضِّرامُ

* * *

كالغيثِ يَخلفه الربيعُ وبعضهم كالنارِ يَخْلُفهَا الرَّمادُ المُظْلِم!

* * *

هُبُّوا فقد تَيَقَّظُ الـ أجْدَادُ لِلقَوْمِ النِّيامِ!

* * *

لا يَذْخَرُ الضَّيْغَمُ من قُوتِهِ ما يَذْخَرُ النَّملُ مِن المَطْعَمِ!

* * *

قد يَبْلُغُ الرجلُ الجبانُ بمالهِ ما ليس يَبلغُه الشُّجاعُ المُعْدِمُ

* * *

تَشِفُّ خِلالُ المرء لي قبلَ نُطْقِهِ   وقبلَ سُؤالي عنه في القَوْمِ: ما اسْمُهُ؟!

* * *

يَمْضِي الزَّمانُ ولا نُحِسُّ كأنَّه   ريحٌ تمُرُّ ولا يُشَمُّ نسيمُها

* * *

فليتَ كريمَ قومٍ نال عِرْضِي   ولم يَدْنَسْ بذمٍّ مِنْ لئيمِ

* * *

تُمْلي المقاديرُ أعمارًا وتَنْسَخُها   ويَضْرِبُ الدَّهْرُ أيامًا بأيامِ

* * *

ومَنْظَرٍ كان بالسَّراءِ يُضحكني   يا قُرْبَ ما عاد بالضَّرَّاء يُبكيني
هيهات أغترُّ بالسُّلطانِ ثانيةً   قد ضَلَّ وَلَّاجُ أبوابِ السَّلاطينِ!

* * *

لا تَخْلدَنَّ إلى أَرْضٍ تَهُوْن بها   بالدَّارِ دارٌ وبالجيرانِ جيرانُ

* * *

يا قومُ إنَّ طويلَ الحِلْمِ مفسدةٌ   وربما ضرَّ إبقاءٌ وإحسانُ

* * *

وما خَيْرُ عَيْنٍ خَبَا نورُها   ويُمْنَى يدٍ جُذَّ منها البَنانُ

* * *

إذا المرءُ لم يَحْفَظْ ذِمامًا لقومِهِ   فأَحْج به أنْ لا يَفي بضَمانِ

* * *

وَسِعْتُ أيامي ولم تَسَعْني   أفْضَلُ عنها وتَضِيقُ عنِّي!

* * *

لا تَجْعَلَنَّ دليلَ المرء صُورَتَه   كم مَخْبَرٍ سَمِجٍ عن مَنْظَرٍ حَسَن!

* * *

ومـن عَـجَـبٍ صُـدُودُ الـحَـظِّ عـنَّـا   إلـى الـمُـتَـعَـمِّـمـيـنَ عـلـى الـخَـزَايَـا
أَسَـفَّ بِـمَـنْ يَـطـيـرُ إلـى الـمَـعـالـي   وطـارَ بـمـن يَـسـفُّ إلـى الـدَّنـايـا!

وقد تساءل الدكتور «زكي مبارك»: ليت شعري متى يجيء العهد الذهبي الذي تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق، لا بفضل من يحرسها من الجنود؟! وقد تساءل الشاعر «الناعوري» في «الثقافة»: لماذا هذا يروج وذاك لا يروج؟ والجواب عن ذلك أدلى به الدكتور «زكي مبارك» في فاتحة كتابه القيم ص٤٥، ولعلنا الآن على عتبات العصر الذهبي الذي كان يحلم به، رحمه الله ورحم «الشريف الرضي» رحمة واسعة، ورحم «الإمام عليًّا» الذي قال: «السبب الذي أدرك به العاجز بغيته، هو الذي أعجز القادرَ عن طِلْبَتِهِ.»